الأيوبيون والمماليك

(التاريخ السياسى والعسكرى)

تأليف

دكتور قاسم عبده قاسم   دكتور على السيد على



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفى

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشـر : عين للدراســات والبحـوث الانسانيــة والاجتماعيــة
٦ شارع يوسف فهمى - اسباتس - الهرم - ج.م.ع - تليفـون : ٣٨٥١٢٧٦

Publisher:ÊIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES
6, Yousof Fahmy St., Spates - Elharam - A.R.E. Tel : 3851276

مقدمة

تتناول هذه الدراسة فترة هامة وجيدة من تاريخ أمتنا العربية بشكل عام وتاريخ مصر والشام على نحو خاص . فقد شهدت فترة حكم الايوبيين والمماليك مرحلة تجمعت فيها الأمة الإسلامية على مقاومة العدوان الصليبى . واستطاعت خلال حكم الايوبيين والمماليك أن تقلص المساحة الصليبية على الخريطة العربية ، ثم القضاء بشكل نهائى وحاسم على الوجود الصليبى القائم على أرض فلسطين العربية والذى كان يتهدد العالم العربى والحضارة العربية الإسلامية طوال مائتى عام من الزمان تقريبا .

لقد كانت الأسرة الأيوبية وحكمها العسكرى الطابع والاتجاه إفرازا طبيعيا للأمة العربية التى أذهلها الوجود الصليبى على الأرض العربية ، كما كانت سلطنة المماليك استمرارا للفترة الأيوبية . لقد ورث المماليك الحكم عن سادتهم الأيوبيين ، ومع الحكم ورثوا مسئولية التصدى لأعداء الأمة العربية من الصليبيين والمغول ، واستطاعوا أن يكملوا العمل الذى أخذ الأيوبيون على عاتقهم مهمة إنجازه ، أعنى إخراج الصليبيين من المنطقة العربية .

وإذا كانت الأسرة الأيوبية التى أسسها صلاح الدين يوسف الأيوبى . قد جاءت لتستمر فى أداء دور آل زنكى فى مواجهة الصليبيين ، فان المماليك الذين كانوا عبيدا للأيوبيين استطاعوا بفضل كفاءتهم العسكرية ان ينتزعوا منهم هذا الدور . وفى جميع الأحوال كانت مصر هى قاعدة الدولة الأيوبية كما حاول الزنكيون فى فترة سابقة أن يضموها لأملاكهم . كذلك كانت مصر هى قاعدة الدولة المملوكية التى استطاعت بفضل الموارد المصرية أن تقضى على المنافسة الأيوبية فى بلاد الشام وتقوم بدور القوة الضاربة المدافعة عن الحضارة العربية الإسلامية .

إن الوحدة العضوية التى تربط عصرى الأيوبين والمماليك هى التى تجعلنا ندرس تاريخ الدولتين باعتبارهما عصرا واحدا . فاذا كان العصر الأيوبى يعتبر الفترة التمهيدية ، فان الدولة المملوكية الأولى (البحرية) تعتبر فترة النضج والنمو ، على حين تعتبر الدولة المملوكية الثانية (الجراكسة) بمثابة فترة الأفول والتدهور التى انتهت بجثة طومانباى تتأرجح على باب زويلة دليلا على نهاية الحكم المملوكى ، وبداية السيادة العثمانية الطويلة على العالم العربى .

إن هذه الفترة التى تمتد إلى مايزيد عن ثلاثة قرون فى رحاب الزمان تقدم لدارسى التاريخ نموذجا فريدا لما يمكن أن ينتج من استجابات ثقافية وعسكرية وسياسية بل وسكانية حين تتعرض حضارة ماتزال قوية ، مثل الحضارة العربية الإسلامية ، لمثل العدوان الصليبى الذى أفرزته الحضارة الأوربية التى كانت حضارة نامية متخلفة آنذاك تحاول مطاولة الحضارة العربية الإسلامية . لقد استنفدت فترة الصراع ضد الصليبيين . والتى استمرت قرنين من الزمان ، موارد الأمة العربية التى وجدت نفسها مضطرة لتوجيه كل مواردها نحو العمل العسكرى ، فكان النظام الاقطاعى العسكرى هو أفضل النظم بالنسبة لها . وكانت الدولة الأيوبية والدولة المملوكية هما التجسيد الحى للنظام الاقطاعى العسكرى .

وهذه الدراسة تتناول الجانب السياسى من تاريخ الأيوبيين والمماليك ، لأن الجوانب الثقافية والفنية والاجتماعية وغيرها تحتاج إلى مجال آخر غير هذه الصفحات القليلة والتى تهدف إلى إلقاء الضوء على التطور السياسى ، سواء من حيث النظرية السياسية للدولة ، أو من حيث النظام السياسى للدولة ، ومكانتها بين القوى السياسية العالمية المعاصرة .

والله الموفق والمستعان .

دكتور قاسم عبده قاسم

دكتور على السيد على

مدخل إلى الدراسة

كانت الحروب الصليبية ، التى أرهقت المنطقة العربية الإسلامية طوال قرنين من الزمان سببا فى تغيرات كثيرة فى هذه المنطقة . وكان طبيعيا أن تترك هذه الحركة الاستعمارية الاستيطانية بصماتها السلبية على جوانب كثيرة من جوانب الحياة العربية الإسلامية . فقد انهكت الموارد الاقتصادية والبشرية للمنطقة ، كما تسببت فى حدوث بعض التغيرات السلبية على المستوى السكانى والاجتماعى الثقافى . واذا كنا سنقصر إهتمامنا فى هذه الدراسة على النواحى السياسية ، فاننا نسلم بأن التأثيرات الناجمة عن الحروب الصليبية تتداخل مع بعضها البعض فى علاقة سببية مشتركة بدرجة يصعب معها فصل النتائج عن الأسباب وبحيث يصعب تحديد أيهما أسبق فى الوجود ، وأيهما كان سببا فى حدوث الآخر . ولكن هذا لايمنع أن يكون العامل السياسى هو العامل الواضح فى هذه الدراسة .

على أية حال ، فان التأثيرات السياسية للحروب الصليبية تبرز واضحة فى اختفاء الخلافة الفاطمية من الوجود كنتيجة مباشرة للصراع الإسلامى / الصليبى على الرغم من تسليمنا بأن عوامل التدهور والإضمحلال كانت تنخر فى كيان هذه الخلافة قبل الحروب الصليبية ، كما تتجلى هذه التأثيرات السياسية فى تدهور الخلافة العباسية بالشكل الذى قضى على أى دور فعال لهذه الخلافة فى مواجهة الهجمة الصليبية على حين ذابت قوى السلاجقة ، حماة الخلافة العباسية ، فى طيات الموجات الصليبية الأولى وفى خضم نزاعاتهم الداخلية .

وفى تصورنا أن الحروب الصليبية قد أفرزت من الحقائق السياسية فى العالم العربى الإسلامى ما أنهى دور الخلافتين القائمتين ، فلم يعد الناس بحاجة إلى خليفة يقنع بدور الرمز الدينى دون أن تكون له سلطات حقيقية (كما كان حال الخلافة العباسية المتأخرة والخلافة الفاطمية) ، وإنما باتوا بحاجة لزعيم سياسى وقائد عسكرى يقودهم فى مواجهة التحدى الحضارى الذى يطرحه العدوان الصليبى . وبرزت الدولة العسكرية الطابع والتى يقودها قائد عسكرى محارب من طراز عماد الدين الزنكى ، أو نور الدين محمود ، أو صلاح الدين الأيوبى ، أو الظاهر بيبرس ....

ولعلنا لانجافى الحقيقة إذا قلنا إن الإفراز السياسى الرئيسى للحروب الصليبية تمثل فى الدولة الأيوبية والدولة المملوكية التى جاءت استمرارا لها . والمتأمل فى تاريخ هاتين الدولتين

يخرج بانطباع مؤداه أن التركيب العسكرى لهما ، إنما جاء استجابة للتحدى الذى فرضه البصليبيون على الأمة العربية . حقيقة أن الدولتين قد حرصتا على العمل تحت لواء الخلافة العباسية (التى كانت جسدا بلا حراك زمن الأيوبيين والتى أحيا المماليك ظلها الباهت فى القاهرة بعد أن قضى عليها المغول) ولكن الخلافة نفسها ، ككيان سياسى لم تستطع أن تفعل شيئا فى هذا السبيل .

ورب قائل بأن الدولة العربية الإسلامية فى بداية وجودها فى عصر الرسول (عليه الصلاة والسلام) وفى عصر الراشدين كانت دولة ذات نشاط عسكرى واضح . وأن الخلفاء الأمويين والعباسيين الأوائل كانوا قادة عسكريين فى غالب الأمر ، كما أن الدولة الأيوبية والدولة المملوكية لم تفتقرا إلى الجانب الدينى ، وهذه حقيقة تاريخية . ولكن النظرة المتأملة تكشف عن أن الدولة العربية الإسلامية فى تاريخها الباكر ، كانت فى حال صعودها وكان طبيعيا أن يشكل النشاط العسكرى شطرا هاما من سياستها الخارجية ؛ بيد أن الجانب العسكرى لم يكن هو الجانب الذى قامت عليه مؤسسات الدولة ونظمها وعلاقة الحاكم بالمحكوم . وإنما قامت هذه العلاقات على أساس أن الخليفة هو الإمام الأكبر الذى يخلف الرسول (عليه الصلاة والسلام) في حكم الأمة وفى حفظ الدين وإقامة الحدود وتنظيم علاقات أبناء الأمة ببعضهم البعض ، أو بغيرهم .

ولكن العدوان الصليبي وماتبعه من زرع عدة مستوطنات لاتينية فوق الأرض العربية وما نتج عنه من انهاك لموارد الامة العربية الاسلامية أثبت أيضاً أن الخلافة (سواء الفاطمية أو العباسية) بما وصلت إليه من ضعف وتدهور وخضوع لمشيئة الوزراء أو القاده العسكريين لم تعد هى النمط السياسي الذي يستطيع أن يواجه هذا العدوان بنزعته الاستيطانيه . ومن ثم برزت الحاجه إلي الدولة العسكرية الطابع والتي يقودها زعيم سياسي وقائد عسكري وتستند الي التأييد الشرعي من الخلافة (ولعل هذا ما يفسر لنا حرص الأيوبيين والمماليك علي تأييد الخليفة العباسي رغم أنه لم يكن له من السلطة شيئاً) وقد أدي هذا إلي صياغة العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في الدولة الايوبية وفي الدولة المملوكية في إطار الاقطاع العسكري بحيث يتم توجيه كافة موارد الدولة نحو العمل الحربي دفاعاً عن دار الإسلام .

من هذه الأرضية برزت الي الوجود الدولة المملوكية ، لكي تضطلع بدور القوة الضاربة

المدافعة عن العالم الاسلامي وحضارته . وفي ظل هاتين الدولتين صارت مصر والشام بمثابة الحصن الأخير الذي يتولي مهمة الدفاع عن الحضارة العربية الاسلامية . وظل هذا الحصن صامداً حتي أوائل القرن السادس عشر حين بدأت الدولة العثمانية (وهي دولة عسكرية أيضاً) تفرض سلطتها علي المنطقة .

لقد قامت الدولة الأيوبية علي أنقاض الخلافة العباسية التى ظلت قائمة بدون فعالية حتي أسقطها المغول سنة ٦٥٨ هجرية . كانت هذه الخلافة قد فقدت أي وجود حقيقي وفعال لها كما أن حماتها من السلاجقة انشغلوا بانفسهم وطموحاتهم السياسية ، ومنازعتهم الداخلية، وتركوها ظلاً باهتاً لمجد غابر وسيادة ماضية فاذا ما طرقتها جحافل المغول في منتصف القرن السابع الهجري (القرن الثالث عشر الميلادي) سقطت في سرعة تتفق وحقيقتة الخواء والضعف الداخلي الذي كانت تعانيه . لقد بدأت الخلافة العباسية منحني تدهورها منذ زمن طويل وتجلي ضعفها واضحاً من خلال تلك الكثرة من الحركات الثورية الداخلية التي انهكت مواردها مثل بابك الخرمي وثورة الزنج وثورة القرامطه التي هزت أركان الخلافة العباسية طوال القرن التاسع الميلادي . وفي القرن العاشر صار الخلفاء العباسيون ألعوبة في أيدي الأمراء الأتراك . بل إن كبيرهم الذي اتخذ لنفسه لقب « أمير الأمراء » بات هو صاحب السلطة الفعلية في الدولة . وفي غضون القرنين العاشر والحادي عشر برزت النتائج السياسية لضعف الدولة العباسية من خلال الحركات الانفصالية وقيام الأسرات الحاكمة المستقلة في الشرق والغرب .

في هذه الأثناء نجح الفاطميون سنه ٩٦٩ م في الاستيلاء علي مصر وجعلوها قاعدة لخلافتهم الشيعية . وبذلك وجدت الخلافة العباسية منافساً خطيراً لها يتمثل في الخلافة الفاطمية التي اتخذت القاهرة عاصمة لها . وعلي مدي قرنين من الزمان ، أي منذ قيام الخلافة الفاطمية سنه ٩٦٩ م حتي سقوطها سنة ١١٧١ م ، ظل العالم الإسلامي نهباً للخلاف بين القاهرة الشيعية وبغداد السنية . وكانت المنطقة العربية هي المجال الحيوي الطبيعي لكل منهما للقضاء علي الأخري . وحين أوشك الفاطميون علي تحقيق هدفهم من خلال مؤامرة البساسيري الذي دعا للخليفة الفاطمي في بغداد العباسية ، احتمي العباسيون بالسلاجقة الذين بدأ نجمهم في البزوغ علي حين صار الخليفة العباسي مجود حاكم إسمي ورمز ديني .

وقد تعرض حكم السلاجقة للتصدع والانقسام بعد وفاة السلطان ملكشاه ابن ألب أرسلان سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م ، مما أضعف سلطتهم ونفوذهم بالشكل الذي جعل الخلافه العباسية تحاول استعادة سلطانها . ولكن أهم نتائج الضعف السلجوقي تمثلت في ظهور الحكومات المحلية التي عوفت باسم « الاتابكيات » وهي إمارات إقطاعية محلية كانت تقع ضمن التقسيم الإداري السلجوقي . فقد كانت الامبراطورية السلجوقية قد قسمت الي أقاليم يحكم كلاً منها فرد من أفراد الأ سرة السلجوقية الحاكمة ويعاونه في الحكم قائد عسكري عرف باسم «أتابك» (وهي كلمة مركبة معناها الوصي أو المربي ، أتا=أب أو مربي ، بك = الأمير) . وقد كانت وظيفة الأتابك هي أن يكون مسئولاً عن تربية الأمير السلجوقي تربية عسكرية تؤهله للحكم والقيادة ، فضلاً عن القيام بأعباء مهام الإدارة والحكم لحساب الأمير ولكن الضعف الذي أعتري الامبواطوريه السلجوقية ، والتعنت والنزاع الداخلي الذي عانت منه بعد وفاة ملكشاه ، أتاح الفرصة أمام هذه الاتابكيات للاستقلال ، ويهمنا في هذه الدراسة أن نركز علي واحدة من أهم هذه الدويلات المستقلة وهي أتابكية الموصل التي أسسها عماد الدين زنكي سنه ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م ، نظراً لانهالعبت دوراً هاماً في التصدي للصليبيين كما أن مؤسس الدولة الأيوبية كان واحداً من القادة العسكرين العاملين في خدمة هذه الدولة .

واذا كانت أتابكية الموصل ، وغيرها من الاتابكيات ، قد ظهر علي حساب الضعف العباسي والسلجوقي ، فان الدولة الأيوبية قد ظهوت هي الاخري علي أنقاض الدولة الفاطمية وبسبب ضعف حكام الموصل بعد نور الدين محمود لتتولي قيادة الجبهة العربية الإسلامية في مواجهة الصليبين . . . ولنبدأ القصة من أولها .

لقد تمثل الفشل الفاطمي الأكبر في مواجهة الهجوم الصليبي في أنهم لم يفهموا حقيقة الغزو الصليبي ولم يروا فيه سوي أداة تمكنهم من سحق السلاجقة السنين الذين كانوا عدواً خطيراً يتهدد الفاطميين . ويعتقد رنسمان وغيره من الباحثين أن الامبواطور البيزنطي اليكسيوس كومنين قد نصح قادة الصليبيين عندما استقبلهم في عاصمته بأن يتحالفوا مع الفاطميين ليساعدوهم ضد السلاجقة . وبالفعل أرسل الفرنج سفاره الي القاهرة لبحث إمكانية مثل هذا التحالف . وفي القاهرة كان صاحب السلطة الفعلية هو الوزير الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي ، وكان الخليفه ظلاً باهتاً ، ولقباً خالياً من أي مضمون . وكان الأفضل تواقاً الي

التحالف مع الصليبيين لكسر شوكة السلاجقة ، فراودته فكرة التحالف معهم علي أساس تقسيم بلاد الشام وآسيا الصغري بين الطرفين . وفعلاً أرسل سفارة إلي الصليبيين أثناء حصارهم لأنطاكيه للتفاوض علي تفاصيل التحالف . واذا كانت المفاوضات بين الجانبين لم تسفر عن اتفاق فان أهم نتائجها تمثلت في إدراك الصليبيين لمدي التمزق السياسي الذي كان العالم الاسلامي يعاني منه آنذاك .

وفي غمرة القتال المحتدم بين الصليبيين والسلاجقة في أعالي بلاد الشام ، خرج الأفضل علي رأس الجيش الفاطمي سنة ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م ليستولي علي مدينة بيت المقدس من السلاجقة و يدمر جزاً من تحصيناتهم ليمهد بذلك الطريق أمام الصليبيين الذين هاجموها في السنة التالية واستولوا عليها بعد أن ذبحوا الحامية الفاطمية وعدداً ضخماً من السكان في مذبحة بشعة .

حين أدرك الفاطميون حقيقة العدوان الصليبي كان الوقت قد فات . ولكن الصليبيين كانوا يعرفون منذ البداية أن مصر هي غريمهم الأول الذي يجب أن يهزموه حتي يضمنوا الأمن لوجودهم علي أرض فلسطين . وقبل استيلائهم علي القدس عقدوا مجلساً حربياً في الرملة لمناقشة مشروع غزومصر ولكن ضآلة الجيش الصليبي منعتهم من القيام بهذه المجازفة الخطيرة. ولكن غزو مصر واخضاعها ظل أملاً يداعب خيالهم وأطماعهم ، وسراباً يجذبهم نحوه بين الحين و الحين فجردوا عدة حملات لمحاولة تحقيقه حتي يضمنوا أمنهم .

وبعد أن استولي الصليبيون علي بيت المقدس في منتصف شهر يوليو سنة ١٠٩٩ جرت مذبحة رهيبة علي سكان المدينة والجيش المدافع عنها . ومع الدماء التي أريقت ، أريقت أوهام القادة الفاطميين عن التحالف مع الفرنج ضد السلاجقة . وعلى الرغم من أن الفاطميين جردوا جيوشاً كبيرة واساطيل قوية في حملات متتالية بفضل موارد مصر الاقتصادية والبشرية الكبيرة فان الفشل كان دائماً من نصيب الجهود الفاطمية بسبب التفسخ والانهيار الداخلي فى مصر آنذاك .

ونتيجة للنصر الذى احرزته الحملة الصليبية الأولى ، قامت فوق الأرض العربية عاصمة لاتينية للملكة الصليبية ، كما قامت عدة مستوطنات صليبية فى الرها وأعالى النهرين وفى أنطاكية وسوريا وفلسطين فضلا عن بعض مناطق الشاطىء اللبنانى .

ولا شك فى أن المسلمين لم يكونوا ليدعون الصليبيين يهنأون بالمدينة المقدسة التى كانت

بمثابة درة التاج وواسطة العقد لدى أصحاب الديانات السماوية الثلاث ، كما أنهم لم يكونوا ليغضون الطرف عن وجود الكيان الصليبى فوق الأرض العربية .

وعلى الرغم من تخاذل حكام المنطقة العربية عن الاتحاد فى مواجهة الخطر الصليبى منذ البداية ، فان المصادر التاريخية (عربية ولاتينية وبيزنطية وأرمنية) تحدثنا عن أن الحرب لم تتوقف ضد الصليبيين منذ وطأت أقدامهم الأرض العربية . ولكن الحكام كانوا على حال من التنازع والأنانية وقصر النظر السياسى بحيث عجزوا عن وقف المد الصليبى الذى وصل إلى أقصى اتساع له فى غضون خمسين عاما بعد نجاح الحملة الأولى ، وكانت تلك هى الفترة التى شهدت عجز القوى العربية الإسلامية فى التعاون فى خلق جبهة موحدة ضد الصليبيين . وبين حين وآخر كانت الإمارات والدول العربية تعقد بعض الاتفاقيات بقصد العمل المشترك ضد الصليبيين بيد أن هذه التحالفات السريعة كانت تنفصم بنفس السرعة التى تمت بها نتيجة لميراث الشك والحقد والمرارة المتبادل فيما بينها ، ونتيجة للحرص على المصالح الذاتية والقصور السياسى الذى جعل بعض أولئك الحكام يتحالفون مع العدو الصليبى ضد الحكام المسلمين ...

وعلى الرغم من أن الفشل السياسى فى توحيد الجهود العربية إزاء الخطر الصليبى كان يؤدى بدوره إلى المزيد من الاخفاقات العسكرية ، فان الرأى العام الإسلامى بدأ يضغط بكل قواه على الحكام . وحين فشل محور القاهرة / دمشق فى التصدى للعدوان الصليبى نتيجة لتدهور أحوال الدولة الفاطمية وتشرذم القوى الإسلامية فى بلاد الشام - حين حدث هذا الفشل بدأ يظهر فى الأفق دليل على أن شيئا ما قد أخذ يتغير داخل المعسكر الإسلامى . وجاء هذا التغيير من بين جماهير المسلمين الذين أدركوا مدى فداحة الخطر الصليبى من جهة ومدى فشل القيادات الحاكمة وعجزها عن التصدى لهذا الخطر من جهة أخرى .

فقد أثارت الاعداد الكبيرة من اللاجئين الذين تدفقوا إلى سائر بلاد المنطقة العربية مشاعر الغضب والاستياء ضد الحكام.وفى البداية عبر الناس عن مشاعرهم الغاضبة فى المساجد ومن فوق المنابر فى صلاة الجمعة . وبدأت الدعوة إلى الجهاد تسرى بين الناس مسرى النار فى الهشيم، وانتشرت فى أرجاء العالم الإسلامى . وسرعان ما تحولت الدعوة إلى الجهاد إلى حركة شعبية ضاغطة يقودها المفكرون وأصحاب الرأى . وسطرت الكتب ودبجت الرسائل التى

تحث على الجهاد وفضل المجاهدين وعن مكانة بيت المقدس وأهميتها بالنسبة للمسلمين . وفى ظل هذه الحركة تكون رأى عام قوى وضاغط بحيث لم يعد بوسع الحكام أن يتجاهلوه . وقيض لهذه الحركة أن توجه مجرى الأحداث طوال فترة تزيد على قرنين من الزمان .

فى ظل هذا البعث الأيديولوجى ظهر عماد الدين زنكى ليقود حركة المقاومة العربية الإسلامية ضد الصليبيين على محور جديد هو محور الموصل / حلب بدلا من محور القاهرة / دمشق الذى أثبت فشله بسبب الضعف والتفكك الداخلى فى مصر والشام آنذاك . وقد استطاع عماد الدين زنكى أن يخضع المنطقة الواقعة بين الموصل وحلب لسلطانه . وما لبث أن صار هو أقوى حاكم مسلم فى زمانه لأنه طوع قوته وسلطانه فى خدمة المطلب الشعبى العام : أى الجهاد ضد الفرنج . فقد قامت المدارس والعلماء والمتدينون بخلق مناخ للرأى العام القوى . وكان من المستحيل فى ظل هذا المناخ الفكرى أن يتجنب حكام المنطقة العربية الإسلامية أن يواجهوا التحدى الذى فرضه الوجود الصليبى بشكل مباشر . لقد كان الرأى العام يطلب محاربا يقود الأمة فى نضالها ضد الصليبيين ومن ثم برزت أتابكية الموصل بزعامة عماد الدين زنكى كمقدمة للدول العسكرية التى يقودها زعماء عسكريون مقاتلون لقيادة المسلمين فى صراعهم المصيرى بعد أن فشلت كل من الخلافة الفاطمية والعباسية فى القيام بهذا الدور..

شيئا فشيئا ، استطاع عماد الدين زنكى التغلب على النعرات الانعزالية فى كل من بلاد الشام والعراق والجزيرة . ففى سنة ٥٢٢ هجرية (١١٢٧ م) استولى على حلب مما كان له أكبر الأثر فى تدعيم الجبهة الإسلامية وقيام محور الموصل / حلب الذى شكل خطرا دائما على الوجود الصليبى لأنه قطع الصلة بين إمارة الرها الصليبية وغيرها من المستوطنات الصليبية فى بلاد الشام . وفى سنة ٥٣٢ هـ / ١١٣٧ م تمكن عماد الدين زنكى من الاستيلاء على حمص ثم استولى على ديار بكر سنة ٥٣٨ هـ / ١١٤٣ م وبذلك أصبح الطريق ممهدا أمامه لتوجيه ضربة قوية للصليبيين .

جاءت هذه الضربة القوية سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م ، حين استطاعت قوات عماد الدين زنكى أن تستولى على إمارة الرها بعد حصار دام ثمانية وعشرين يوما فقط . هذه الإمارة الصليبية كانت أول كيان صليبى نجحت الحملة الأولى فى زرعه تحت سماء الشرق الإسلامى . وكان سقوط الرها صدمة نفسية مؤلمة للصليبيين ونذير شؤم بالنسبة لهم وللغرب الأوربى .

ولكن نتيجة سقوطها بالنسبة لعماد الدين زنكى كانت أكثر من إيجابية فقد عززت من مكانة زنكى فى مواجهة السطان السلجوقى والخليفة العباسى . كما أن سقوط الرها بأيدى المسلمين جعل وادى الفرات يخضع تماماً للمسلمين . وضمن لهم السيطرة على طرق المواصلات التى تربط بين الشام والجزيرة والعراق . وفى سنة ١١٤ م قام الصليبيون بمحاولة فاشلة لاستعادة الرها من أيدى المسلمين ولكن نور الدين محمود ابن عماد الدين زنكى وخليفته قضى على هذه المحاولة وبذلك انتهى الضغط الصليبى على مناطق أعالى الفرات .

حاول نور الدين محمود أن يواصل سياسة أبيه عماد الدين زنكى فى توحيد الجبهة العربية الإسلامية لشن هجوم حاسم على الصليبيين ولكنه لم يكن فى الوضع الذى يسمح له بشن مثل هذا الهجوم لأن سيطرته على محور الموصل / حلب لم تكن قد رسخت بعد ، كما أن خروج محور القاهرة / دمشق عن نطاق سيطرته كان عاملا سلبيا فى حسابات القوة . إذ كان حكام دمشق عقبة كؤودا فى طريق توحيد الجبهة الإسلامية فقد كانت دمشق تحت حكم معين الدين أنر قد توصلت إلى حال من التعايش السلمى مع الصليبيين لدرجة أن حكامها استنجدوا عدة مرات بالصليبيين فى مواجهة الزنكيين . ومن ناحية أخرى لم يكن نور الدين محمود بقادر على أن يهاجم المملكة اللاتينية ومن وراء ظهره إمارة دمشق التى لا يثق بحكامها . وفضلا عن هذا كله فان مصر بمواردها البشرية والاقتصادية الهائلة كانت ضرورية لضمان النصر فى الصراع المرتقب ضد الصليبيين .

وجاء الحل السعيد على أيدى زعماء الحملة الصليبية الثانية التى جاءت كرد فعل أوربى إزاء سقوط الرها بأيدى المسلمين . وكان التخطيط لهذه الحملة قد بدأ مع تولى نور الدين الحكم حين وصلت حملة إلى البلاد الشام لاقت فشلا ذريعا . وبدلا من أن يحاول زعماء هذه الحملة استعادة الرها إذا بهم يشنون هجمة خرقاء ضد دمشق وانتهت هذه الحماقة بفشلهم فى دخول المدينة وبمجموعة من الاتهامات التى وجهها قادة الحملة إلى المستوطنين الصليبيين بقبول الرشوة من المسلمين لإحباط الحصار حول دمشق . ولكن النتيجة الرئيسية تمثلت فى ارتماء دمشق بين يدى نور الدين المفتوحتين .

لم يتخل نور الدين عن خطته لتوحيد بلاد الشام ، ومن ثم فانه ركز على إمارة دمشق وكان استيلاؤه عليها بمثابة الخطوة النهائية فى هذا السبيل . فقد استنجد صاحبها معين الدين أنر بنور الدين محمود لمواجهة قوات الحملة الصليبية الثانية سنة ٥٤٣ هـ /١١٤٨ م وبعد

ذلك بعامين حاول نور الدين مرة ثانية أن يستولى على دمشق . ولكنه لم يشأ أن يهاجمها إلا برغبة سكانها الذين حرص على أن يفهمهم أنه يحاول توحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين الذين اتخذهم حكام دمشق حلفاء . وفى سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م اتجه نور الدين إلى دمشق بعد أن استولى الصليبيين على عسقلان فى سنة ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م . ومن ناحية أخرى كان حاكم دمشق الجديد مجير الدين خاضعا للصليبيين ويدفع إليهم جزية سنوية . وحين بدأ هجوم نور الدين على دمشق استنجد حاكمها مجير الدين بالصليبيين ولكن الوقت كان فى صالح نور الدين محمود الذى دخل دمشق بعد حصار عشرة أيام . ولقى ترحيبا من أهلها الذين كانوا قد سئموا ظلم مجير الدين وعسفه .

هكذا تم توحيد الجبهة الشمالية وحشد كافة الموارد البشرية والاقتصادية والثقافية لدعم هذه الجبهة . وبسبب تماسك الجبهة الشمالية وهجمات نور الدين المستمرة على الصليبيين اتجه هؤلاء صوب الجنوب حيث كانت الظروف ملائمة لتحركهم . فقد كانت مصر آنذاك تحت الحكم الفاطمى بمثابة " الرجل المريض " على ضفاف النيل والذى ينتظر الجميع وفاته ليقتسموا تركته فقد كانت الخلافة الفاطمية عارية سوى من بعض ظلال قوتها السابقة إذ أنهكتها الكوارث الطبيعية والخلافات والمنازعات الداخلية . وتوالى تغير الوزراء الذين كانوا هم أصحاب السلطة الحقيقيين فى إيقاع سريع من الفتن والاضطرابات بغية الوصول إلى كرسى الحكم . وقد أدى ذلك ، بطبيعة الحال ، إلى ازدياد منحنى التدهور فى قوة الدولة بشكل أغرى جيرانها على الطمع فيها . وكانت مصر بمواردها الهائلة كفيلة بترجيح كفة من يمكنه الاستيلاء عليها أو ضمها إلى جانبه فى الصراع الدائر بين المسلمين بقيادة نور الدين والصليبيين . وفى سنة ١١٥٠ م هاجم الصليبيون غزة مما كشف بوضوح عن اتجاههم ضد مصر وكان استيلاؤهم على عسقلان آخر المعاقل المصرية فى الشام سنة ١١٥٣م تأكيدا لهذا الاتجاه الذى لفت انتباه نور الدين محمود . وحين هاجم الصليبيون العريش سنة ١١٦١م ، كان ذلك تعبيرا عن اختلال موازين القوة على الجبهة الجنوبية لصالح الصليبيين . وذلك أن أهم نتائج ذلك الهجوم كانت هى الإتاوة السنوية التى تعين على مصر أن تدفعها للصليبيين .

وأخيرا حانت فرصة التدخل الصليبى والوصول إلى القاهرة دونما معارك بسبب النزاع بين شاور وضرغام . فقد لجأ أحد الوزيرين المتنافسين إلى طلب مساعدة أماريك (عمورى) ملك

بيت المقدس على حين لجأ الثانى إلى الاستنجاد بنور الدين محمود . وخلال السنوات الست التالية غزا الصليبيون مصر خمس مرات وكانت هذه فرصة رائعة للصليبيين الذين كانوا ينشدون وقف الخطر المصرى ، إما بغزو مصر وضمها لأملاكهم وإما بعقد معاهدة مع المصريين لتحييدهم . ومن ناحية أخرى أبدى البيزنطيون استعدادهم لمعاونة الصليبيين ضد مصر ، ولكن الصليبيين الذين كانوا يثقون فى قدرتهم على تحقيق النصر دون مساعدة ويحدوهم الأمل فى الانفراد بثمار هذا النصر المرتقب رفضوا المساعدة البيزنطية . وحين قدمت قوات الصليبيين لنصرة أحد الوزيرين المتنافسين قدمت قوات نور الدين محمود لنصرة الوزير الآخر .

كان هذا هو السبب المعلن ولكن الحقيقة أن كلا من الطرفين كان يسعى إلى ضم مصر . وإذا كان الصليبيون قد طمعوا فى ضم مصر أو تحييدها ضمانا لكسر الجبهة العربية الإسلامية فلا شك فى أن نور الدين محمود قد ادرك أنه لن يستطيع توحيد الجبهة العربية الإسلامية دون مصر وأن ضمها هو السبيل الوحيد لتحقيق انتصار كامل على الصليبيين . ودار القتال على الأرض المصرية بين المسلمين والصليبيين واختارت جماهير الناس فى مصر ان تقف مع القوات العربية الاسلامية بطبيعة الحال ، كما اضطر الصليبيون إلى الانسحاب فى نهاية المطاف ولكن الاستيلاء على مصرظل سرابا يجذبهم تجاهه بين الحين والحين .

هذه الهجمات الصليبية الفاشلة ضد مصر أدت إلى نتيجة غاية فى الأهمية :

فقد تسببت فى تقلص الموارد البشرية والمادية لمملكة بيت المقدس اللاتينية من جهة كما أدت إلى تغيير الخريطة السياسية لصالح القوى العربية الإسلامية من جهة أخرى . فقد صار أسد الدين شيركوه قائد نور الدين وزيرا للخليفة العاضد الفاطمى فى مصر وبعد موته سنة ١١٦٩م خلفه ابن أخيه صلاح الدين يوسف الأيوبى ، ثم اختفت الخلافة الفاطمية من الوجود سنة ١١٧١م ... وبدأ تاريخ الدولة الأيوبية .

.... وتلك قصة تستحق أن تروى .

القسم الأول

عصر الأيوبيين

(٥٧١ - ٦٤٨ هـ / ١١٧٥ - ١٢٥٠ م)

الفصل الأول

ظهور صلاح الدين وتأسيس الدولة الأيوبية

الصراع الإسلامى الصليبى فى مصر – وزارة صلاح الدين للخليفة الفاطمى – نهاية الخلافة الفاطمية – صلاح الدين يوطد سلطانه فى مصر – وفاة نور الدين محمود وجهود صلاح الدين لتوحيد الجبهة الإسلامية .

فى طيات الصراع الإسلامى / الصليبى على أرض مصر برزت شخصية صلاح الدين يوسف الأيوبى مؤسس الدولة الأيوبية . وقد حظيت هذه الشخصية بمكانة هامة فى التاريخ العربى الإسلامى ، باعتبار الناصر صلاح الدين قائد الجبهة العربية الإسلامية والذى تمكنت الجيوش الإسلامية تحت قيادته من تقليص المساحة الصليبية على خريطة المنطقة العربية ، فضلا عن استرداد بيت المقدس .

ويشكل عهد صلاح الدين الأيوبى واحدة من تلك اللحظات النادرة والمثيرة فى التاريخ البشرى . وتقتضى منا الموضوعية التاريخية أن ننظر إلى هذه الشخصية الفذة فى إطارها التاريخى ، حتى نكشف كيف استطاع صلاح الدين الأيوبى أن يستخدم معطيات عصره وظروفه التاريخية ، ضمن الظروف السياسية لعصره بحيث استطاع أن يتغلب على جميع العقبات فى سبيل تحقيق الوحدة السياسية والمعنوية ، التى برهنت على أن التصميم الأخلاقى ووحدة الهدف يمكن أن تكون من القوة بحيث تواجه التحدى بصورة مباشرة .

ويميل البعض إلى تجسيد البطولة التاريخية فى شخص بعينه ، فينسبون إليه المآثر والإنجازات . بل يبالغون أحيانا فى تجسيم الدور الفردى فى التاريخ ، فيعزون إلى البطل التاريخى فضل تغيير مجرى التاريخ ويجعلونه مسئولا عن الحوادث التاريخية الجسيمة ، مثل تحقيق الانتصارات المستحيلة ، وبعث الأمة من سباتها ، وهم بهذا يجردون البطل من

إنسانيته ويلصقون به صفات أسطورية وقدرات شبه إلهية . ولما كانت العميلة التاريخية فى حقيقة أمرها عبارة عن مجموعة لا متناهية من الأفعال الجزئية لأعداد لا تحصى من البشر فى اتجاه واحد ، فاننا لا نستطيع أن نوافق على الرأى القائل بأن الفرد يصنع التاريخ .

ففى تصورنا أن الإنسان الفرد لا يمكن أن يصنع تاريخ أمة ما ، أو أن يغير من اتجاه حركة التاريخ ، مهما أوتى من مواهب عبقرية ، أو خصال قيادية أو ميزات أو سجايا غير عادية . والدليل على ذلك متواتر ومتكرر فى التاريخ الإنسانى فى كل زمان ومكان . فمن ذا الذى ينكر صفات على بن أبى طالب ، أو عمر بن عبد العزيز ، أو طومانباى ؟ ومع ذلك فانهم وغيرهم فشلوا فى تغيير حركة التاريخ بما يتفق ومثلهم العليا وشجاعتهم النادرة . فالبطل التاريخى دائما هو الذى يأتى بسجاياه الشخصية استجابة لمتطلبات عصره وحاجات أمته .

وهذا هو ما يصدق على صلاح الدين الأيوبى . فان هذا القائد الإسلامى الفذ بما تمتع به من أخلاق إسلامية مثالية وشجاعته الأخلاقية ، وعزمه وتصميمه ، وبقدرته السياسية ، وإيمانه بحق أمته ، بانكاره لذاته وجسارته العسكرية ، هذا القائد نجح فى أداء دوره التاريخى واحتل مكانته السامية فى وجدان أمته عن جدارة ، لأنه كان تلبية لحاجات هذه الأمة ، وكانت صفاته وأخلاقه ضمانا لتحقيق آمال أمته . فلم يأت صلاح الدين من فراغ كما أنه لم يجد أمة ميتة فأحياها . فقد كان التاريخ ما يزال يخبىء للأمة الإسلامية بعضا من أعظم إنجازاتها العسكرية الحضارية ، وكان دور صلاح الدين الأيوبى فى حقيقة أمره استمرارا لدور عماد الدين زنكى ، ونور الدين محمود من ناحية ، هذا الدور الذى كان إفرازا لما حدث من تدهور الخلافة العباسية وما ترتب عليه من القضاء على أى دور فعال لها فى مواجهة الهجمة الصليبية ، فضلا عن أن قوات السلاجقة - حماة الخلافة العباسية - كانت قد ذابت فى طيات الموجات الصليبية الأولى وفى خضم نزاعاتهم الداخلية [١] إلى جانب عدم فهم الفاطميين لحقيقة الغزو الصليبى منذ البداية ، حيث رأوا فيه أداة تمكنهم من سحق السلاجقة السنيين ، حسبما يؤكد ذلك ابن الأثير فى قوله " إن أصحاب مصر من العلويين ، لما رأوا قوة الدولة السلجوقية ، وتمكنها واستيلائها على بلاد الشام إلى غزة ، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية ، أخرى تمنعهم .. خافوا وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوه ، ويكونوا بينهم وبين المسلمين "[٢] وهناك إشارة وردت لدى المؤرخ الصليبى صاحب كتاب أعمال

الفرنجة وحجاج بيت المقدس تفيد وجود هذه السفارة التى أرسلوها إلى الصليبيين وهم يحاصرون مدينة أنطاكية فى شهر مارس ١٠٩٧ م[٣] فكان ظهور صلاح الدين على أنقاض الدولة الفاطمية ، وبسبب ضعف أبناء البيت الزنكى بعد وفاة نور الدين محمود ، ليتولى قيادة الجبهة الإسلامية فى مواجهة الصليبيين ، بعد أن كان الناس قد ضاقوا ذرعا بما آلت إليه الأحوال [٤] كما كان استجابة لحركة المجتمع الإسلامى الذى كان الرأى العام فيه يطلب زعيما بطلا يقود المسلمين فى حركة الجهاد ضد الصليبيين من ناحية أخرى بسبب « الخلاف المستمر والشحناء والحروب والفساد وخوف بعضهم من بعض لاشتغال الولاة عنهم وعن النظر فى أحوالهم بالخلف والمحاربة » [٥].

ولم تكن الأمة العربية لتقبل بغير القائد الذى يقودها نحو تحقيق أهدافها بديلا ، إذ كان المسلمون قد اكتشفوا مدى فداحة الخطر الصليبى ، وأعلنوا فى خطب الجمعة ، وفى كتاباتهم وأشعارهم ومنتدياتهم رفضهم لكل القيادات المتخاذلة ، مثال ذلك ما حدث فى سنة ٤٩٢ هـ عندما « خرج المستنفرون من دمشق مع قاضيها زين الدين أبى سعد الهروى ، فوصلوا بغداد وحضروا فى الديوان وقطعوا شعورهم ، واستغاثوا وبكوا ، وقام القاضى فى الديوان وأورد كلاما أبكى الحاضرين ، وندب من الديوان من يمضى إلى العسكر السلطانى ويعرفهم بهذه المصيبة » [٦]. وما حدث فى أول جمعة من شهر شعبان سنة ٥٠٤ هـ حيث « حضر رجل من الأشراف الهاشمية من أهل حلب وجماعة من الصوفية والتجار والفقهاء إلى جامع السلطان ببغداد استغاثوا وأنزلوا الخطيب عن المنبر وكسروه وصاحوا وبكوا لما لحق الإسلام من الفرنج وقتل الرجال وسبى النساء والأطفال ومنعوا الناس من الصلاة والخدم والمقدمون يعدونهم عن السلطان بما يسكنهم من إنقاذ العساكر والانتصار للإسلام من الفرنج والكفار ، وعادوا فى الجمعة الثانية إلى جامع الخليفة وفعلوا مثل ذلك من كثرة البكاء » [٧]. كما قامت المدارس والعلماء والدوائر المتدينة بخلق مناخ للرأى العام الضاغط كان من المتعذر معه وفى ظله تجنب المواجهة المباشرة للتحدى الذى فرضه الوجود الصليبى على الأرض العربية [٨]. وإدانة كافة أشكال التقاعس والتعاون مع الصليبيين حيث « ضاقت صدور أهل الدين والصلاح وزاد إنكارهم لمثل هذه الأحوال المنكرة والأسباب المستبشعة » [٩] لما أمست فيه البلاد من تبعية وذل ، وما أضطر إليه أهل بلاد الشام فى بعض المدن من مصانعة الفرنج ودفع أتاوة سنوية لهم .[١٠] كما أن السنوات السبعين التى مضت على قدوم الصليبيين قد نبهت المسلمين إلى

خطورة أولئك المستوطنين الذين كان هدفهم القضاء على الأمة العربية الإسلامية (١١) . وحين ظهر عماد الدين زنكى ، ثم نور الدين محمود التفت حولهما قلوب المسلمين وهما يوحدان الجبهة الشمالية ثم يحققان أولى الانتصارات الكبرى على الصليبيين بالاستيلاء على إمارة الرها أولى الإمارات الصليبية فى الشرق ، وعندئذ أدرك الفرنج « أن البلاد قد جاءها مالم يكن لهم فى حساب ، وصار قصاراهم حفظ ما بأيديهم بعد أن كانوا قد طمعوا فى ملك الجميع »(١٢) . وكانت جهودهما فى هذا الصدد هى الأساس الذى قامت عليه جهود صلاح الدين الأيوبى فيما بعد(١٣) .

كما تجدر الإشارة إلى أن المجتمع الذى أفرز صلاح الدين كبطل للجهاد ، هذا المجتمع كان مدركا لخطورة الأوضاع المحيطة به ، فالصليبيون كانوا قد بلغوا من القوة وإتساع النفوذ فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى / الثانى عشر للميلاد درجة هددت أهل العراق والشام ومصر بل وأهل الحجاز وسكان الحرمين . وهنا يتضح الفارق بين الظروف التى أدت إلى ظهور صلاح الدين وغيره من زعماء الجهاد السابقين ، لأن أسلاف صلاح الدين من زعماء حركة الجهاد أمثال عماد الدين زنكى ونور الدين محمود كانوا قد نالوا جموعا من الصليبيين مازالت فى دور الضج والنمو والسعى لتفهم أوضاع البيئة الجديدة التى استقرت فيها بالشرق؛ أما صلاح الدين نفسه فقد كان عليه أن يتحدى إمارات صليبية ومملكة قوية للصليبيين فى بيت المقدس بلغت جميعها على أيامه عنفوان قوتها وشبابها واكتملت لها أسباب الحياة والتنظيم السياسى والحربى (١٤) . كذلك يمكننا القول أن فكرة الوحدة التى ظهرت فى عهد عماد الدين زنكى وتمت فى عهد ابنه نور الدين محمود قد تطورت ، وبدت للمعاصرين أنها لابد وأن تكون وحدة شاملة من الفرات إلى النيل ، وأنه بدون هذه الوحدة الشاملة لن يتحقق تطهير أرض العروبة من رجس الدخلاء ، وذلك لأنهم أدركوا أن إنقسام المسلمين فى الشرق الأدنى إلى جبهتين ، جبهة فى مصر ، وجبهة فى شمال الشام والعراق قد مكن الفرنج من توجيه ضرباتهم لكل جبهة منهما على حدة ، دون أن تتمكن الجبهة الأخرى من التدخل لنجدتها فى معظم الأحيان وبشكل فعال أو مؤثر . وكان صلاح الدين استجابة لهذا المطلب ، بحيث استطاع أن يستخدم معطيات عصره وظروفه التاريخية . لتحقيق متطلبات شعب عانى من التشرذم السياسى ومن حكام أعمتهم مصالحهم الشخصية ، والذين وصفهم ابن النديم فى

عبارة بليغة بأنهم « كانوا يريدون بقاء الفرنج ليثبت عليهم ما هم فيه » أى أنهم كانوا يتمنون استمرار بقاء الفرنج فى بلاد الشام ليضمنوا استمرارهم فى مناصبهم (١٥). فقلت حرمة كثير من هؤلاء الحكام لدى أهالى البلاد الخاضعة لهم (١٦). وبذا كان ظهور صلاح الدين قد واكب ما أمسى فيه حال المسلمين من حاجة ملحة إلى ظهور زعيم عسكرى يقود الأمة للخلاص ، لذلك لا غرابة فى أن نرى أهل مصر عندما عرفوه يرحبون به ، ويلتفون حوله، كما لم يكن توجهه إلى دمشق عقب وفاة نور الدين محمود إلا تحت إلحاح وطلب جماهير دمشق له (١٧) وفى كل مكان كان يتجه إليه فى بلاد الشام كانت هناك رغبة شعبية تدفعه دوماً على طريق الوحدة الشاملة ، بغض النظر عن تصرفات بعض الحكام الذين أعمتهم مصالحهم الشخصية ، هذه الرغبة وتلك الاستجابة هى التى استمد منها زاده فى رحلته عبر مستنقع التشرذم السياسى والفتن والمؤامرات التى حاكها صغار النفوس ، فهانت عنده الدنيا « وأعرض عن أسباب اللهو وتقمص بلباس الجد والاجتهاد ، وما عاد عنه ، ولا إزداد إلا جدا ، إلى أن توفاه الله إلى رحمته » (١٨). ويجدر بنا أن نستعرض بسرعة نشأة صلاح الدين قبل أن نواصل رصدنا لتكوينه العسكرى والسياسى والظروف التى أحاطت بدوره التاريخى .

فقد كان أبوه نجم الدين أيوب وعمه أسد الدين شيركوه قد التقيا بعماد الدين زنكى سنة ٥٢٧ هـ / ١١٣٢م حين وصل زنكى إلى قرب تكريت منهزماً فى الحرب التى نشبت بينه وبين الخليفة العباسى المسترشد ، فحلت الهزيمة بزنكى عند تكريت ، وأراد عبور نهر دجلة حتى لا يقع فريسة باردة فى أيدى أعدائه من جنود الخلافة العباسية والسلاجقة الناقمين عليه آنذاك ، فأسدى نجم الدين أيوب معروفا لزنكى بأن ساعده على العبور لأنه كان حاكما على قلعة تكريت ، وكانت هذه الخدمة سببا فى العلاقة التى توطدت بين الجانبين فيما بعد (١٩)، وفى دولة نور الدين محمود بن زنكى بلغ الأخوان أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب ذروة المجد ، فقد تولى شيركوه ظيفة نائب السلطنة فى حلب وصار له إقطاع كبير بحمص ، كما تعين نجم الدين أيوب حاكما على دمشق(٢٠) أما الشاب صلاح الدين فقد رافق عمه عندما تولى وظيفة النيابة فى حلب ، ثم خلف أخاه الأكبر توران شاه كنائب لعمه أسد الدين شيركوه فى ديوان الجيش بدمشق ، ولكن أخلاقه المثالية دفعته إلى الاستقالة بسبب فساد المحتسب . ومرة أخرى عاد إلى خدمة نور الدين محمود فى حلب « فقدمه الملك العادل نور الدين محمود

زكى - رحمه الله تعالى - وعول عليه ، ونظر إليه ، وقربه وخصصه ، ولم يزل كلما تقدم قدماً تبدو منه أسباب تقتضى تقديمه إلى ماهو أعلى » (٢١). ويضيف العماد الكاتب أن صلاح الدين أصبح بالنسبة لنور الدين « أحد خواصه وأخلص ذوى استخلاصه .. لا يفارقه راكبا فى ميدانه ولا جالسا فى إيوانه يقف على رأسه .. وقد اقتدى به فى جميع ما اتصف به من مبادىء الخبرات ثم جاوز بها فى أيامه الغايات » (٢٢). بل يرى بعض المؤرخين أن صلاح الدين استوحى اهتمامه بالعلوم الدينية من إعجابه المتزايد بنور الدين محمود (٢٣).

ولا تمدنا المصادر التاريخية المتاحة بشىء يشرح تفاصيل حياة صلاح الدين الباكرة ماعدا أنه عاش فى البلاط النورى بدمشق وحلب ، وأنه تقلب فى بيئة عائلية . ولابد أنه قضى معظم أيامه فى دراسة علوم طبقته الاجتماعية وفنونها ، وحين بلغ صلاح الدين الواحدة والعشرين من عمره عينه نور الدين فى سنة ٥٥٤ هـ / ١١٦٠ م فى وظيفة " شحنة دمشق " أى رئيس الشرطة والمسئول عن الأمن بها (٢٤) إلا أننا نستطيع القول أن صلاح الدين قد نشأ فى بلاد الشام التى كانت تعتبر آنذاك الميدان الأول للصراع بين المسلمين والفرنج فى الشرق ، وقد شب فى عصر اشتداد حركة الجهاد ، وأتيحت له الفرصة أن يحيا بين أناس لا حديث لهم إلا عن حركة الجهاد التى تزعمها عماد الدين زنكى ومن بعده نور الدين محمود ، واشتد عوده فى وقت كان العالم الإسلامى يعانى فيه من الفرقة السياسية والدينية . وعندما وفد مع عمه أسد الدين شيركوه إلى مصر ، حيث رحب بهما الأهالى ، والتفوا حولهما ، أدرك بثاقب بصره الرغبة الشعبية فى كل من مصر وبلاد الشام فى التخلص من الخطر الصليبى الجاثم على صدر الأمة العربية آنذاك ، مما كان له أكبر الأثر فى تكريس صلاح الدين كل جهده ووقته وحياته ومقتبل عمره لتحقيق ذلك المطلب الشعبى ، وفى ذلك يقول ابن شداد : « ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما ، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ، ولا نظر إلا فى آلته ، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه ، ولقد هجر فى محبة الجهاد فى سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه.. »(٢٥).

وكانت مصر بمتاعبها وضعفها البادى تثير شهية كل جيرانها ، كما كانت أخبار التدهور الداخلى معروفة لهم جميعا (٢٦). وعندما فشل الصليبيون على الجبهة الشمالية اتجهوا صوب

الجنوب ، صوب مصر . واستغل الملك الصليبى بلدوين الثالث هذه الحالة وكشر عن أنيابه مهددا بغزو الديار المصرية (٢٧). ولم يرجع عن تهيده إلا بعد أن وعده الوزير ابن رزيك باسم الخليفة العاضد الفاطمى الطفل بجزية سنوية مقدارها مائة وستين ألف دينار (٢٨). ومات بلدوين الثالث سنة ٥٥٧ هـ / ١١٦٢ م وتولى حكم مملكة بيت المقدس بعده أخوه أماريك الأول « عمورى » أو « أمورى » دون أن تقوم القاهرة بدفع شيء من هذه الجزية (٢٩). وكان تولى أماريك الأول حكم بيت المقدس بداية مرحلة جديدة فى تاريخ العلاقات بين الصليبيين ومصر ، حيث أدرك أن سيطرة نور الدين محمود على حلب وحماة وحمص ودمشق قد حالت دون توسع الصليبيين فى شمال بلاد الشام ، وأن الطريق الطبيعى الذى بقى مفتوحا أمامهم هو مصر خاصة وأن الخلافة الفاطمية كانت قد انحلت وفقدت هيبتها لتحكم الوزراء فى عزل وتعيين الخلفاء وتدبير المؤامرات للتخلص منهم ، مثال ذلك الوزير طلائع بن رزيك الأرمنى الأصل والذى أخذ يستعرض المرشحين للخلافة عندما توفى الخليفة الفائز سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠م « استعراض الغنم » على حد قوله (٣٠).

ثم ازدادت أحوال الخلافة الفاطمية سوءا بمقتل الوزير طلائع بن رزيك وابنه ليحل محله فى الوزارة « شاور » الذى كان حاكماً للصعيد ، ولكن حاجبه « ضرغام » دبر مؤامرة وعزله من الوزارة ليحل محله فيها وهرب شاور من القاهرة (٣١) ووجد « أمورى » الفرصة سانحة ليتخذ من مسألة الجزية ذريعة لهجوم يشنه على الحدود المصرية ، ثم عبر برزخ السويس سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م ووصل إلى مصب دمياط ، وتصدى له « ضرغام » وقطع بعض جسور النيل ، وشكلت مياه الفيضان وأوحال الدلتا عائقا رهيبا جعل « أمورى » يتراجع إلى فلسطين (٣٢).

فى تلك الأثناء كان الوزير المخلوع « شاور » يحث الخطى نحو بلاط نور الدين محمود فى دمشق ليطلب حملة يستعيد بها كرسى الوزارة الضائع فى القاهرة (٣٣). وعرض فى مقابل ذلك أن يتكفل بنفقات الحملة ، وأن يتنازل عن بعض مناطق الحدود المصرية لنور الدين محمود وأن يعترف بسلطان نور الدين على مصر ويعطى له ثلث إيرادات مصر(٣٤) . فاستجاب نور الدين لتطلب « شاور » وأرسل معه حملة يقودها أسد الدين شيركوه يرافقه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب وعمره آنذاك سبع وعشرون سنة ، وكانت هذه خطوة هامة من جانب نور

الدين إذ يذكر ابن شداد أنه انتهز هذه الفرصة « قضاء لحق الوافد المستصرخ ، وجسًا للبلاد وتطلعا إلى أحوالها » (٣٥) فضلا عن أنه بهذه الخطوة كان يهدف ألا تقع مصر فى قبضة الصليبيين .

ولكن « ضرغام » الذى بلغته أنباء الاتفاق بين « شاور » ونور الدين محمود تحرك بدافع شهوة السلطة والأنانية السياسية ، فأرسل يستنجد بالصليبيين ، ولم يتردد « أمورى » إذ تحركت على الفور حملة صليبية نحو مصر ، بعد أن تعهد « ضرغام » له أن يعقد معه معاهدة تصبح مصر بمقتضاها تابعة للصليبيين مقابل مساعدته (٣٦) . ويقول أستاذنا الراحل الدكتور زيادة : « وهكذا عمد كل من المتنافسين الأثنين على الوزارة الفاطمية إلى اللعب بالنار وتغالى كل منهما فى اللعب بها حتى التهمت كلا منهما بدوره مع العلم أن هذه النار هى التى أضاءت الطريق لصلاح الدين يوسف بن أيوب ، ومهدت لظهوره . والحقيقة أن الصراع ضد الصليبيين على الأرض المصرية كان بمثابة المدرسة التى تلقى فيها صلاح الدين دروسه الأولى عن مجال الصراع وعوامل القوة والضعف فيه » حقيقة إن الدور الذى لعبه صلاح الدين فى هذا الصراع كان دورا ثانويا بيد أنه لم يكن دورا مغمورا تحت قيادة عمه أسد الدين شيركوه ، ويؤكد هذه الحقيقة قول ابن شداد من أن أسد الدين شيركوه منذ وفد على مصر فى حملته الأولى كان لا يفصل أمرا ، ولا يقرر حالاً إلا بمشورة ابن أخيه صلاح الدين ، لما لاح منه من آثار الإقبال والسعادة والفكرة الصحيحة واقتران النصر بحركاته وسكناته ، بل وحتى بعد أن أصبح عمه شيركوه وزيرا للخليفة الفاطمى بعد مقتل « شاور » سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م فقد كان شيركوه وزيرا آمرا ناهيا « والسلطان - رحمه الله - مباشر الأمور ، مقرر لها ، وزمام الأمر والنهى مفوض إليه لمكان كفايته ودرايته وحسن تأتيه وسياسته » (٣٧). ومع مرور الأيام كان رصيده من الخبرة العسكرية والسياسية يزيد على حين يتصاعد إدراكه لحقيقة الخطر الصليبى ، وأهمية مصر فى صراعه المقبل مع الصليبيين ؛ فقد ورد على لسانه قوله : " لما يسر الله لى الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل ، لأنه أوقع ذلك فى نفسى " (٣٨).

لقد انتقل الصراع بين نور الدين والصليبيين من شمال الشام إلى ميدان جديد هو شرق دلتا النيل بطول المسافة من الفرما « قرب بورسعيد الحالية » حتى القاهرة ، وكانت هذه النقلة فى مجال الصراع أكثر من مجرد نقلة جغرافية ، فقد كانت بمثابة تطور جديد فى المفاهيم

السياسية . فمنذ البداية أدرك الصليبيون قيمة مصر لحسم مصير الكيان اللاتينى تحت سماء الشرق ، كما أن نور الدين محمود أدرك بجلاء شديد أهمية وجود مصر فى الجبهة الإسلامية لضمان النصر على الصليبيين . لقد فرض منطق التاريخ وحقائق الجغرافيا السياسية أن تكون مصر ميدانا رئيسيا فى الحروب الصليبية لا هامشا عرضيا من هوامش ذلك الصراع الطويل المضنى .

على أية حال استطاعت الحملة النورية بقيادة شيركوه أن تصل إلى الفرما قبل أن يتمكن الصليبيون من اللحاق بها أو اعتراضها . وزحف شيركوه صوب القاهرة ، وبعد مصرع «ضرغام » استعاد « شاور » كرسى الوزارة إلا أنه تنكر لشيركوه الذى أتى لنجدته وأخلف وعده الذى قطعه على نفسه لنور الدين ، كما تصدى للجيش الإسلامى الذى قاده شيركوه ومنعه من دخول القاهرة وطلب منه العودة إلى بلاد الشام ، وتقهقر شيركوه إلى مدينة بلبيس واحتلها وعسكر فيها بجيشه . هنا لجأ « شاور » مرة أخرى إلى طلب النجدة من خارج مصر، وطلبها هذه المرة من الصليبيين . وعلى الفور قدم « أمورى » إلى مصر حيث وصلت قواته إلى فاقوس الحالية فى صيف ٥٥٩ هـ / ١١٦٤ م ، حيث انضم إلى قوات « شاور » وتقدم الاثنان لحصار بلبيس التى كان شاور معسكرا بها وانضمت إليه بعض قوات من عرب كنانة بالشرقية ، واستمر حصار « شاور » والفرنج لشيركوه مدة ثلاثة أشهر من مستهل شهر رمضان إلى مستهل شهر ذى الحجة ، ثم اتفق الجميع بعدها على رحيل قوات نور الدين والصليبيين معا [٣٩].

عاد المسلمون والصليبيون إلى قواعدهم ليفكر كل من الفريقين فى خطة جديدة للاستيلاء على مصر . فقد أخذ « أمورى » يحاول اقناع النبلاء الصليبيين بضرورة ضم مصر . وفى نفس الوقت أخذ شيركوه يلح على نور الدين محمود أن يأذن له بفتح مصر . وكانت مصر بثروتها وغناها مع ضعفها الشديد وراء تلك الرغبة لدى الفريقين [٤٠] ولم يلبث نور الدين أن أذن لشيركوه بأن يتجهز لفتح مصر وأمده بحملة كبيرة سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٦ م حظيت بمباركة الخلافة العباسية باعتبارها جهادا سنيا ضد الخلافة الفاطمية الشيعية . وفى هذه الحملة التى خرجت من دمشق اصطحب شيركوه ابن أخيه صلاح الدين للمرة الثانية . ومرة أخرى يستنجد « شاور » بالملك الصليبى الذى خرج هذه المرة على رأس جيش مملكة بيت المقدس اللاتينية

بأكمله طمعا فى إحراز النصر على المسلمين وضم مصر إلى المملكة الصليبية ، ووصلت الحملتان النورية والصليبية إلى الأراضى المصرية فى وقت واحد تقريبا ، وبينما أقام شيركوه معسكره فى الجيزة سار « أموري » عن طريق فاقوس وبلبيس حتى وصل إلى مكان بين القاهرة والفسطاط حيث خرج « شاور » ليكون فى استقباله [٤١]. وتم عقد معاهدة بين الصليبيين و « شاور » ، أقرها الخليفة الطفل العاضد ، تقتضى مبلغا كبيرا من المال لأمورى « مائتى ألف دينار » .

ثم هاجم شاور والجيش الصليبى قوات أسد الدين شيركوه الذى تقهقهر إلى القرب من مدينة المنيا الحالية ، ولكن القوات الصليبية لحقت به هناك ولحقت الهزيمة بالجيش الصليبى ، وكان نصيب صلاح الدين فى هذا النصر ملحوظا فى المعركة التى عرفت باسم معركة البابين . بعد ذلك سار شيركوه بجيش صوب الفيوم ومنها إلى الاسكندرية التى كانت جماهيرها تكره «شاور » وسياسته فى التحالف مع الصليبيين بدليل ما قدمه أهلها من مساعدات لقوات شيركوه وصلاح الدين[٤٢] لكن قوات أمورى وبعض الأساطيل المعاونة للصليبيين فرضت حصارا بريا وبحريا على الاسكندرية . وعلى الرغم من رحيل شيركوه من البلاد المصرية فقد اتفق آمورى مع شاور على ترك حامية صليبية صغيرة على أبواب القاهرة . وقد أزعج المصريين أن يروا جنود العدو على أبواب عاصمتهم كما أن هذه المسألة جعلت نور الدين يقرر إعادة جيشه إلى مصر .

فى الوقت نفسه أرسل آمورى يطلب من الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين ويعرض عليه المشاركة فى حملة مزدوجة على مصر ، وكان رسوله إلى القسطنطينية هو المؤرخ الصليبى المشهور وليم الصورى . ولكن الصليبيين ظنوا أن بمقدورهم أن يحرزوا النصر بمفردهم فلم ينتظروا عودة وليم الصورى من سفارته . وسار أمورى بحملته الثالثة حتى وصل بلبيس فى أكتوبر سنة ١١٦٨ وأستولى عليها ثم زحف صوب القاهرة . فى الوقت الذى أحس فيه شاور بحرج موقفه واستياء الناس من سياسته ، وخشى أن يستولى الصليبيون على الفسطاط فأشعل فيها النيران التى ماتزال آثارها باقية حتى اليوم ، وهدد أمورى بأنه سوف يشعل النار فى القاهرة أيضا . ولم يلبث أن أدرك أمورى صعوبة الاستيلاء على مدينة كبيرة معادية مثل القاهرة وفكر أن يدافع عنها فى مقابل ما عرض عليه شاور من مبالغ تقدر بمائة ألف دينار[٤٣] .

ثم جاءت حملة شيركوه الثالثة فى أواخر عام ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م بناء على التوسل العاجل من جانب الخليفة الفاطمى العاضد " الذى أرسل يستغيث بنور الدين وأرسل فى الكتب شعور النساء لأن الفرنج ملكوا بلبيس قتلا وسبيا ونهبا وحصروا القاهرة فى عاشر صفر[٤٤] » وفى هذه المرة يشير بعض المؤرخين إلى أن صلاح الدين قد رضخ مكرها لأوامر نور الدين بمرافقة عمه أسد الدين شيركوه والحضور إلى مصر ، إلا أننا نرى أن مثل تلك الإشارة كان الهدف منها التركيز على قول الله تعالى « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم» لأنه ليس من المعقول بالنسبة لبطل الجهاد صلاح الدين أن يرفض القتال فى سبيل الله فى أى بقعة من العالم الإسلامى ، كما أنه مما ينافى المنطق أن يأمره سيده بذلك ولا يستجيب أو يبدى كراهيته لذلك ، فالجهاد واحد سواء كان فى بلاد الشام أم فى مصر ، بل ربما كان الجهاد فى مصر أحب إلى صلاح الدين لأنه يجاهد عدوين ، الفرنج والدولة الفاطمية الشيعية باعتباره من السنة ، كما يمكن استبعاد هذه الفكرة أيضا لأن عمه أسد الدين شيركوه كان ينوى أن يكون منصبه فى مصر هذه المرة منصبا دائما[٤٥] . ولم يجد شيركوه صعوبة تذكر فى دخول القاهرة وكان هدفه المعلن انقاذ الدولة الفاطمية من براثن الصليبيين ولكن هدفه الحقيقى كان هو الاستيلاء على مصر لإحكام تطويق الوجود الصليبى فى فلسطين ، وكانت مأثرة صلاح الدين الأولى فى هذه المرة أن قبض على الوزير المتآمر شيركوه على مقربة من قبر الإمام الشافعى بالقاهرة ، وبلغ الخليفة الفاطمى العاضد ذلك ، فطلب منه إرسال رأس[٤٦]شاور فقتله وأرسل رأسه إليه إذ كان هو المسئول عن استدعاء الفرنج إلى مصر ، فضلا عن أخبار مراوغاته ومؤامراته كانت قد ملأت التاريخ المصرى الفاطمى لسنوات عديدة .

وبتكليف من الخليفة العاضد تولى أسد الدين شيركوه الوزارة . وأشرف صلاح الدين على تسيير دفة الإدارة نيابة عن عمه وكما سبقت الإشارة بذلك . وكان شيركوه فى موقف حافل بالتناقض فهو قائد جيش سنى يدين بالولاء للخلافة العباسية فى بغداد ، وهو أيضا وفى الوقت نفسه وزير فى دولة شيعية هى الخلافة الفاطمية فى القاهرة . ولكن يبدو أنه تصرف على أساس التطور التلقائى للأحداث ، فقد كان مسلكه متزنا نحو الخليفة العاضد الذى استوزره ولم يقم بتغييرات كبيرة باستثناء توزيع إقطاعات أسرة شاور على رجال الجيش النورى .

وعندما توفى أسد الدين شيركوه فجأة فى مارس ١١٦٩ كانت قد مضت عليه تسعة أسابيع فى منصب الوزارة [٤٧] . وكان طبيعيا أن يخلفه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبى لاسيما وأنه دل على مهارة حربية ملحوظة فى معظم الحملات الثلاث التى صحب فيها عمه أسد الدين شيركوه على مصر ، كما أنه تولى القيادة الفعلية نيابة عن عمه أكثر من مرة[٤٨] . وعلى الرغم من أن نفرا من كبار القادة المسلمين فى جيش عمه قد طمعوا فى تولى الوزارة وعلى رأسهم خال صلاح الدين شهاب الدين محمود الحارمى ، فان الفقيه عيسى الهكارى استطاع أن يستميلهم إلى جانب صلاح الدين ومع هذا فقد عاد بعضهم إلى بلاد الشام لخدمة نور الدين بسبب اختيار صلاح الدين وزيرا [٤٩] . إلا أن الأحداث أثبتت أنه هو بطل تلك الحقبة الحرجة فى تاريخ المنطقة العربية الإسلامية . لقد كانت وزارة صلاح الدين فى خدمة الخليفة العاضد بمثابة الفترة الانتقالية لتألق نجمه ، ولكن أحداثا كثيرة وجسيمة مرت قبل أن يثبت صلاح الدين الأيوبى جدارته بأن برهن وهو يحارب الصليبيين تحت راية عمه أسد الدين شيركوه أن السبيل لدحر العدو الخارجي يبدأ بالقضاء على العدو الداخلى المتمثل فى الأنانية السياسية والتفكك والنزاع والمؤمرات والفتن .

لقد واجهت صلاح الدين الأيوبى عدة صعوبات ، ومن ثم كانت مهمته الأولى التصدى للمشكلات التى أثارها مركزه فى مصر الفاطمية . فمع أن صلاح الدين اعتلى كرسى الوزارة الفاطمية فالراجح أن الفاطميين اختاروه لهذا المنصب بسبب حداثة سنه وما ظنوه من قصور خبرته السياسية إذ أن الخليفة الفاطمي العاضد « ظن أنه إذا ولى صلاح الدين وليس له عسكر ولا رجال كان فى ولايته بحكمه ولا يجسر على المخالفة » [٥٠] وإن كان العماد الكاتب يذكر أن الأمراء النورية عقب وفاة أسد الدين شيركوه اجتمعت كلمتهم على أن يحل صلاح الدين محل عمه ، " وألزموا صاحب القصر بتوليته .. "[٥١] . وإذا كان اختيار صلاح الدين كوزير سنى يعد شذوذا واضحا لدى خليفة فاطمى شيعى فان هذا الأمر لم يكن جديدا ، فقد كان هناك وزراء سنيون على فترات متقطعة فى مصر طوال القرن السابق والقرن السادس الهجرى ، من ذلك ما يذكره ابن القلانسى من أن الوزير الأفضل بن أمير الجيوش (ت سنة ٥١٥ هـ) كان حسن الاعتقاد فى مذهب السنة ، وكذلك ابنه أبى على أحمد بن الأفضل أمير الجيوش (ت ٥٢٤ هـ) ، بل إنه يشير إلى وجود كثير من السنة ومشايعيهم

حتى من أبناء الخلفاء أنفسهم (٥٢) . إلا أن حركة الجهاد التى أفرزت دولة نور الدين محمود كانت وليدا شرعيا لحركة إحياء المذهب السنى تحت راية الخلافة العباسية التى كانت رمزا للمذهب السنى ، وكان هذا يعنى بالضرورة أن أية وحدة فعالة تضم مصر تستوجب تحويلها إلى المذهب السنى من جديد ، أى القضاء على الخلافة الفاطمية . ولكن الضرورة كانت تقضى التمهيد لإحداث هذا التغيير ، والاستعداد لمواجهة المستفيدين من الخلافة الفاطمية أو أنصارها .

وكان الخطر الرئيسى الذى واجه سلطة صلاح الدين هو الجيش الفاطمى المؤلف من عدد كبير من الفرسان البيض وحوالى ثلاثين ألفا من المشاة السود أويزيد ، حيث يذكر ابن واصل أن عدد السودان فى الجيش الفاطمى كان يربو على المائة ألف ، وهو عدد قد يبدو لنا كبيرا جدا (٥٣) . أما الفرسان البيض فقد كان معظمهم من الأرمن الذين خدموا فى الجيش الفاطمى منذ أيام الوزير بدر الجمالى فى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى ، وكثر عددهم وزادت شوكتهم منذ ذلك الحين حيث وصفهم ابن واصل بأنهم كان " لهم شوكة وشكه " (٥٤). فبدأ صلاح الدين على الفور فى بناء جيش خاص به على حساب الجيش الفاطمى ، وذلك بأن أخرج طوائف السودان والأرمن من القاهرة (٥٥). وعندما اندلعت حركة التمرد التى أشعلها الجنود السود بقيادة مؤتمن الخلافة جوهر ، كان لدى صلاح الدين من القوات النظامية ما يكفى للقضاء على معظم أولئك الجنود وطرد فلولهم إلى الصعيد (٥٦) فقد دبر مؤتمن الخلافة جوهر مؤامرة ذات شقين ؛ أن يثور جنوده فى الداخل وأن يرسل هو فى طلب القوات الصليبية بقيادة " أمورى " من الخارج . وتم القبض على قائد الجند السود وقتله ، ثم دار القتال فى أنحاء القاهرة وانتهى بطرد الجنود السود المتمردين وتخريب معسكراتهم ومساكنهم . أما الفرسان البيض فى الجيش الفاطمى فلم يتحركوا للمشاركة فى هذا الصراع ، وقد صاروا فيما بعد جزءا هاما من جيش صلاح الدين (٥٧) وبعد هذا الحادث بدأ صلاح الدين يتخذ حيطته فعين "بهاء الدين قراقوش " مشرفا على شئون قصر الخلافة " زمام القصر " وهى الوظيفة التى كان يشغلها مؤتمن الخلافة جوهر قبل مصرعه (٥٨). وكان بهاء الدين قراقوش حازما فوضع القصر سكانه تحت رقابته الصارمة .

وما أن فرغ صلاح الدين من هذه المؤامرة الداخلية حتى كان عليه أن يواجه هجوما صليبيا

جديدا على مصر ، ذلك أن الفرنج فى بلاد الشام شعروا بجو من القلق والرعب بعد أن أحاطت قوات نور الدين محمود بمملكة بيت المقدس الصليبية من الشمال الشرقى والجنوب الغربى ، هذا الوضع قد عبر عنه بعض المؤرخين المعاصرين ، فابن الأثير ذكر إن افرنج الساحل لما ملك أسد الدين شيركوه مصر قد خافوا وأيقنوا بالهلاك ، وأنهم أصبحوا خائفين على بيت المقدس ، كذلك قال ابن واصل أنه عندما ملك صلاح الدين الديار المصرية أيقنوا بالهلاك ، يضاف إلى هذا أن سيطرة نور الدين محمود وقائده صلاح الدين الأيوبى على الموانى البحرية فى شمال مصر مثل الاسكندرية ودمياط وغيرها كان من شأنها أن تهدد سيادة الصليبيين البحرية ، وتجعل السيادة للمسلمين فى الجزء الشرقى من حوض البحر المتوسط (٥٩). وأمام ذلك الشعور بالفزع والقلق الذى أخذ يسيطر على الصليبيين فى بلاد الشام قام أمورى بمحاولته والتى تعد الرابعة للاستيلاء على مصر ، وتعد هذه المحاولة نقطة تحول هامة فى تاريخ صلاح الدين نفسه ، وفى تاريخ تأسيس الدولة الأيوبية .

فمنذ عودة " أمورى " الفاشلة من حملته الثالثة ، أدرك مدى خطورة انتصار المسلمين ونجاح شيركوه فى ضم مصر إلى الجبهة النورية . وبدأ الصليبيون يلقون اللوم على بعضهم بعضا لانسحابهم وقبولهم المال بدلا من الحرب فى سبيل الفوز بمصر . وأجبر زعيم الاسبتارية على ترك منصبه والعودة إلى وطنه فى غرب أوربا (٦٠) أما الملك " أمورى " فانه أخذ يدعو الغرب لتجريد حملة صليبية جديدة ضد مصر ، وتم إرسال سفارة يقودها بطريرك بيت المقدس وكبير أساقفة قيسارية فى سنة ١١٦٩ ، ومعها عدة خطابات موجهة إلى الامبراطور فردريك الأول ، وإلى لويس السابع ملك فرنسا ، وهنرى الثانى ملك انجلترا ومارجريت الملكة الوصية على عرش صقلية ، وإلى كونتات الفلاندرز وبلوا وتروى لانقاذ إخوانهم الصليبيين فى بلاد الشام من ذلك الخطر الذى أصبح يتهددهم ، ولكن عاصفة عاتية أجبرت السفينة التى تحمل أعضاء السفارة على العودة إلى عكا بعد يومين فى البحر ولم يكن أحد من ركابها ليغامر مرة أخرى خوفا من الهلاك ، ثم أرسلت سفارة ثانية يرأسها فردريك كبير أساقفة صور وبصحبته نائبه يوحنا أسقف بانياس وجيبرت مقدم الاسبتارية ووصلت روما سنة ١١٦٩ م وأعطى البابا اسكندر الثالث خطابات توصية للسفارة (٦١) ولم تخف تلك الاستغاثة على المؤرخين المسلمين المعاصرين ، فقال عنها ابن الأثير أن الفرنج فى بلاد الشام " كاتبوا الفرنج الذين بالأندلس

وصقلية وغيرها يستحشونهم ويعرفونهم ما تجدد من ملك مصر وأنهم خائفون على البيت المقدس " كما قال ابن واصل أنهم " كاتبوا فرنج صقلية وغيرهم واستمدوهم واستنصروهم لدين النصرانية "(٦٢) ولكن هذه السفارة خابت في مسعاها ، في باريس ولندن لقيت السفارة اعتذارا من الملكين بكثرة المشاغل والمشكلات الداخلية ، كما أن النزاع بين البابا والامبراطور لألماني حال دون نجاح مسعى أولئك السفراء ، وبعد عامين من التوسل اليائس عادت السفارة الصليبية إلى فلسطين خاوية الوفاض (٦٣).

ولم يبق أمام الصليبيين بالشام سوى طرق باب القسطنطينية طالبين مساعدتها (٦٤) وكان أن لبى الامبراطور مانويل كومنين امبراطور الدولة البيزنطية النداء ، فقد كان هذا الامبراطور مدركا لحقائق موازين القوى في الشرق وأنها صارت في صالح المسلمين بصورة خطيرة ، وقدم لأموري عرضا بمشاركة أسطول بيزنطية في حملة يشنها عموري ضد مصر(٦٥) وقبل الملك الصليبي عرض الامبراطور البيزنطي شاكرا . فقد كان الصليبيون مايزالون يأملون في الاستيلاء على مصر ، إذ أغراهم إنشغال نور الدين في الشمال (٦٦) كما أن رسالة مؤتمن الخلافة جوهر إلى عموري طلب المساعدة أراد أن يضمن وقوف أهم العناصر الحربية وهم الاسبتارية إلى جانبه فأصدر مرسوماً في أكتوبر ١١٦٨ م يقضي بمنحهم جزءا هاما من ايراد مصر ، ونصيبا كبيرا من دخل أهم المدن المصرية مثل الفسطاط وتنيس ودمياط والمحلة والاسكندرية وقوص وأطفيح وأسوان والفيوم (٦٧). بيد أن أحد أعوان صلاح الدين شك في النعل الذي يلبسه الجاسوس الذي أرسله قائد الجنود السود ، ووجد فيه الرسالة ، ولكن الصليبيين عزموا على الهجوم قبل أن يؤمن صلاح الدين سلطته في مصر (٦٨).

واستحث أماريك الامبراطور البيزنطي ، وفي ١٥ يوليو ١١٦٩ خرج أسطول بيزنطي ضخم من المياه البيزنطية متوجها إلى قبرص في طريقه إلى مصر . ولكن قوات أماريك نفسه لم تكن على نفس درجة الاستعداد فقد هلك كثير من رجاله في حملة العام السابق . كما كانت هناك بعض الخلافات داخل المعسكر الصليبي ، فالداوية كانوا مايزالون يرفضون الاشتراك في الحملة ، كما أن كثيرا من البارونات كانوا قد فقدوا كثيرا من حماسهم بسبب تجربتهم السابقة غير المشجعة (٦٩) وكان الامبراطور البيزنطي يظن أن الحملة ستكون قصيرة ، ودفعه التفاؤل إلى الظن بأنه لن يحتاج إلى أكثر من شهور ثلاثة ، فلم يشحن السفن بالمؤن

إلا لما يكفى ثلاثة أشهر ، كما لم يكن بوسع جزيرة قبرص أن تسهم فى إمداد الحملة بالمؤن كما لم يتيسر الحصول على المؤن الزائدة عن تلك المدة من عكا (٧٠) وقد أوشكت هذه الشهور الثلاثة على الانتهاء .

فى الوقت نفسه تلقى صلاح الدين تحذيرا بقرب قدوم هذه الحملة المزدوجة إلى مصر على طريق الفرما بلبيس كما هى العادة ، كما علم بمفاوضات سرية بين أماريك " أمورى " ورجال القصر الفاطمى ، لترتيب انضمام الحرس الخليفى من النوبيين والأرمن إلى الجنود الصليبيين عند أول فرصة . ذلك لأن صلاح الدين حسبما يروى العماد الكاتب كان قد شرع فى حرمانهم من الاقطاعات واعطائها لمن معه من العساكر ، فقرروا مكاتبة الفرنج ، والقبض على من يتبقى من الجند الأسدية والصلاحية بالقاهرة عند خروج صلاح الدين لملاقاة الفرنج ، إلا أن هذه المؤامرة تم كشفها عن طريق بعض أعوان صلاح الدين فأمر بقتل مؤتمن الخلافة كما سبقت الإشارة ، وعزل كل موظفى القصر المعروفين بالولاء له ، وأحل محلهم صنائعه . وعندئذ ثار الجند السودان وكانوا أكثر من خمسين ألفا ، ولكن تغلبت عليهم قوات صلاح الدين ، وأخرجوهم من القاهرة (٧١) . واعترت صلاح الدين بعض مظاهر الحيرة والارتباك ، فلو أنه خرج إلى دمياط ، حيث الأسطول البيزنطى فقد ينجح رجال القصر الفاطمى فى الإحاطة به ويستعيدوا سلطتهم ، ولو بقى بالقاهرة فربما استطاع الصليبيون والبيزنطيون أخذ دمياط ، فأرسل إلى نور الدين يطلب مساعدته وينسق معه العمليات العسكرية (٧٢). ولقد كان الطريق الذى اتخذته الحملة المزدوجة مفاجأة لصلاح الدين ، ولكن القوات التى أرسلها نور الدين محمود من الشام، حيث سير " نور الدين العساكر إليه أرسالا يتلو بعضها بعضاً " فضلا عن أن الهجمات التى شنها نور الدين على الصليبيين فى بلاد الشام جعلت قوات صلاح الدين تصمد فى مواجهة الهجوم المزدوج (٧٣) وكان صلاح الدين قد أودع دمياط من الرجال وأبطال الفرسان والميرة وآلات القتال ما أمن معه عليها ، ووعد المقيمين فيها بامدادهم بالعساكر والآلات وإزعاج العدو عنهم ، وبالغ فى العطايا والهبات (٧٤).

لقد فرض الصليبيون والبيزنطيون الحصار على دمياط على مدى خمسين يوما وبهت أمورى بضخامة تحصينات المدينة ، وأراد أن يبنى بعض أبراج الحصار المتحركة . وفى كل يوم كان صلاح الدين يبعث بقوات جديدة إلى المدينة المحاصرة ، كما قام بشن الغارات على القوات

المعـادية من خارج المدينة ، بينما عـساكره تقاتلهم من داخلها ، وفى كل يوم كانت القوات البيزنطية تعانى من نفاد المؤن على حين رفض الصليبيون مساعدتهم للتغلب على هذا النقص، وأمام بسالة المدينة المحاصرة جاء شهر ديسمبر ليكشف بوضوح فشل الحملة المزدوجة(٧٥) . وأخيرا وجد الصليبيون أن انتظارهم طال أمام دمياط دون جدوى ، فى الوقت الذى تعرضت فيه ممتلكاتهم بالشام لهجوم نور الدين ولذلك قرروا رفع الحصار عن دمياط (٧٦) بسبب وصول غارات نور الدين إلى مالم تكن تبلغه من قبل لخلو البلاد من ممانع حسب قول أبو شامة(٧٧) وأحرق أمورى معداته وعاد خائبا إلى بيت المقدس فى آخر ديسمبر سنة ١١٦٩/ ربيع الأول سنة ٥٦٥ هـ .

ولقد شبه ابن الأثير الصليبيين بالنعامة التى خرجت تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين(٧٨) . أما السفن البيزنطية فقد انسحبت هى الأخرى ولم يستطع بحارتها السيطرة عليها بسبب ما كانوا يعانون من جوع وإرهاق ، فغرق كثير منها ، إلى جانب مقاومة أهالى المدينة الباسلة لهم وما سببوه لهم من أضرار جسيمة .

ولعل أهم نتائج هذه الحملة الفاشلة تمثلت فى تثبيت سلطان صلاح الدين فى مصر ، وفى ذلك يقول ابن شداد " واستقرت قواعد السلطان " (٧٩) كما أنها أقنعت المصريين أن هذا القائد الشاب هو البطل الذى يتطلعون إليه بدلا من أولئك الخلفاء الضعاف والوزراء المتآمرين الذين عانت منهم طويلا فى أواخر العصر الفاطمى . لقد اقتنع المصريون أن هذا القائد الشاب خير من يصلح لأن يأخذ على عاتقه قيادة البلاد عبر مستنقع الفشل والتدهور الذى غرقت فيه. ومن ناحية أخرى اطمأن صلاح الدين إلى متانة مركزة ، سواء عند سيده نور الدين محمود أو عند الخليفة الفاطمى الذى كان يمده بالأموال والمعدات وغيرها (٨٠). وفى سنة ١١٧٠ م أرسل له نور الدين محمود والده نجم الدين أيوب وعائلته ، فوزع عليهم الوظائف الرئيسية بحيث صار هو صاحب السلطة التامة على مصر (٨١). وبدأ صلاح الدين الأيوبى دوره التاريخى بالهجوم على بعض المناطق الصليبية والاستيلاء عليها بشكل أكد من جديد جدارته بمكانة بطل الأمة الإسلامية من ذلك أن هاجم الفرنج قرب عسقلان سنة ٥٦٦ هـ ، وفتح أيلة فى ربيع الآخر من نفس السنة وهى على ساحل البحر (٨٢).

فى هذه الأثناء كان لواء نور الدين محمود قد صار يرفرف فى عواصم خمس هامة داخل

المنطقة العربية " دمشق والرها وحلب ثم القاهرة فالموصل التى واتت له بعد موت أخيه قطب الدين مودود سنة ١١٧١ م . وكان نور الدين يلح على صلاح الدين لاتخاذ الخطوة الحاسمة باعلان الخلافة العباسية فى القاهرة بدلا من الخلافة الفاطمية التى كانت فى النزع الأخير . وفى يونيو ١١٧١ م أمره رسميا باعلان نهاية الخلافة الفاطمية وعودة مصر إلى حظيرة الخلافة العباسية ، وتم ذلك دون ضجة ، ففى أول جمعة حسب رواية بعض المؤرخين أو ثانى جمعة حسب قول البعض الآخر من شهر المحرم سنة ٥٦٧ هـ / ١٠ سبتمبر ١٧٧١ م حل اسم الخليفة العباسى محل اسم الخليفة الفاطمى فى مسجد عمرو بن العاص ، وكان الخليفة العاضد طريح الفراش ، ودون أن يحدث ما يعكر الجو على حد قول بعض المؤرخين " فلم ينتطح فيه عنزان"(٨٣) ومات الخليفة الفاطمى بعد أسبوع دون أن يعلم أن دولة آبائه قد دالت هى الأخرى وانتقلت إلى ذمة التاريخ ، واستقامت الأمور لصلاح الدين (٨٤). وبعد وفاة العاضد بزمن قصير وضع أبناء البيت الفاطمى فى نوع من الأسر المشرف وتم الفصل بين الجنسين حتى تنقرض سلالتهم بمرور الزمن(٨٥) واقتسمت كنوز الفاطميين وثرواتهم الطائلة بين قواد صلاح الأيوبى ونور الدين محمود . وهكذا اختفت من الوجود الدولة الفاطمية التى لعبت دورا هاما فى تاريخ المنطقة العربية فى فترة تزيد على المائتين وسبعين عاما تقريبا(٨٦) .

ومن ناحية أخرى كان انفراد صلاح الدين بالسلطة فى مصر مقدمة لدوره الكبير فى تاريخ الصراع ضد الصليبيين . ذلك أن مصر بمواردها الهائلة والتفاف أهلها حوله قد جعلت قامته السياسية تطول ، وبدأت ملامح صورته كبطل للأمة العربية الإسلامية تتشكل وتتبلور . ثم تطورت الظروف السياسية بالشكل الذى ساعد على تألق شخصية البطل الإسلامى الجديد . فقد خلت الساحة من سيده نور الدين وعدوه أمورى ، وغدت الساحة خالية تماما لظهور زعامة صلاح الدين ، وتألق شخصيته ومواهبه القيادية .

فبعد وفاة الخليفة العاضد الفاطمى وانفراد صلاح الدين بحكم مصر بدأت العلاقات تتوتر بين نور الدين وصلاح الدين بعد أن ظلت طيبة طوال ذلك الحين . بيد أن هذا التوتر لم يصل أبدا إلى عداء سافر بينهما . فقد بدأت الوحشة بينهما عندما تأخر عن مساعدة نور الدين خلال حملتة على حصن الشوبك سنة ٥٦٨ هـ / ١١٧١ م حيث كان صلاح الدين قد واعد نور الدين بالاجتماع على حصار ذلك الحصن ، فلما قرب نور الدين من الكرك كان صلاح الدين

قد عاد راجعا إلى مصر واعتذر لنور الدين بمرض والده - والذى توفى فعلا قبل عودة صلاح الدين إلى مصر - وكذلك من خوفه من أعداء مصر (٨٧).

ويؤكد ابن شداد وهو من أشد المقربين لصلاح الدين هذه الحقيقة بقوله : " ولما علم الافرنج .. ما تم للسلطان من استقامة الأمر فى الديار المصرية علموا أنه يملك بلادهم ويخرب ديارهم، ويقلع آثارهم ، لما حدث له من القوة والملك ، فاجتمع الافرنج والروم جميعا ، وحدثوا أنفسهم بقصد الديار المصرية ، والاستيلاء عليها ، وملكها .. " (٨٨).

كما أن الهدية التى أرسلها صلاح الدين لنور الدين من كنوز الفاطميين لم تكن كافية . ولكن يبدو أن السبب فى ذلك التوتر كان راجعا إلى اختلاف الرؤية السياسية لدى كل من الرجلين . لقد كان كل منهما يؤمن بضرورة الوحدة السياسية للقوى الاسلامية فى مواجهة الصليبيين ولكن إدراك كل منهما لحقائق الصراع كان يختلف عن إدراك الآخر . كان نور الدين يرى أن بلاد الشام هى ميدان الصراع الرئيسى ضد الصليبيين وأن مصر يمكن أن تمول القوى الإسلامية بمواردها الاقتصادية وأن يكون رصيدها البشرى احتياطيا للقوى الإسلامية فى الشام والعراق (٨٩) . لكن صلاح الدين كان يرى أن مصر لا يمكن أن تكون على هامش الصراع وإنما هى مفتاح النصر فيه ، لقد أدرك من خلال صراعه ضد الصليبيين والبيزنطيين أن مصر يجب أن تقود الصراع لا أن تكون على هامشه لأن العدو يركز جهوده على مصر لضمها أو تحييدها ، وكانت هذه الرؤية السياسية الثاقبة هى أهم ما يميز صلاح الدين الأيوبى عن نور الدين محمود ، ولذا كان صلاح الدين يرى أن من واجبه الأول أن يبنى جيشا قويا للدفاع عن مصر فى كل الظروف ، وخير ما يؤكد ذلك قول أبو شامة : " ولو علم نور الدين ماذا ادخر الله تعالى للإسلام من الفتوح الجليلة على يد صلاح الدين من بعده لقرت عينه فانه بنى على ما أسسه نور الدين من جهاد المشركين وقام بذلك على أكمل الوجوه وأتمها " (٩٠).

ومن ناحية أخرى كان أمورى ملك بيت المقدس يحاول النيل من زعامة صلاح الدين الصاعدة لذلك إجتذب إليه طائفة الاسماعيلية « الحشاشين » الناقمة على نور الدين محمود وصلاح الدين لقضائهما على الدولة الفاطمية ، كما اتصل بشراذم الفاطميين بالقاهرة وزعيمهم الشاعر عمارة اليمنى(٩١) على أساس أن يعلنوا الثورة فى وقت يكون فيه أمورى وحلفاؤه قد وصلوا إلى الأرض المصرية . والأخطر من كل هذا أن المتآمرين استطاعوا أن

يدخلوا « عدة من أنصار الدولة الناصرية - نسبة إلى صلاح الدين - فى جملتهم »[٩٢] .
وتفصيل هذه المؤامرة أنه لم يكن هناك قبول واستسلام لسقوط الخلافة الفاطمية ، لأن الوضع الجديد أغضب المخلصين من الشيعة ، إلى جانب أن أتباع النظام القديم والمستفيدين منه بالإضافة إلى بعض الأمراء النورية قد عز عليهم أن يسيطر صلاح الدين على مقاليد البلاد . وتزعم هذه المؤامرة الشاعر عمارة اليمنى الذى كان شديد التعصب للفاطميين على الرغم من أنه لم يكن على مذهبهم أى كان سنيا شافعيا ، لكن عندما وفد عليهم من اليمن أحسنوا إليه فصار صنيعة ذلك الإحسان على حسب قول المؤرخ ابن واصل [٩٣] بالإضافة إلى عدد كبير من أتباع الدولة الفاطمية وغيرهم . وترجع خطورة هذه الحركة إلى أن المتآمرين عمدوا إلى الاستعانة بعناصر خارجية لتنفيذ خطتهم ، فقد راسلوا شيخ الجبل مقدم طائفة الاسماعيلية بالشام يقولون له « إن الدعوة واحدة والكلمة جامعة » ويطلبون منه غزو مصر ، كذلك اتصلوا بوليم الثانى ملك صقلية حتى يهاجم أسطوله الاسكندرية فى الوقت الذى يهاجم فيه أمورى مصر من ناحية الشرق ، على أن يشعلوا هم الثورة فى القاهرة والفسطاط ، وبذلك يقع صلاح الدين بين نارين، ويسهل عليهم التخلص منه ؛ كما اختاروا فرصة غياب توران شاه فى اليمن موعدا لتنفيذ مؤامرتهم ، حتى لا يحل محل أخيه صلاح الدين فى حالة مقتله . وعينوا أعضاء الجهاز الحكومى الجديد كما « عينوا الخليفة والوزير وتقاسموا »[٩٤] بحيث غدا كل شىء معدا للتنفيذ ولم يبق إلا رحيل الفرنج على حد قول ابن الأثير [٩٥].

ولا ضير أن نكرر ما سبق أن أشرنا إليه من أن الأمة العربية لم تكن لتقبل بغير القائد الذى يقودها نحو تحقيق أهدافها بديلا ، لذا فقد سخر الله نفرا من أبناء مصر الأبرار وأبناء الأمة العربية ألا وهو الفقيه الواعظ زين الدين على بن نجا الذى أطلع صلاح الدين على جميع حلقات المؤامرة ، فطلب منه أن يجارى هؤلاء المتآمرين [٩٦] فى نفس الوقت وصل مبعوث الملك أمورى إلى القاهرة والذى كان فى ظاهر الأمر قد أتى ليحمل تحيات أمورى إلى صلاح الدين ، ولكن فى حقيقة الأمر كان قد أتى لرسم الترتيبات النهائية مع المتآمرين ، وراقبه صلاح الدين عن طريق بعض أقباط مصر مراقبة ذكية ، ثم أمر صلاح الدين بالقبض على المتآمين فورا فى أول شهر رمضان سنة ٥٦٩ هـ أبريل عام ١١٧٤ م ، فى حين اختفى آخر الأمراء الفاطميين وهو ابن الخليفة العاضد [٩٧].

أما أمورى فلم يكد يعلم باكتشاف سر المؤامرة فى القاهرة وفشل الخطة الموضوعة لغزو مصر ، حتى توفى فى بيت المقدس وسط جو من خيبة الأمل فى صيف سنة ١١٧٤ م [٩٨]. ولم يلبث أن وصل أسطول صقلية الذى أرسله وليم النورمانى إلى الأسكندرية فى أواخر يوليو ليجد كل شىء قد انتهى ، وأن فشل المؤامرة من جهة وموت أمورى الأول من جهة أخرى جعلت غزو مصر غير ذى موضوع . ومع ذلك فان الأسطول النورمانى الذى وصل أمام الاسكندرية فى ٢٨ يوليو ١١٧٤م نجح فى إنزال قواته على الشاطىء ، كما دمر بعض السفن التجارية الراسية فى ميناء الأسكندرية . وحاول النورمان اقتحام الأسكندرية وشددوا هجماتهم عليها ، ولكنهم واجهوا مقاومة عنيدة من المسلمين ، فى الوقت الذى قدم فيه صلاح الدين مسرعا ومعه جيشه ، فهاجم النورمان وأغرق بعض سفنهم وأحرق خيامهم ، وأنزل بهم الهزيمة ، فاضطروا إلى الإقلاع بسفنهم « وعادوا خائبين خاسرين » [٩٩].

ولم يلبث صلاح الدين أن وجه جهوده بسرعة لإخماد ثورة أخرى قامت فى أسوان على حدود النوبة ، أشعلها أحد قادة الفاطميين واسمه كنز الدولة (الكنز) الذى جمع حوله فى أسوان بعض عناصر من الشيعة والجند السودان وغيرهم ، وأوهم « أنه يملك البلاد ويعيد الدولة العبيدية " الفاطمية " المصرية » وزحف بهم على مدينة قوص وأعمالها إلا أن الحملة التى أرسلها صلاح الدين الأيوبى بقيادة أخيه العادل سيف الدين استطاعت فى سبتمبر ١١٧٤م أن تقضى على أولئك المتمردين قضاء مبرما « فاستأصل شأفتهم وأخمد ثائرتهم وذلك فى السابع من صفر سنة سبعين ، واستقرت قواعد الملك ، واستوت أموره ولله الحمد والمنة » [١٠٠].

كما كانت وفاة نور الدين محمود فى ١١ شوال ٥٦٩ هـ / منتصف مايو ١١٧٤م ثم موت أمورى ملك بيت المقدس فى السنة نفسها ، تطورا إيجابيا فى الموقف السياسى لصالح الناصر صلاح الدين ، فقد ازدادت قامته السياسية طولا ، وعظمت شخصيته الحربية هيبة لدى جماهير الناس فى مصر وفلسطين وبلاد الشام . وازداد تعلق الناس بزعامته التى رأوا فيها وسيلة تقودهم نحو النصر وتحقيق الكرامة العربية الإسلامية ، خاصة وأنه أعقب وفاة نور الدين محمود تشتت بلاد الشام لاختلاف آراء الأمراء النورية وإيثارهم مصالحهم الخاصة التى تكفل لهم انقسام هذه الدولة ، مع طمع الفرنج فيها [١٠١]. وكانت الخطوة الأخيرة فى سبيل

تأكيد هذه الزعامة تتطلب منه أن يعالج في حزم ورزانة ما نجم عن وفاة نور الدين محمود من منازعات وصراعات حول تركته . فقد دخل كبار القادة في جيش نور الدين محمود في تنافس غير محمود للوصاية على ابنه الصغير الملك الصالح اسماعيل ، الذى كان في الحادية عشرة من عمره آنذاك . وقد تطلعت إلى هذه الوصاية العواصم الكبرى في المنطقة العربية الإسلامية آنذاك : الموصل وحكامها الأتابكة تحت زعامة الملك سيف الدين غازى الثانى والذى سارع بضم البلاد المجاورة له وأعلن نفسه أميرا على الجزيرة ، وتطلع إلى ضم حلب ودمشق ، التى كان بها مقدم الجيش " شمس الدين محمد " الذى اضطر لمهادنة الصليبيين ودفع جزية مالية لهم حتى يتقى هجومهم ، وأرسل يطلب مساعدة صلاح الدين في مصر . وحلب التى كان أكبر القواد فيها " شمس الدين على بن الداية " الذى أسرع يستدعى الملك الصالح بن نور الدين إلى حلب ، ولكن قائدا عسكريا آخر هو « سعد الدين كمشتكين قبض على ابن الداية واستبد هو بأمر الملك الصالح (١٠٢) أما القاهرة فكان فيها صلاح الدين الأيوبى ، وكان هدفه أبعد من مجرد الوصاية على خليفة نور الدين ، واسمى من مجرد الاستئثار بالحكم . فقد كان يريد مواصلة بناء الجبهة العربية الاسلامية في مواجهة الصليبيين وهذا هو ماكفل له النجاح .

ولم يكن بوسع صلاح الدين أن يغض الطرف عن هذا التسابق على الوصاية لكنه تصرف بهدوء وروية . لقد بدأت عرى الوحدة الإسلامية التى شادها نور الدين لمواجهة الصليبيين تتفكك وتنهار ، وأخذ صلاح الدين يسوق إعتراضاته على مايجرى وألمح بانه سوف يتدخل لإعادة الأمور إلى نصابها واتهمه المنافسون بعدم الوفاء لبيت نور الدين الذى رباه ، فكان جوابه حاسماً . وكشف عن توجهه السياسى الذى زاد التفاف المسلمين حوله ، قال صلاح الدين : « لو استمرت ولاية هؤلاء القوم تفرقت الكلمة وطمع الكفار في البلاد » كذلك قال : « إنا لا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم وألف كلمتهم وللبيت الأتابكى أعلاه الله تعالى إلا ما حفظ أصله وفرعه ، ودفع ضره وجلب نفعه ، فالوفاء إنما يكون بعد الوفاة ، والمحبة إنما تكثر آثارها عند تكاثر أطماع العداة ، وبالجملة إنا في واد والظانون بنا ظن السوء في واد » (١٠٣) . هذه الكلمات الحاسمة كشفت عن حقيقة الفكر السياسى لصلاح الدين وعن حقيقة أهدافه السياسية التى جعلت منه زعيما للأمة لأنها كانت هى نفس أهدافها فقد وطد نفسه على إعادة بناء الوحدة العربية الاسلامية التى شادها عماد الدين زنكى وابنه

نور الدين محمود من بعده ، وكانت أولى خطواته فى هذا السبيل ضم دمشق بعد أن استغاث به قائد الحامية الاسلامية بها " شمس الدين محمد " بسبب أطماع الفرنج فى دمشق وأعمالها مثل بانياس ، وكان قد تم استرضاء الفرنج بدفع مبلغ كبير من المال واطلاق سراح أسراهم فى دمشق فى مقابل تركهم بانياس ، ومع هذا لم تتوقف أطماعهم [١٠٤]. ففى سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤م خرج صلاح الدين إلى دمشق وأعلن منذ اللحظة الأولى « أنه قدم الشام لإصلاح الأمور ، وحفظ الثغور ، وخدمة ابن نور الدين وكفالته ، وتخليصه من قوم يأكلون الدنيا باسمه ، ويبالغون فى ظلمه » بعد أن « اختلفت كلمة أصحاب الملك الصالح ، واختلت تدبيراهم ، وخاف بعضهم من بعض » [١٠٥]. وحين دخل دمشق لم يجد من أهلها أية مقاومة وإنما رحبوا به أو على حسب قول ابن شداد « لم يشق عليه عصا ، ودخلها بالتسليم فى يوم الثلاثاء سلخ ربيع الآخر سنة سبعة وخمسمائة ، وتسلم قلعتها واجتمع الناس إليه وفرحوا به »[١٠٦] والحقيقة أننا نتفق هنا مع المستشرق « ألبرت شامبدور » على أن تهديدات الفرنج لبلاد الشام بوجه عام ، ودمشق بوجه خاص كانت من الأسباب التى دفعت أهالى دمشق إلى الإلحاح من أجل مطالبة أمرائها بدعوة صلاح الدين إلى حكم دمشق [١٠٧]. وكان رد صلاح الدين على تلك الحفاوة التى قوبل بها فى دمشق أن أنفق « فى الناس مالا جزيلا ، وأمر فنودى باطابة النفوس وإزالة المكوس ، وإبطال ما أحدث بعد نور الدين من القبائح والمنكرات والضرائب » [١٠٨].

وعلى الرغم من أن التاريخ يبرر لصلاح الدين هذه الخطوة وغيرها باعتبارها خطوات حتمية لتحقيق الوحدة الاسلامية فى مواجهة الصليبيين ، فان أعداءه الذين أعمتهم مصالحهم الخاصة وأطماعهم الشخصية ظنوه واحدا منهم يسعى لمنافستهم . ولذا لجأ أمراء الجيش فى حلب إلى كافة الوائل للتخلص منه ؛ لجأوا إلى سنان زعيم الحشاشين لاغتيال صلاح الدين وأمدوهم بالأموال التى تغريهم على ذلك ووثب عليه جماعة منهم أثناء نزوله على حلب لكنه نجا من هذه المحاولة [١٠٩]، كما اتفقوا مع ريمون الصنجيل حاكم طرابلس الصليبى يطلبون منه مهاجمة بعض المراكز التى بيد صلاح الدين حتى يضطروه إلى رفع الحصار عن حلب [١١٠]. وكان ريمون الثالث أمير طرابلس يدرك تماما خطورة ضم صلاح الدين لحلب بالإضافة إلى دمشق والقاهرة ، لذلك أسرع إلى نجدة حلب . وروى أبو شامة أن ريمون حاول الالتجاء إلى الوسائل

الدبلوماسية ومفاوضة صلاح الدين حول مسألة حلب ، فأرسل إليه يرغبه فى الصلح ، ويلوح له بأن « الفرنج قد تعاضدوا وصاروا يد واحدة » ، ولكن صلاح الدين رد عليه قائلا « لست ممن يرهب بتأليب الفرنج » بل وأرسل قواته للإغارة على أنطاكية الصليبية « فغنموا غنيمة حسنة وعادوا » (١١١) مما دفع ريمون إلى مهاجمة حمص التى كان صلاح الدين قد ضمها إلى دولته منذ أمد قريب ، فاضطر صلاح الدين إلى ترك حصار حلب أوائل فبراير سنة ١١٧٥ وأسرع لنجدة حمص ، وفى الحال انصرف ريمون الثالث إلى إمارته بعد أن حقق هدف أمراء حلب فى صرف صلاح الدين عنهم ، وقنع بما أطلق له أمراء حلب من أسرى الفرنج وعلى رأسهم « رينو دى شاتيو » أو « أرناط » صاحب الدور الشهير مع صلاح الدين (١١٢). هذا بالإضافة إلى أنهم استغاثوا كذلك بسيف الدين غازى حاكم الموصل .

ثم أعلن صلاح الدين نفسه ملكا على مصر والشام بموافقة الخليفة العباسى فى أواخر سنة ٥٧٠ هـ / مايو ١١٧٥م (١١٣) وبالنسبة لمعظم أمراء عصره وزمانه كان هذا مجرد إجراء شكلى ، لكنه بالنسبة لصلاح الدين كان أكثر من ذلك بكثير ، فاذا كانت الحرب التى نذر نفسه لها ضد الصليبيين ستصبح جهادا حقيقيا ، فالواجب أن يتم إعلانها فى ضوء تعاليم الشريعة . أى أن الحاكم الذى ينوى خدمة الله فى معركة يجب أن يراعى أحكام الله فى معاملته لرعاياه ، والحقيقة أن صلاح الدين قد سار على درب نور الدين فى رفع المظالم والضرائب والمكوس التى تنافى الشريعة الإسلامية . ففى سنوات حكم صلاح الدين الباكرة فى مصر ألغى كافة الضرائب التى تخالف أحكام الدين ، وعندما استولى على دمشق كان أول عمل أتخذه هو إبطال ما أحدث بعد وفاة نور الدين من القبائح والمنكرات والضرائب كما سبقت الإشارة ، وكلما ضم مدينة أو إقليما جديدا كان يسارع إلى رفع الضرائب عن أهله . وكانت أوامره إلى عماله وتابعيه من حكام الأقاليم تنص على ضرورة إلغاء الضرائب الظالمة فاذا ما خالف أحدهم أمره كان يعاقبه دونما إبطاء (١١٤).

لقد رسمت المصادر التاريخية صورة حية للزعيم المسلم الذى زهد فى السلطة ، وعزف عن أن يقتنى لنفسه شيئا فى زمن كان كل قائد أو حاكم يسعى فيه إلى مصالحه الشخصية قبل كل شىء ، قال ابن شداد « سمعته فى معرض حديث جرى يقول : " يمكن أن يكون فى الناس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب " فكأنه أراد بذلك نفسه ، رحمه الله تعالى » (١١٥)

لقد نظر صلاح الدين إلى الثروة والسلطة باعتبارهما وسيلتين لتحقيق الجهاد ، وقد سجل الجميع هذه الصورة لصلاح الدين الأيوبى ، حتى الصليبيين أنفسهم فقد ذكر وليم الصورى المؤرخ الصليبى الشهير أن سجايا صلاح الدين التى تجمع بين الحكمة والشهامة النادرة والشجاعة العسكرية كانت تقلق بال الصليبيين (١١٦).

ولم ينس صلاح الدين للحشاشين محاولتهم لاغتياله فأغار على مناطقهم فى جبل السماق ثم عاد إلى دمشق . وفى سنة ١١٧٦م تعرض لخطر حكام حلب والموصل وحلفائهم الذين جمعوا قواتهم لمهاجمته . فسار بجيشه حتى لقيهم على مسافة قريبة من حلب وهزمهم هزيمة فادحة وأخذ منهم غنائم ضخمة وزعها على جنوده ، ولكن حكمته السياسية وبراعته العسكرية جعلته يطلق سراح الأسرى . وأرسل إلى سيف الدين أتابك الموصل أقفاص الطيور من القمارى والبلابل والهزاز والببغاء التى وجدها فى ملهى معسكر أعدائه وأرسل معها رسالة ساخرة ، حيث استدعى صلاح الدين " مظفر الدين الأقرع – وهو أحد ندماء سيف الدين – فقال له : خذ هذه الأقفاص ، واذهب بها إلى سيف الدين ، وسلم عليه عنا ، وقل له : عد إلى اللعب بهذه الطيور ، فهى أسلم لك عاقبة من الحرب " (١١٧) . لقد كانت هزيمة معسكر الموصل تعبيرا عن الخواء الداخلى فقد وجد صلاح الدين معسكر المهزومين « كالحانة من كثرة الخمور والبرابط والعيدان والجنوك والمغنين والمغنيات ، فأرى ذلك لعسكره واستعاذ من هذه البلية » (١١٨) . وبعد حصار حلب لفترة من الزمان تجددت الاتفاقية بين صلاح الدين وأمراء حلب والموصل وحلفائهم من الأراتقة ، وتعهد الطرفان بمساعدة كل منهما الآخر إذا ما اقتضت الظروف ذلك (١١٩) . وفى تلك الأثناء كانت قد جرت محاولة أخرى من جانب الحشاشين لاغتيال صلاح الدين ، فلما صالح صلاح الدين الحلبيين والمواصلة قصد بلاد الحشاشين (الباطنية) لمعاقبتهم على مافعلوه من الوثوب عليه ، فهاجم مصياف مقرهم الرئيسى يوم الجمعة العاشر من محرم سنة ٥٧٢ هـ ، وحاصرهم بينما قواته كانت تعيث خرابا ونهبا فى المناطق المجاورة . وحين انتهت حملته تلك ضدهم كان خطرهم قد زال بشكل نهائى ، فقد قتل منهم أعداداً كبيرة وهدم كثيرا من قلاعهم وكاد أن يستأصل شأفتهم لولا شفاعة خاله شهاب الدين محمود بن تكسن صاحب حماه الذى استنجد به أفراد هذه الطائفة ، لأنهم جيرانه ، فرحل عنهم صلاح الدين وقد انتقم منهم (١٢٠) .

رجع صلاح الدين إلى مصر « ليتفقد أحوالها ، ويقرر قواعدها » بعد أن تزوج من أرملة نور الدين محمود في دمشق ، ومن المرجح أن يكون هدفه من ذلك هو إظهار أنه وريث نور الدين محمود من ناحية ، وتقوية الروابط بينه وبين بيت نور الدين محمود من ناحية أخرى مما يدعم مركزه ، وإن كانت بعض المصادر تذكر أنه اتخذ هذه الخطوة " حفاظا لحرمتها وصيانتها وعصمتها " (١٢١) وفي مصر قضى صلاح الدين نحو ست سنوات ينظم فيها الشئون الداخلية، وانصب اهتمامه الرئيسي على بناء القلعة وأسوار القاهرة الكبيرة التي كان قد بدأ في بنائها سنة ١١٧١م لتأمينها ضد أي هجوم محتمل من جانب الصليبيين (١٢٢) . كما ركز على بناء أسطول قوي للدفاع عن الشواطيء المصرية ولشن الهجمات على مواني الصليبيين . كذلك وجه صلاح الدين اهتمامه لتحصين ثغري دمياط والأسكندرية ، وذلك أن خبرته العسكرية في مصر جعلته يدرك أهمية هذين الثغرين اللذين كانا مصدر الخطر على مصر دائما ، وقد لمس صلاح الدين هذا الخطر بنفسه عندما هاجم الصليبيون دمياط وهو وزير للخليفة الفاطمي الأخير ، وقد زار كلا من الاسكندرية ودمياط ليشرف بنفسه على عمليات التحصين وترميم القلاع والأبراج (١٢٣) . وقد أولى اهتماما خاصا بالأسطول بعد زيارته للاسكندرية ، وأنشأ ديوانا خاصا أسماه ديوان الأسطول (١٢٤) لأنه كان يدرك تماما أنه بصدد عملية جهاد واسعة ضد الصليبيين في بلاد الشام ، وأن المعركة معهم قد تطول ويطول معها بقاؤه ببلاد الشام ، لذلك كان عليه أن يطمئن على مصير مصر قبل أن يكرس كل وقته وجهده لمعركة الجهاد ضدهم (١٢٥).

ولتأكيد سلطانه السياسي عمد صلاح الدين إلى محاربة المذهب الشيعي في مصر من خلال حركة الاصلاح السني التي كان نور الدين قد بدأها في بلاد الشام ، فقد اهتم صلاح الدين بانشاء المدارس السنية التي كانت بمثابة مراكز الاشعاع التي خرجت منها تلك الحركة ، فقد حول دار المعونة ودار العدل في الفسطاط إلى مدارس للشافعية ، فضلا عن بنائه مدرسة في مكان يعرف بدار الغزل ، وهي المدرسة التي عرفت فيما بعد باسم المدرسة القمحية ، كذلك أحل صلاح الدين القضاة الشافعية محل الشيعة في جميع البلاد (١٢٦) كما أنشأ عدة منشآت مدنية أخرى أهمها البيمارستان « المستشفى » ، وهي كلمة فارسية مركبة تعني مكان المريض ، وعدة مدارس ومنشآت مدنية أخرى في الاسكندرية (١٢٧) .

كانت الفترة التى قضاها صلاح الدين فى مصر تبلغ حوالى الست سنوات (٥٧٢ هـ / ١١٧٦م - ٥٧٧ هـ / ١١٨١م) ، وقد كرسها لترتيب الأحوال الداخلية فى مصر والشام . ومن البديهى أن صلاح الدين جعل من مصر والشام بمواردها الاقتصادية والبشرية الوفيرة ، قاعدة لعملياته العسكرية ومناوراته السياسية التى تطلبها هدفه الكبير وهو تحقيق النصر على الصليبيين ودحرهم . وقد حدث أثناء هذه الفترة أن تعرض لهزيمة قاسية فى الرملة(١٢٨).

فقد كان الصليبيون مايزالون متربصين بمصر وبهذا القائد الذى كانت قوته المتصاعدة مصدر رعب دائم لهم وكان الأسطول البيزنطى مايزال قويا فوعد الامبراطور مانويل كومنين بمساعدة الصليبيين إذا ما قرروا الهجوم على مصر فى أى وقت ، وخلال صيف سنة ١١٧٧م سرت إشاعات قوية عن قدوم حملة صليبية جديدة من الغرب وشاعت أنباء عن أن كلا من لويس السابع ملك فرنسا وهنرى الثانى ملك انجلترا قد أخذ شارة الصليب ، ولكن لم يصل إلى فلسطين سوى أحد نبلاء الغرب ، وهو فيليب كونت الفلاندرز الذى وصل إلى عكا مع عدد كبير من المقاتلين ، وعندما علم الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين بقدومه أرسل سفارة تعرض المال للمساعدة فى الهجوم على مصر . ولكن الكونت القادم من الغرب قال إن هدفه الوحيد من القدوم إلى فلسطين أن يزوج الأميرتين سيبيلا وايزابيلا ابنتى عمه . وكان هذا أكثر مما يمكن للنبلاء الصليبيين أن يتحملوه . وحين ثاروا فى وجهه قرر فليب العودة إلى أوربا ، وارتبك السفراء البيزنطيون وعادوا ليخبروا الامبراطور بأن لا أمل فى شن حملة ضد مصر من جانب الصليبيين ، ورحل الكونت فيليب إلى طرابلس وهناك دفعه ضميره إلى المشاركة فى حملة الكونت ريمون الصنجيل ضد حماه . وعندما فشلت هذه الحملة رحل لمساعدة بوهيموند أمير أنطاكية (١٢٩).

فى هذه الأثناء عبر صلاح الدين الحدود المصرية أول جمادى الأولى سنة ٥٧٣ هـ / ١٨ نوفمبر ١١٧٧م وكان جهاز مخابراته جهازا ممتازا . فقد عرف أن مشروع التحالف البيزنطى / الصليبى قد انهار وأن فيليب الفلاندرى بعيد فى الشمال ، فقرر أن يشن هجوما مضادا ضد الصليبيين فى منطقة الساحل الفلسطينى . وللمرة الوحيدة فى تاريخه أفرط صلاح الدين فى ثقته بنفسه مما جعله يرخى العنان لجنوده ، فبعد أن شنوا الغارات على بلاد العدو فسبوا

وسلبوا وغنموا ، « تفرقوا فى الأعمال ، فلما رأوا أن الفرنج خامدون استرسلوا وانبسطوا وتوسط السلطان البلاد ثم اتجه إلى الرملة راحلا بقصد بعض المعاقل فاعترضه نهر عليه تل الصافية فازدحمت على العبور أثقال العساكر فما شعروا إلا بالفرنج تهاجمهم بينما معظم سرايا الجيش فى الضياع تشن الغارة » ونجا صلاح الدين بنفسه ومن معه بشق الأنفس بعد أن استشهد عدد كبير من المسلمين (١٣٠). بينما يذكر ابن شداد أن ما حدث من هزيمة كان نتيجة للخلل الذى أصاب جيش صلاح الدين ، إذ رأى بعض قواده أن تعبر الميمنة إلى جهة الميسرة والميسرة إلى جهة القلب ليكون وراء ظهورهم تل معروف بأرض الرملة ، فبينما هم مشتغلون بهذه الحركة هجمهم الفرنج فانكسروا كسرة عظيمة ، ولم يكن لهم حصن قريب يأوون إليه ، فاتجهوا صوب مصر ، وتبدد شملهم وأسر جماعة منهم (١٣١) . وعلى أية حال فقد تعلم صلاح الدين درسا لم يَنْسه طوال صراعه ضد الصليبيين (١٣٢) إلا أن هزيمته لم تكن قاضية فبعد أربعة شهور فقط ، شن هجوما جديدا على أحد حصون الصليبيين القوية بالقرب من مدينة بانياس وبيت يعقوب ، وهزم الجيش الصليبى هزيمة نكراء وأسر عددا كبيرا من فرسان الجيش وزعيم الفرسان الداوية ، وقائد الفرسان الاسبتارية . وفى ١٠ يونيو ١١٧ فوجىء صلاح الدين بهجوم صليبى جديد على قواته فى مرجعيون ولكنه استطاع تحويل الهزيمة الأولية إلى نصر ساحق على القوات الصليبية التى فرت لا تلوى على شىء ، وهرب ملك بيت المقدس بلدوين الثانى وريمون الصنجيل كونت طرابلس وعبرا نهر الليطانى حيث اختبآ فى إحدى القلاع هناك . أما من بقى خارج القلعة من الجيش الصليبى فقد وقعوا فى الأسر ونالت رقابهم سيوف المسلمين وكان بين الأسرى عدد كبير من الفرسان ، قال عماد الدين الأصفهانى « العماد الكاتب » أنهم بلغوا أكثر من مائتين وسبعين فضلا عن أصحاب الرتب الدنيا . وفى أغسطس من هذه السنة هدم صلاح الدين حصنا منيعا « مخاضة الأحزان » للصليبيين بعد أسر سبعمائة صليبى كانوا بداخله (١٣٣).

وعلى الرغم من هذه الانتصارات فقد أدرك صلاح الدين أن قوات الشام لاتكفى لتحقيق انتصار كبير على الصليبيين وعلى ذلك أرسل فى طلب قوات جديدة من مصر ، ولكنه كان لايزال يحتاج إلى المزيد من القوات لمواصلة الصراع ضد الصليبيين . لقد تأكد الآن أن حلب والموصل لابد أن تنضما إلى الجبهة الاسلامية حتى يضمن لها النصر فى الصراع المستمر . لقد

كان مدركا أنه لا يستطيع حشد كافة القوات المصرية والشامية لقتال الصليبيين وهو يخشى هجوم أعدائه الانفصاليين فى حلب وفى الموصل ، لأن قواته في هذه الحالة ستكون عرضة لخطر الهجوم على جناحيه أو مؤخرته من الموصل أو حلب (١٣٤). وكانت الظروف التاريخية تحتم على صلاح الدين أن يضم الموصل وحلب إلى دولته وتحويل مواردهما فى خدمة حركة الجهاد ضد الصليبيين .

ولاشك فى أن صلاح الدين قد أدرك أن تحقيق هذه الوحدة لا يمكن أن يتم دون نزاع مسلح ولكنه تردد فى حمل السلاح ضد أولئك الذين سوف يصبحون حلفاء فى المستقبل ، فالإقناع والدبلوماسية يعودان بنتائج أفضل من الغزو (١٣٥) . لقد كان يدرك أن الأمة الاسلامية بأسرها قد اختارت الوقوف معه لأنه يسعى في سبيل تحقيق أمانى هذه الأمة ، وعلى الرغم من تمسك الزنكيين بمصالحهم الإقليمية الضيقة ، فان قطاعا كبيرا من جماهير حلب والموصل كانوا مع صلاح الدين بعواطفهم . وليس أدل على هذا مما تشير إليه كثير من المصادر المعاصرة من أن أمراء حلب بوجه خاص كانوا يخشون دائما أن يسلم أهالى حلب المدينة لصلاح الدين عندما يقترب منها (١٣٦)، وقد حدث قبل وفاة الملك الصالح اسماعيل بفترة وجيزة أنه عندما أحس هو والأمراء النورية بهذا الخطر أن خطب فى أهل حلب خطبة مؤثرة ، وإن كانت هناك بعض العناصر قد وقفت بجانبه وأعلنت استعدادها لمحاربة صلاح الدين ، فقد كان هؤلاء قلة من الشيعة ، الذين وجدوا فى موقفهم هذا خير فرصة لهم لإملاء الشروط على الملك الصالح اسماعيل ، خاصة وأن أباه نور الدين محمود كان قد وجه إليهم ضربة ألفت وأبطلت كثيرا من شعائرهم الدينية لذا اشترطوا على الملك الصالح أن يعيد إليهم شرقية الجامع يصلون فيها على قاعدتهم القديمة وأن يجهروا « بحي على خير العمل » فى الآذان والتذكير فى الأسواق ، واشترطوا إعادة كثير من الأمور التى أبطلها أبوه نور الدين محمود فأجابهم إلى ذلك(١٣٧)، كذلك من المعروف أن عماد الدين زنكى صاحب سنجار وقف ضد أخيه سيف الدين غازى أتابك الموصل وأمراء حلب المتآمرين ضد صلاح الدين ، ورفض هو وأهالى سنجار الانضمام لهذا الحلف لمحاربة صلاح الدين (١٣٨). كل هذا لأن اتصالات الزنكيين السرية ، ومؤامراتهم مع الصليبيين أعداء الأمة الإسلامية ، كشفت لأبناء الأمة الاسلامية أنهم عاجزون عن تحقيق أمانى الأمة . لقد كان صلاح الدين هو بطل الأمة الاسلامية الذى انتظره المسلمون

كثيرا ، وعندما ظهر فى الساحة لم يكن الناس على استعداد للتفريط فيه . كما كان تاريخ صلاح الدين خلال السنوات التالية من ١١٧٩م إلى سنة ١١٨٥م بمثابة سجل للنجاح المطرد فى سبيل تحقيق هدفه الكبير وهدف الأمة الاسلامية . لقد مر هذا النجاح بخيوط معقدة من المفاوضات والمناورات السياسية مع الزنكيين والخلافة العباسية فضلا عن القتال المتواصل ضد الصليبيين .

ففى ٢٥ رجب سنة ٥٧٧ هـ / ٤ ديسمبر ١١٨١م توفى الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود ، وبذلك خلت الساحة من الوريث الشرعى للمملكة التى كان نور الدين محمود قد بناها فى جبهة إسلامية موحدة بين حلب والموصل ودمشق والقاهرة . وعلى الفور خرج صلاح الدين من مصر فى صيف سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢م وكانت هذه آخر مرة يرى فيها مصر، لأنه قضى بقية عمره فى ميادين القتال ضد الصليبيين على أرض الشام [(١٣٩)] . اتجه صلاح الدين صوب حلب التى أعلن للخليفة العباسى أن حكمها من حقه ، وكان حافزه على هذا التحرك قرب انتهاء أجل الهدنة بينه وبين الصليبيين من ناحية ، والهدنة بينه وبين الأمراء المحليين بالشام والجزيرة من ناحية أخرى .

وعلم وهو فى الطريق أن حكام الموصل قد كاتبوا الفرنج وطلبوا منهم مهاجمة البلاد الاسلامية حتى ينشغل صلاح الدين بهم . فعبر صلاح الدين نهر الفرات وحاصر الموصل بعد أن بعث للخليفة العباسى بخطاب يبرز فيه السبب الذى دعاه للهجوم على حكام الموصل «لجمع كلمة العساكر الاسلامية على عدو الله » ، ولأنهم دفعوا الأموال للفرنج لمهاجمته[(١٤٠)]، وأصر صلاح الدين على أخذ الموصل التى رأى ببصيرته السياسية أنه لابد من ضمها حتى يمكن توحيد جبهة المسلمين ضد الصليبيين ، إلا أنه ما لبث أن انصرف عنها إلى حين ، وذلك أنه « علم أنه بلد عظيم لايتحصل منه شيء بالمحاصرة على هذا الوجه ، ورأى أن طريق أخذه أخذ قلاعه وماحولها من البلاد ، وإضعافه بطول الزمان ، فرحل عنها... » [(١٤١)].

وفى يوم ١٧ صفر سنة ٥٧٩ هـ / ١٨ يونيو ١١٨٣ م دخل صلاح الدين مدينة حلب منتصرا وبذلك ازدادت الجبهة الاسلامية تماسكا . وأدرك هو أهمية ضم حلب إلى الجبهة العربية الاسلامية ، إذ يذكر أبو شامة أنه قال لمعاونيه وهو يصعد قلعة حلب « والله ما سررت بفتح مدينة كسرورى بفتح هذه المدينة . والآن قد تبينت أننى أملك البلاد وعلمت أن

ملكى قد استقر وثبت » [١٤٢] . والحقيقة أن صلاح الدين صار بفتح حلب فى وضع يتيح له إنزال ضربة قاصمة بالصليبيين ، فموارد مصر الضخمة تحت تصرفه ، ودمشق وحلب فى قبضته ، ومن حوله لايوجد عدو خطير يخشى تهديده إن هو هاجم الصليبيين . بل يذكر أبو شامة أن إمارة أنطاكية الصليبية عندما عرفت باستيلاء صلاح الدين على حلب وحارم من بعدها ، رجفت من ذلك رعبا ، وأن أميرها بادر باسترضاء صلاح الدين ، فأرسل إليه جماعة من أسارى المسلمين ، وسارع إلى طلب أمان صلاح الدين ، وذلك لادراك الفرنج بها أن صلاح الدين سيستغل هذه القواعد الجديدة فى الإغارة عليهم [١٤٣].

وفى خلال السنوات المزدحمة التى قضاها صلاح الدين فى بناء الجبهة العربية الاسلامية ، وقع حادث مروع فى خريف سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢م ، عندما قام " رينالد دى شاتيون " "أرناط" أمير الكرك الصليبى ، والذى اشتهر فى المصادر العربية بأنه « أغدر الفرنجة وأخبثها وأفحصها عن الردى والرداء ، وأبحثها وأنقضها للمواثيق المحكمة والأيمان المبرمة ، وأنكثها وأخنثها »[١٤٤] قام بحملة بحرية على شبه الجزيرة العربية هدفها الهجوم على مكة والمدينة وأخذت سفنه تغير على الموانى المصرية الصغيرة على البحر الأحمر حتى وصلت إلى ميناء عيذاب ، وهناك نهب الصليبيون بضعة سفن تجارية وافدة من جدة واليمن وعدن والهند « فقتلوا وأسروا وأحرقوا فى بحر القلزم نحو ستة عشر مركب ، وأخذو بعيذاب مركبا يأتى بالحجاج من جدة ، وأخذوا فى الأسر قافلة كبيرة من الحجاج فيما بين قوص وعيذاب ، وقتلوا الجميع . وأخذوا مركبين فيهما بضائع جاءت من اليمن ، وأخذوا أطعمة كثيرة من الساحل كانت معدة لميرة الحرمين وأحدثوا حوادث لم يسمع الاسلام بمثلها » [١٤٥] ثم نقل الصليبيون نشاطهم الهدام إلى شاطىء الحجاز « فعظم البلاء وأعضل الداء وأشرف أهل المدينة النبوية منهم على خطر عظيم » كما أغاروا على ميناء رابغ إحدى موانى مكة [١٤٦]. ومهما يكن من أمر فان صلاح الدين لم يسكت على تهديد الصليبيين للحرمين ، وإنما أصدر تعليماته السريعة إلى أخيه العادل فى مصر ، فأعد أسطولا قويا فى البحر الأحمر تحت قيادة الحاجب حسام الدين لؤلؤ ، متولى الأسطول بديار مصر ، وقام بحصار أيلة « وظفر بمراكب الفرنج فسحقها وأسر من فيها » ثم أسرع بعد ذلك بتعقب السفن الصليبية عند عيذاب فشواطىء الحجاز ، وكان الجزء الأكبر من تلك السفن موجودا على شاطىء الحوراء فقاتل الفرنج أشد مقاتلة وقتل أكثرهم وأسر الباقين من جنودهم ، وأرسل بعضهم إلى منى لينحروا بها ، بينما

تم عرض الأسرى الباقين فى شوارع القاهرة والاسكندرية حيث شاهدهم الرحالة ابن جبير ، ووصف موكبهم فى الاسكندرية حيث رآهم « راكبين على الجمال ووجوههم إلى أذنابها وحولهم الطبول والأبواق » (١٤٧) أما أرناط نفسه فقد استطاع الإفلات فى صعوبة ، ولكن صلاح الدين أقسم على ألا يغفر له فعلته هذه ، وأن يدمر حصن الكرك ، ويقتل أرناط نفسه ، وشن هجومين على الكرك ، آخرهما فى سبتمبر ١١٨٤ ، ولكن الهجومين فشلا فى تحقيق غرض صلاح الدين .

وفى رأينا أن ما قام به أرناط من هجوم على الحرمين قد أظهر الصليبيين على حقيقتهم فى نظر المسلمين المعاصرين ، مما أثار النفور منهم ، وحال دون تعاون أية قوة إسلامية معهم وبخاصة أتابكة الموصل . ولقد ظهر ذلك جليا عندما فكر صلاح الدين فى محاصرة الموصل للمرة الثالثة عام ٥٨١ هـ / ١١٨٥م - وهى التى استعصت عليه لمنعتها كما سبقت الإشارة- ولكنه مرض قبل أن يصلها فتوجه إلى حران وهناك ورد عليه المؤرخ الشهير ابن شداد فى أوائل ذى الحجة سنة ٥٨١ هـ / فبراير ١١٨٦ م رسولا من جانب عز الدين مسعود أتابك الموصل . وفى هذا يقول ابن شداد أن صاحب الموصل أمره هو وبهاء الدين الربيب وقال لهما « امضيا ما يصل إليه جهدكما وطاقتكما ، فسرنا حتى أتينا العسكر .. وكان وصولنا فى أوائل ذى الحجة من السنة المذكورة ، فاحترمنا احتراما عظيما ، وجلس لنا ، وكان أول جلوسه من مرضه ، وحلف فى يوم عرفه ... وحلفته يمينا تامة ، حلفت أخاه الملك العادل ، ومات - قدس الله روحه - (أى صلاح الدين) وهو على ذلك الصلح لم يتغير عنها » (١٤٨) ويؤكد هذه الرواية العماد الكاتب بقوله « واتصلت المواصلة بيننا وبين المواصلة واستمرت المراسلات بالصلات وفقدت الحقوق فى الحقوق وجاء البر من العقوق » كما تعهد عز الدين مسعود أتابك الموصل بارسال قواته للمساعدة في استرداد فلسطين (١٤٩) ، وبذلك أصبحت الوحدة التى سعى إليها صلاح الدين حقيقة واقعة ، وتشمل بلاد الجزيرة والموصل وديار بكر وأعالى ما بين النهرين وشهر زور وحلب ودمشق ، وأجزاء كبيرة من بلاد الشام إلى جانب مصر . وكان لتلك الوحدة أثرها الايجابى حيث غذت صلاح الدين بقوة عسكرية واقتصادية وبشرية مكنته من الوقوف أمام أعدائه من الفرنج ، وبذلك تمت أخيرا الجبهة العربية الاسلامية المتحدة، وكان على صلاح الدين الأيوبى أن يتفرغ تماما توجيه ضربته الكبرى الصليبيين ، وتلك قصة أخرى ...

حواشي الفصل الأول

١ - ابن تغرى بردى « جمال الدين يوسف أبو المحاسن ت ٨٧٤ هـ »

- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبع دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣٩م - ١٤٨٩٧٢ ، جـ ٥ ، ص ١٦٥ .

٢ - ابن الأثير « عز الدين أبو الحسن على ت ٦٣٠ هـ »

- الكامل فى التاريخ ، طبع دار صادر بيروت ، ١٩٦٦م ، جـ ١٠ ، ص ١٧٣ .

٣ - المؤرخ المجهول ، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، نشر وتحقيق د . حسن حبشى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٥٨ م ، ص ٦٣ .

٤ - النويرى « شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٢ هـ »

- نهاية الأرب فى فنون الأدب ، دار الكب المصرية ١٩٨٢م ، جـ ٢٧ ، ص ١٧٠ .

٥ - ابن القلانسى « أبو يعلى حمزة ت ٥٥٥ هـ »

- ذيل تاريخ دمشق ، نشرة أمدروز ، بيروت ١٩٠٨م ، ص ١٤٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، جـ ١٠ ، ص ٤٨٢ .

٦ - ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٥٠ .

٧ - ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٣ .

٨ - يوشع براور : عالم الصليبيين ، ترجمة وتعليق د . قاسم عبده قاسم ، دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٨١م ، ص ٦٩ .

٩ - ابن القلانسى : نفس المصدر ، ص ٣١٣ .

١٠ - ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ١٠ ، ص ٢٨٦ ، ٣٧٣ ؛ أبو شامة « شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن المقدس » : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، القاهرة ، ١٢٨٧ هـ ، جـ ١ ، ص ٣٠ .

١١ - ابن الوردى « الشيخ زين الدين عمر ، ت ٧٥٠ هـ » .

- تاريخ ابن الوردى ، طبعة النجف ، ١٩٦٩ م . جـ ٢ ، ص ٩٢ .

١٢ - ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٦٦٣ .

١٣ - أبو شامة : كتاب الروضتين ، جـ ١ ، ص ٢٢٨ ؛ ابن تغرى بردى ؛ النجوم ، جـ ٥ ، ص ٣٦٨ .

١٤ - سعيد عبد الفتاح عاشور « دكتور » :

- الناصر صلاح الدين ، سلسلة أعلام العرب ٤١ ، القاهرة ، ١٩٦٥م ، ص ٥ .

١٥ - ابن العديم الحلبى « كمال الدين عمر بن أحمد العقيلى ت ٦٦٠ هـ »

- زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، جزءان نشره سامى الدهان ، دمشق ، ١٩٦٨م ، جـ ٢ ، ص ٣٢١ ؛ سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ٥ - ٣٩ .

١٦ - ابن الأثير « عز الدين أبو الحسن على ت ٦٣٠ هـ » :-

التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية فى الموصل ، القاهرة ، ١٩٦٣م ، ص ١٠٦ ؛ ابن واصل « جمال الدين محمد بن سالم ت ٦٩٧ هـ » مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، نشر جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٥٣ - ١٩٦٠م ، جـ ١ ، ص ١٢٦ .

١٧ - ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٦ ، ص ٢٤ - ٢٥ ؛

١٨ - ابن شداد « القاضى بهاء الدين ت ٦٣٢ هـ »

- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، طبع مطبعة الآداب والمؤيد بمصرية سنة ١٣١٧ هـ ، ص ٤٠ .

١٩ - ابن الوردى : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٧٦ ، أبو الفدا « الملك المؤيد اسماعيل ت ٧٣٢ هـ » : المختصر فى أخبار البشر ، القاهرة ، ١٣٢٥ هـ ، جـ ١ ، ص ١٢٧ .

٢٠ - ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ، ص ١٠ ؛ ابن الوردى : نفس المصدر والصفحة السابقة .

٢١ - ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٦ .

٢٢ - البندارى « الفتح بن على قوام الدين ت ٦٤٢ هـ »

سنا البرق الشامى ، تحقيق د . رمضان ششن ، بيروت ، ١٩٧١ م ، ص ١٦ .

٢٣ - هاملتون جب « السير هاملتون ا.ر. جب » :

- صلاح الدين الأيوبى ، دراسات فى التاريخ الإسلامى ، بيروت ١٩٧٣م ، ص ١١٨ - ١١٩ .

٢٤ - المقريزى «تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥ هـ » : السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشره وحققه محمد مصطفى زيادة فى ست مجلدات ، القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٥٨ م ، جـ١ . ق ١ ، ص ٤١ .

٢٥ - ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢١ - ٢٧ ؛ سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ، ص ٥٨ .

٢٦ - ابن القلانسى : نفسه ، ص ٣١٢ .

٢٧ - ابن الوردى : نفسه ، جـ ١ ، ص ٢٠ .

٢٨ - أبو شامة : نفسه ، جـ ١ ، ١٠٧ .

٢٩ - William of Tyre , History of Deeds Done Beyond the Seas , Tsans , by Emily Atwater Babcock , New york 1943 , vol . 2 , pp . 890 - 910 .

٣٠ - ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ١٠ ، ص ٣٧٦ فى حوادث سنة ٥٥٦ هـ .

٣١ - ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٦ ؛ ابن الوردى : نفسه ، جـ ٢ ص ٦٦ .

٣٢ - Runciman : A History of the crusades , Cambridge , 1957 , Vol . 2 , p . 592 .

٣٣ - البندارى : سنا البرق الشامى ، ص ١٩ ؛ ابن الوردى : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٦٦ .

٣٤ - البندارى : نفسه ، ص ١٩ ؛ أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٣٠ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٤٦ .

٣٥ - النوادر السلطانية ، ص ٣٦ .

٣٦ - سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، جزءان ، طبعة أولى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٣ م ، جـ ٢ ، ص ٦٨٣ .

٣٧ - النوادر السلطانية ، ص ٣٦ .

٣٨ - المصدر نفسه ، ص ٤١ .

٣٩ - البندارى ؛ سنا البرق الشامى ، ص ١٩ .

٤٠ - ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٧٣ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٤٨ ، سعيد عاشور ، الأيوبيون والمماليك ، ص ١٥ .

٤١ - البندارى : سنا البرق الشامى ، ص ٢٠ .

٤٢ - المصدر السابق ، ص ٢٠ ؛ أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٤٥ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٥٩ .

٤٣ - سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك ، ص ٢٠ - ٢١ .

٤٤ - ابن الوردى : نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص ٧٤ .

٤٥ - هاملتون جب : صلاح الدين الأيوبى ، ص ١١٩ .

٤٦ - ابن الوردى : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٧٥ ؛ المرجع السابق ، ص ١١٩ .

٤٧ - ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ٣٧٥ ؛ أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ٤٠٨ - ٤٠٩ ؛ هاملتون جب : نفسه ، ص ١١٩ .

٤٨ - أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ٤٠٩ .

٤٩ - ابن الوردى : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٧٦ .

٥٠ - أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٦٠ - ١٦١ نقلا عن أبن الأثير .

٥١ - سنا البرق الشامى ، ص ٤٢ .

٥٢ - ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤ ، ٢٢٩ - ٢٤٢ ؛ هاملتون جب : نفسه ، ص ١٢٠ .

٥٣ - ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ٢٦ .

٥٤ - المصدر السابق : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٦ .

٥٥ - المصدر السابق : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٧ .

٥٦ - هاملتون جب : نفسه ، ص ١٢٠ .

٥٧ - المرجع السابق : نفسه ، ص ١٢٠ .

٥٨ - ابن الوردى : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٧٦ - ٧٧ .

٥٩ - سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ، ص ٨٥ .

٦٠ - Runciman . Op . cit . Vol . 2 , p . 619 .

٦١ - Ibid : Loc . cit

٦٢ - ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ١٤٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ١٨٠ .

٦٣ - Willam of Tyre : Op . cit . Vol . 2 , pp . 960 - 981 .

٦٤ - سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ، ص ٨٦ .

٦٥ - Willam of Tyre : Op . cit . vol . 2 , pp . 960 - 962 .

٦٦ - ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ٢٦٤ .

٦٧ - سعيد عاشور : الحركة ، جـ ٢ ، ص ٧١١ Runciman . Op . cit . Vol . 2 , p . 622 .

٦٨ - Ibid : Loc . cit .

٦٩ - Ibid : op . cit . Vol . 2 , pp . 622 - 623 .

٧٠ - Willam of Tyre : Op . cit . Vol . 2 , pp . 961 - 962 .

٧١ - أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٧٩ - ١٨٠ .

٧٢ - المصدر السابق : جـ ١ ، ص ١٨٠ .

٧٣ - المصدر السابق : جـ ١ ، ص ١٨٠ ؛ ابن الوردى : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٧٧ .

٧٤ - ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٣ .

٧٥ - المصدر السابق : نفسه ، ص ٤٣ .

٧٦ - أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ١٨٠ ؛ ابن الوردى : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٧٧ .

٧٧ - الروضتين : جـ ١ ، ص ١٨٠ - ١٨١ .

٧٨ - ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ١٤٤ ؛ سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ، ص ٨٩ .

٧٩ - ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٣ .

٨٠ - ابن الوردى : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٧٨ .

٨١ - ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٤ ؛ أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٨٣ .

٨٢ - ابن الوردى : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٧٨ .

٨٣ - المصدر السابق : جـ ٢ ، ص ٧٩ .

٨٤ - ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٥ .

٨٥ - أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٩٤ ؛ هاملتون جب : نفسه ، ص ١٢١ .

٨٦ - أبو شامه : نفسه ، جـ ١ ، ص ١٩٤ - ١٩٥ ، ابن الوردى : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٧٩ .

٨٧ - ابن الوردى : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٨٠ - ٨١ .

٨٨ - النوادر السلطانية ، ص ٤١ .

٨٩ - هاملتون جب : نفسه ، ص ١٢١ .

٩٠ - الروضتين : جـ ١ ، ص ٢٢٨ .

٩١ - ابن الوردى : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٨٢ .

٩٢ - البندارى : سنا البرق الشامى ، ص ٢٩ .

٩٣ - مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٢١٢ .

٩٤ - البندارى : نفسه ، ص ٢٩ ؛ سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ، ص ١٠٣ .

٩٥ - الكامل فى التاريخ ، جـ ١١ ، ص ١٥٢ فى حوادث سنة ٥٩ هـ .

٩٦ – البندارى : سنا البرق الشامى ، ص ٢٩ .

٩٧ – المصدر السابق والصفحة ذاتها ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٢٤٧

٩٨ – سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ، ص ١٠٥ .

٩٩ – أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ٢٣٤ – ٢٣٥ ؛ ابن شداد : الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٥٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ١١ – ١٦ ؛ ابن كثير « الحافظ أبو الفدا ابن كثير الدمشقى ت ٧٧٤هـ» البداية والنهاية ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ١٩٨٥م جـ ١٢ ، ص ٢٨٧ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ق ١ ، ص ٥٥ – ٥٧ .

١٠٠ – ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٧ – ٤٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٢٢٩ ، جـ ٢ ، ص ١٦ – ١٧ ؛ أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ٢٠٨ – ٢٠٩ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٥٧ – ٥٨ ؛ ابن الوردى : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٨٣ .

١٠١ – ابن واصل : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٨ ؛ ابن الوردى : نفسه ،جـ ٢ ، ص ٨٣ ؛ هاملتون جب ، نفسه ، ص ١٢٢ .

١٠٢ – ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٩ ؛ ابن الوردى : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٨٣ .

١٠٣ – ابن واصل – : نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٨ .

١٠٤ – ابن الأثير : الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٦٥ – ١٦٦ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ ٣ ، ص ٢١٣؛ أبو شامة : نفسه ، جـ ١ ، ص ٢٣٣ ؛ البندارى : نفسه ، ص ٣٣ ؛ ابن كثير : نفسه ، جـ ١٢ ، ص ٢٨٥ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٥٨ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦٥٠ – ٦٥١ .

١٠٥ – ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٥٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ٢٩ .

١٠٦ – النوادر السلطانية ، ص ٥٠ .

١٠٧ – Champdor : Saladin , p . 77 .

١٠٨ – المقريزى : السلوك . جـ ، ق ١ ، ص ٥٨ ؛

P.P.T.S , Vol . X1 , pp . 67 - 70

١٠٩ – ابن الوردى : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٨٤ .

١١٠ – ابن الأثير : الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٦٦ – ١٧٠ ؛ أبو شامة : نفسه ، جـ ١ ، ص ٢٤٠ .

١١٢ – ابن شداد : نفسه ، ص ٥٢ ؛ أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ٢٥٨ ؛ ابن واصل : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٣٨ ؛ ابن كثير : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٩٢ ؛ سعيد عاشور : الناصر ، ص ١٣٦ ؛
William of Tyre : Op . cit . Vol . 2 , pp . 1012 - 1023 .

١١٣ – البندارى : سنا البرق ، ص ١٩٢ – ١٩٣ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٣٢ ؛ أبو شامة: الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٤٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ٣٤ .

١١٤ – أبو شامة : الروضتين ، جـ ، ص ٢٣٧ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٥٨ ؛ هاملتون جب : نفسه ، ص ١٢٥ .

١١٥ – النوادر السلطانية ، ص ١٨ .

١١٦ - هاملتون جب : نفسه ، ص ١٢٥ ؛
William of Tyre : Op . cit . vol . 2 , p. 489

١١٧ - ابن الأثير : الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٧٥ ؛ ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٥١ - ٥٢ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ ٣ ، ص ٢٣ - ٢٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ٣٩ - ٤٠ .

١١٨ - أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ٢٥٥ ؛ هاملتون جب : نفسه ، ص ١٢٧ .

١١٩ - ابن الأثير : الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٧٦ ؛ سبط ابن الجوزى « أبو المظفر يوسف قزاوغلى ت ٦٥٤ هـ » : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان » ، تحقيق سفر بن سالم الغامدى ، مكة المكرمة - ١٩٨٧ م ، جـ ٨ ، ق ١ ، ص ٣٣٥ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ ٣ ، ص ٣٠ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٩٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ٤٦ .

١٢٠ - ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ٤٧ - ٥٠ .

١٢١ - أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ٢٦٣ - ٢٦٤ ؛ سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ، ص ١٢٢ .

١٢٢ - البندارى : سنا البرق الشامى ، ص ١١٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ٥٢ - ٥٣؛ هاملتون جب : نفسه ، ص ١٢٨ .

١٢٣ - ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ٥٦ .

١٢٤ - أبو شامة : الروضتين ، جـ ، ص ٢٦٩ .

١٢٥ - ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٥٢ ؛ سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ، ص ١٢٤ .

١٢٦ - ابن جبير : الرحلة ، ص ٤٨ ؛ أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ١٩١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٩٨ ؛ جـ ٢ ، ص ٥٤ - ٥٥ ؛ المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، طبع بولاق ، ١٢٧٠هـ ، جـ ٣ ، ص ٢٥١ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٣٥٨ ؛ ابن الوردى: نفسه ، جـ ٢ ، ص ٨٧ .

١٢٧ - البندارى : سنا البرق ، ص ١٢٠ ؛ أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ٢٦٨ .

١٢٨ - أبو شامة : نفسه ، جـ ١ ، ص ٢٧٣ ؛ ابن الوردى : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٨٧ .

١٢٩ - ابن الوردى : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٨٨ ؛ هاملتون جب : نفسه ، ص ١٢٨ .

١٣٠ - أبو شامة : الروضتين ، جـ ١ ، ص ٢٧٣ ؛ البندارى : سنا البرق الشامى ، ص ١٢٧ - ١٣١ ؛ رنسمان « ستيفن » : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى ، بيروت ، ١٩٦٩م ، جـ ٢ ، ص ٦٧١ - ٦٧٣ .

١٣١ - النوادر السلطانية ، ص ٥٢ - ٥٣ .

١٣٢ - هاملتون جب : نفسه ، ص ١٢٩ .

١٣٣ - سنا البرق الشامى ؛ ص ١٦٥ - ١٦٦ ؛ ابو شامة : نفسه ، جـ ٢ ، ص ١١ ؛ هاملتون جب : نفسه ، ص ١٣١ .

١٣٤ - هاملتون جب : نفسه ، ص ١٣٢ .

١٣٥ - المرجع السابق : ص ١٣٢ .

١٣٦ - ابن الأثير : الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٧ - ١٧١ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ ٣ ، ص ١٢٢؛ ابن العبرى « غريغوريوس المالطى ت ١٢٨٦ م » : تاريخ مختصر الدول ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٢، ص ٢٨٩ .

١٣٧ - ابن شاهنشاه الأيوبى « المنصور محمد بن تقى الدين عمر ت ٦١٧ هـ » مضمار الحقائق وسر الخلائق ، تحقيق د . حسن حبشى .

١٣٨ - ابن الأثير : الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٧١ ؛ ابن العديم ، جـ ٣ ، ص ٢٤ .

١٣٩ - البندارى : سنا البرق الشامى ، ص ١٨٥ - ١٨٦ ؛ ابن الوردى : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٩١ .

١٤٠ - ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٥٦ .

١٤١ - المصدر السابق ، نفسه ، ص ٥٧ .

١٤٢ - الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٤٥ .

١٤٣ - المصدر السابق : نفسه ، ص ٤٧ ؛ سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ، ص ١٥٥،
William of Tyre : Op . cit . Vol . 2 , pp.490 - 492

١٤٤ - البندارى : نفسه ، ص ٢٨٩ ؛ أبو شامة : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٧٥ .

١٤٥ - البندارى نفسه ، ص ١٨٨ ؛ المقريزى ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٧٩ .

١٤٦ - أبو شامة : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٣٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ،جـ ٢ ، ص ١٢٧ .

١٤٧ - الرحلة ، ص ٢٩ ؛ سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ، ص ١٧٠ - ١٧١ .

١٤٨ - النوادر السلطانية ، ص ٧٠ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ١١ ، ص ٢١٠ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ١٧٢ .

١٤٩ - سنا البرق الشامى ، ص ٢٨٤ ؛ هاملتون جب : نفسه ، ص ١٤١ .

الفصل الثانى

المواجهة

مقدمات حطين - معركة حطين وهزيمة الصليبيين - أهم النتائج - ما بعد حطين - الحملة الصليبية الثالثة - نتائج الحملة - وفاة صلاح الدين الأيوبى - تقييم الدور التاريخى لصلاح الدين الأيوبى .

تميزت الفترة السابقة فى العلاقات بين صلاح الدين والحكام الصليبيين والتى انتهت بالمعاهدة ذات السنوات الأربع - تميزت هذه الفترة بكونها فترة الاستعداد والتمهيد للمعركة الكبرى ضد الصليبيين . ويبدو من استعراض أحداث هذه الفترة أن العلاقة بين القوى العربية والقوى الصليبية لم تكن سلمية ولكن المعارك التى جرت بين المسلمين بقيادة صلاح الدين من ناحية والصليبيين من ناحية أخرى لم تكن تصل إلى مداها . ففى بعض الأحيان كانت المعارك تتوقف بين الطرفين بسبب انشغال السلطان بتوحيد الجبهة الإسلامية (1) وكانت الظروف تجبره على توجيه قواته صوب المناطق التى يحكمها أمراء انفصاليون يقفون حجر عثرة فى سبيل قيام الجبهة العربية الإسلامية المتحدة . مثال ذلك ما حدث فى سنوات ٥٧٧ هـ ، ٥٧٩ هـ ، ٥٨٠ هـ / ١١٨١م ، ١١٨٣م ، ١١٨٤م ، عندما قاد صلاح الدين قواته لفتح بلاد الجزيرة مثل الموصل وسنجار وآمد وديار بكر (2).

لقد كانت سياسة صلاح الدين خلال هذه الفترة تقوم على أساس تجنب أية مواجهة كبرى مع الصليبيين قبل توحيد الجبهة العربية الإسلامية ، ففى سنة ٥٧٦ هـ / ١١٨٠م كان قد عقد هدنة مع بلدوين الرابع ملك بيت المقدس عن طيب خاطر ، واضطر إلى القيام بعدة غارات تأديبية على كل من ريمون صاحب طرابلس ورينالد دى شاتيون (أرناط) صاحب الكرك لتأمين طريق التجارة العالمية والتى كانت موردا بالغ الأهمية من موارد المسلمين فى مصر والشام . ولكن دخول الموصل فى الجبهة الإسلامية جعل صلاح الدين يستعد للمواجهة الحاسمة

ضد الصليبيين وهكذا بدأت مرحلة جديدة فى العلاقات بين صلاح الدين والصليبيين [٣].

هذه المرحلة الثانية تمتد من سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧م حتى سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م وتعتبر معركة حطين الشهيرة بداية لها . فقد بدأت عملية الاسترداد الإسلامى المنظم وتقليص الوجود الصليبى على أرض فلسطين . لقد كانت الأمة العربية كلها قد اتحدت على هدف واحد هو القضاء على الصليبيين ، ووجد صلاح الدين تحت قيادته منطقة تمتد من النيل إلى الفرات غير المساعدات المنتظرة من شتى أنحاء العالم العربى الإسلامى آنذاك . وقد اجتمعت عدة عوامل سياسية واقتصادية وعسكرية مهدت السبيل أمام هذه المعركة [٤].

فعلى المستوى السياسى كانت الجبهة الداخلية قد أصبحت قوية ، كما اطمأن صلاح الدين إلى استقرار أوضاعه الداخلية بعد أن ارتبطت الموصل معه فى الصلح الذى عقد سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م والذى أدى إلى دخول حاكم الموصل " عز الدين مسعود " فى طاعة صلاح الدين على أساس أن يكون له حق الحكم الذاتى . وزاد من استقرار الجبهة الداخلية تأييد الأراتقة لصلاح الدين وتلك الهدنة التى عقدها مع الإسماعيلية فى بلاد الشام . وهكذا كان الموقف السياسى الداخلى فى المنطقة العربية الإسلامية فى صالح القوى العربية الإسلامية[٥].

وعلى الجانب الآخر أى فى المعسكر الصليبى كان الموقف السياسى مفككا . فعندما غادر الملك بلدوين سرير المرض فى الناصرة ، كان واضحا أنه لم يعد قادرا على تحمل مهام الحكم فقد بات عاجزا عن الحركة تقريبا كما أن بصره كاد أن يضيع ومن ثم وضعته أمه وأخته سبيلا والبطريرك هيراكليو تحت الحراسة وأقنعوه بأن يجعل الوصاية على العرش لزوج سبيلا جى لوزينان . وتمكن جى لوزينان هذا من فرض سيطرته الكاملة على المملكة باستثناء مدينة بيت المقدس التى احتفظ بها الملك لنفسه حتى يفيد من مواردها المالية الهائلة [٦].

ولكن بعض التصرفات التى أتاها جى صدمت الجنود والبارونات فى إحدى المعارك التى خاضوها ضد صلاح الدين . وعندما عاد جى لوزينان إلى القدس تشاجر مع الملك . فقد أراد الملك أن يرحل إلى عكا للاستشفاء ولكن جى قابل طلب الملك بوقاحة أدت إلى أن جمع الملك بلدوين أتباعه وقرروا خلع جى لوزينان من الوصاية على عرش ملكة بيت المقدس . وعلى الرغم من أن الملك لم يكن يستطيع الحركة دون مساعدة كما أنه كان عاجزا عن التوقيع باسمه فقد استمر يباشر مهام الحكم بنفسه [٧]. ونتيجة لذلك عاد جى لوزينان إلى إمارته فى

عسقلان ويافا وأنهى تحالفه مع الملك وبدأ الملك يفقد أعصابه فهاجم يافا واستولى عليها ولكن جى صده عند عسقلان وأراد الملك أن يبعث بطريرك بيت المقدس وزعيم الداوية إلى أوربا لتنجده بحملة صليبية جديدة ولكنهما ظلا مترددين فى القيام بهذا العمل [٨] .

وبينما كانت الاستعدادات قائمة على قدم وساق لعقد قران إحدى الأميرات الصليبيات فى حصن الكرك الذى يحكمه أرناط وبينما بذلت الجهود لجلب المغنيين والمغنيات والراقصات من شتى أرجاء الشرق المسيحى ، جاءت الأنباء المرعبة بأن صلاح الدين يقترب بجيشه من الكرك لتأديب صاحبه أرناط على جريمته التى ارتكبها فى حق المسلمين حين هاجم سواحل الحجاز[٩].

كان تدمير الكرك وصاحبه المتهور الذى لا يحفظ عهدا ولاذمة من أهم أهداف صلاح الدين الأيوبى فطالما كان أرناط موجودا فى قلعته فانه كان يستطيع تهديد حركة التجارة بين الشام ومصر والحجاز ، كما أن التجارب قد أثبتت أن هذا الأمير لا يلتزم بأى عهد أو اتفاق [١٠]. وفى العشرين من نوفمبر سنة ١١٨٣م قدمت تعزيزات جديدة لتنضم إلى جيوش صلاح الدين التى كانت تحاصر حصن الكرك وساق الفلاحون والرعاة من المسيحيين الشرقيين قطعانهم إلى داخل أسوار المدينة طلبا للسلامة وفى الحال هاجم صلاح الدين البرج الأسفل واقتحمه ولم يستطع أرناط أن يفعل شيئا سوى الهروب للاحتماء بالقلعة . وعلى الرغم من ذلك استمرت احتفالات الزواج فى مظاهرة للشجاعة المصطنعة وبينما كانت قذائف المنجنيق تنهمر على أسوارالقلعة بدويها المزعج من الخارج كانت أصوات الموسيقى والمطربين تصدح فى الداخل وأرسلت أم العريس رسالة إلى صلاح الدين تخبره بأمر حفل الزواج ، وأمر القائد المسلم رجاله بعدم قذف البرج الذى تواجد فيه العروسان الشابان ولكنه لم يتوان عن مهاجمة القلعة [١١].

وفى تلك الأثناء أسرعت رسل الصليبيين إلى مملكة بيت المقدس لطلب النجدة وفى الحال جمع الملك بلدوين كافة من استطاع جمعهم من الجيش الملكى وعقد لواء القيادة للكونت ريمون الصنجيل . ومع اقترابهم رفع صلاح الدين حصاره عن الكرك فى الرابع من ديسمبر سنة ١١٨٣م/ ٥٧٩هـ وعاد أدراجه إلى دمشق وفى الخريف التالى عاود صلاح الدين هجومه على الكرك بجيش كبير ولكن مناعة وتحصينات الكرك وقفا عقبة فى طريقه . ومرة أخرى اضطر إلى رفع الحصار وعاد إلى دمشق . ولم يكن الوقت قد حان بعد لاستئصال شأفة الصليبيين[١٢].

وفى مملكة بيت المقدس كان الملك العاجز مايزال يمسك بأعنة الحكم فى يديه الواهنتين وكان جى لوزينان مايزال يحكم عسقلان ويرفض أن يعترف بالمواطنين الملكيين فى مدينته ، ولكن أصدقاءه كانوا فى أوربا يحاولون تحريك مشاعر الامبراطور فردريك بربروسا ملك ألمانيا ، وهنرى ملك انجلترا ، ولويس السابع ملك فرنسا لشن حملة صليبية جديدة لانقاذ صليبيى الشرق وقابلهم ملوك أوربا الكبار بترحاب ولكنهم التمسوا لأنفسهم الأعذار حتى يهربوا من تبعية المشاركة فى حملة صليبية ... (١٣).

وفى ظل هذه الظروف رقد بلدوين ملك بيت المقدس الصليبى فى سريره مريضا ولم يقم منه مرة أخرى . وقد رأى الملك أن يجعل خليفته على العرش صبيا صغيرا هو ابن أخته وكان البارونات يميلون إلى جعل الوصاية على العرش لريمون كونت طرابلس بدلا من جى لوزينان ، ولكن ريمون رفض الوصاية على الملك الطفل .. وفى مارس ١١٨٥م مات بلدوين الرابع ملك بيت المقدس بعد رحلة طويلة مع عذاب المرض . وكان عمره حين مات أربعة وعشرين عاما فقط. ووافق الجميع على عقد هدنة أربع سنوات مع صلاح الدين بناء على اقتراح ريمون الصنجيل وهى المعاهدة التى فرح بها صلاح الدين كما أشرنا فى الفصل السابق (١٤).

وقد استغل صلاح الدين هذه الهدنة لتقوية نفوذه وتدعيم سلطانه وحشد موارده استعدادا للمعركة الفاصلة . وكانت الهدنة بين المسلمين والصليبيين والسلام النسبى الذى ساد أثناءها سببا فى انتعاش فلسطين واقتصادها من جديد ، ولكن موت الملك الطفل بلدوين الخامس فى أغسطس سنة ١١٨٦م وهو لم يبلغ التاسعة من عمره هز موقف الصليبيين من جديد . وبدأ النزاع بين الصليبيين حول العرش مرة أخرى .... وبعد عدة تقلبات فى الأحداث تولى جى لوزينان عرش مملكة بيت المقدس (١٥).

وفى ظل هذا التمزق الذى أنشب مخالبه فى مملكة بيت المقدس كان المنطق يفرض على الصليبيين أن يتمسكوا بالهدنة مع صلاح الدين ، ولكن " أرناط " حاكم الكرك ارتكب واحدة من حماقاته المعهودة . فقد كانت القوافل التجارية الكبرى بين دمشق والقاهرة تسير باستمرار فى ظل الحماية التى كفلتها هدنة السنوات الأربع . وفى سنة ٥٨١هـ / ١١٨٦م كانت هناك قافلة ضخمة قادمة من القاهرة ومعها حامية صغيرة من الجنود المصريين لحمايتها من عبث العربان . وفجأة هاجم أرناط القافلة وذبح الحامية وأسر التجار وعائلاتهم وكانت الغنائم أكبر

من أى غنائم حصل عليها من قبل . وسرعان ماوصلت الأنباء إلى صلاح الدين الذى أرسل يطلب من أرناط إطلاق سراح الأسرى وتعويضهم ورفض " أرناط " الاستجابة لسفراء صلاح الدين ورد عليهم فى وقاحة بالغة قائلا « قولوا لمحمد يخلصكم ! » فذهبوا إلى ملك بيت المقدس لتقديم شكواهم . وتعاطف معهم ملك بيت المقدس ، إلا أنه لم يستطع أن يفرض رأيه على أرناط الذى اعتبر نفسه مستقلا وليس بينه وبين صلاح الدين هدنة (١٦).

هكذا صارت الحرب حتمية ، وهى حرب لم تكن مملكة بيت المقدس الممزقة على استعداد لمواجهتها بينما كانت الجبهة العربية الإسلامية بوحدتها وتماسكها مستعدة تماما لهذه المواجهة وسارع بوهيموند وأمير أنطاكية لتجديد هدنة مع صلاح الدين وعقد ريمون أمير طرابلس هدنة يحمى بها إمارته . وكادت الحرب الأهلية أن تنشب بين الصليبيين (١٧).

فى نفس الوقت أرسل صلاح الدين إلى نوابه وتابعيه فى كافة أنحاء المنطقة العربية يطلب منهم القدوم بجيوشهم لقتال الصليبيين . وانطلق هو بنفسه على رأس قوة كبيرة لحماية قافلة من الحجاج العائدين من بلاد الحجاز وبدأت الفرقة المصرية التى وصلت للانضمام إلى صلاح الدين تغير على أملاك الصليبيين فى الكرك والشوبك ، وتلحق بها الخراب والتدمير . ثم عاد صلاح الدين إلى دمشق بعد شهرين ثم تجمعت الجيوش العربية الإسلامية القادمة من دمشق وحلب ومابين النهرين ومصر وديار بكر لتشن هجومها على طبرية . وفى معركة ضد فرسان الداوية والاسبتارية انتصر المسلمون انتصارا ساحقا فى أول مايو ١١٨٧ عند صفورية بحيث قضوا تماما على القوة الصليبية التى اشتبكوا معها ، وكان هذا النصر « باكورة البركات ومقدمة مابعدها من ميامن الحركات » على حد قول المؤرخ المعاصر أبى شامة (١٨).

وعند نهاية شهر يونيو كان الصليبيون قد جمعوا حوالى ١٢٠٠ فارس من ذوى التسليح الثقيل وعددا أكبر من الفرسان الخفيفة ، والتركبولى فضلا عن حوالى عشرة آلاف من الجنود المشاة . وتجمع هذا الجيش الصليبى الضخم أمام عكا وطلب الصليبيون من البطريرك أن يأتى معهم بالصليب الأعظم ولكنه اعتذر وأرسل الصليب مع مندوب كنسى آخر وقال البعض إن البطريرك فضل أن يبقى مع محبوبته باشكيا (١٩).

وعلى الجانب الآخر استعرض صلاح الدين قواته عند عشتراء التى كانت تتألف من اثنى عشر ألفا من الفرسان النظاميين وعدد مماثل من القوات غير النظامية ، وعين لكل أمير مكانه

فى الميمنة والميسرة ، بحيث لا يجوز له أن يبارحه ، فلا تتغيب فرقة ولا يترك رجل واحد مكانه، وعين فى كل كتيبة طليعة من رماة السهام ، وخاطب قواده قائلا « إذا دخلنا أرض العدو ، فهذا هو ترتيب عساكرنا وهذه هى مواضع قواتنا » . وفى السادس والعشرين من يونيو انطلقت قوات صلاح الدين إلى فلسطين حيث عسكرت قواته على التلال المشرفة على بحيرة طبرية .. واستولى الجيش الإسلامى على مدينة طبرية ولكن قلعة المدينة لم تسقط واستنجدت أميرتها بالملك الصليبى " جى لوزينان " .. وهكذا جاءت الفرصة تسعى لصلاح الدين كى يقضى على الجيوش الصليبية فى مواجهة مفتوحة (٢٠).

وفى أول يوليو من هذه السنة ١١٨٧ عبر صلاح الدين بقواته نهر الأردن ثم عسكر فى اليوم التالى عند كفر سبت فى التلال الواقعة على بعد خمسة أميال من البحيرة وعندما وصلت الأنباء إلى معسكر الصليبيين بأن صلاح الدين قد عبر نهر الأردن عقد الملك جى لوزينان مجلسا حربيا فى عكا . واستقر رأى أمراء الصليبيين على الالتزام بخطة دفاعية حتى ينهكوا الجيش الإسلامى الذى سيقوم بالهجوم تحت حرارة الصيف اللافح وسوف يؤدى ذلك إلى تقهقر صلاح الدين فى الوقت الذى تكون فيه الإمدادات القادمة من أنطاكية قد وصلت لهم فيدمرون جيش المسلمين . ولكن هذه الخطة لم تعجب أرناط فاتهم ريمون بالجبن وبأنه باع نفسه للمسلمين . أما الملك جى فكان يقتنع دائما بكلام آخر المتحدثين ، ومن ثم أعطى أوامره للجيش بالتحرك صوب طبرية وعسكر الصليبيون فى صفورية بجيش ضخم يقارب جيش المسلمين(٢١) .

وفى صباح الجمعة الثالث من يوليو والذى كان يوما قائظا ساكن الهواء تحرك الجيش الصليبى من بساتين صفورية باتجاه طبرية لنجدة الأميرة الصليبية فى قلعتها . وفى الطريق تحالف الحر والعطش مع مناوشات الجنود المسلمين وهجماتهم الخفيفة لارهاق الصليبيين . وبعد ظهر اليوم وصلت طلائع الجيش الصليبى إلى الهضبة التى تعلو حطين مباشرة وعندما رأى ريمون الصنجيل الموقع الذى اختاره الصليبيون صاح بأسى يا إلهى لقد انتهت الحرب إن مصيرنا الهلام وسوف تنتهى المملكة ... فقد أساء الصليبيون اختيار معسكرهم ولابد أن صلاح الدين قد ابتهج تماما بما حدث . فقد جاءت فرصته أخيرا (٢٢).

وأمضى الصليبيون ليلة حالكة السواد يؤرقهم اليأس وتضنيهم أصوات الصلوات

والتكبيرات المنبعثة من معسكر المسلمين القريب . وخرجت مجموعة صغيرة من الجنود يدفعهم اليأس للبحث عن الماء ويطلبون لأنفسهم الموت على أيدى المسلمين ، ولكى يزيد صلاح الدين من متاعب الصليبيين أمر باضرام النيران فى الحشائش الموجودة فى المنطقة وتحت جنح الليل حرك صلاح الدين جيشه ليحاصر جيش الصليبيين . وعندما لاحت تباشير فجر يوم السبت الرابع من يوليو كان الجيش الصليبى محاصرا بحيث لا تستطيع قطة أن تنفذ من هذا الحصار على حد تعبير أحد المؤرخين المعاصرين (٢٣).

وسرعان مابدأ الهجوم الإسلامى بعد شروق الشمس . وكان هناك شىء واحد يشغل بال المشاة الصليبيين هو كيف يمكنهم الحصول على الماء . فحاولوا أن يشقوا طريقهم بالقوة صوب البحيرة وفى الحال لقى كثيروون مصرعهم ، ووقع كثيرون فى الأسر وفى خضم المعركة المحتدمة حاول ريمون أمير طرابلس أن يجد ثغرة يحطم بها الحصار الإسلامى . ولكن تقى الدين عمر بن شاهنشاه ، ابن أخى صلاح الدين وقائد إحدى الفرق الإسلامية ، أحس بمحاولته فتظاهر بالهزيمة وأفسح لريمون طريق الخروج ثم أحكم الحصار مرة أخرى حول الجيش الصليبى بحيث فصل جيش ريمون عن بقية الجيش الصليبى فسارع بالهروب إلى طرابلس ثم هرب إثنان آخران من قادة الجيوش الصليبية (٢٤).

وشن المسلمون هجومهم الحاسم على الصليبيين وقتل أسقف عكا واستولى المسلمون على الصليب الأعظم ولم تنج من خيول فرسان الصليبيين سوى قلة قليلة . وعندما وصل المسلمون المنتصرون إلى أعلى التل كان الفرسان الصليبيون وملكهم فى المنتصف يرقدون متهالكين لايكادون يقدرون على رفع سيوفهم لكى يستسلموا للمسلمين . وسيق الملك الصليبى وقادة جيشه إلى خيمة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب (٢٥).

فى الخيمة السلطانية استقبل صلاح الدين الملك الصليبى جى لوزينان وأخاه أماريك وأرناط (رينالد دى شاتيون) وعدداً آخر من بارونات الصليبيين وزعمائهم وحياهم السلطان بكرم وأجلس الملك بجواره . ولما لاحظ أنه يعانى العطش أعطاه قدحا من ماء الورد المثلج وشرب الملك ثم ناول القدح لأرناط لكى يشرب . وتقضى أصول الضيافة العربية أن إعطاء الطعام أو الشراب لأى أسير ، معناه أن حياته فى أمان ولهذا تدخل صلاح الدين بسرعة ليقول للمترجم " قل للملك أنه هو الذى أعطى الماء لأرناط ليشرب ولست أنا " ثم التفت السلطان

إلى أرناط وذكره بما ارتكبه من جرائم وبما أقدم عليه من خيانة وبخسته وطمعه . وعندما أجاب أرناط بوقاحة قام صلاح الدين بنفسه بقطع رأس الأمير الصليبى بسيفه وأرتعش الملك الصليبى جى لوزينان ظنا بأن دوره قد حان . ولكن صلاح الدين طمأنه بأن الملوك لايقتلون الملوك . وأمر بعدم إيذاء أى أسير صليبى وأصدر تعليماته بحسن معاملتهم أثناء فترة الأسر. وتم إرسال الأسرى إلى دمشق (٢٦).

لقد كان انتصار المسلمين فى حطين ساحقا بدرجة جعلت أحد المؤرخين المعاصرين يقول : "وكان من يرى الأسرى لكثرتهم لايظن هناك قتلى ، فاذا رأى القتلى حسب أنه لم يكن هناك أسرى " أو بعبارة أخرى كانت حطين أفدح من مجرد كارثة حربية حلت بالصليبيين ، إذ تم فيها أسر ملك بيت المقدس وضياع هيبته ، وسقطت زهرة فرسان الصليبيين وغالبية جيش مملكة بيت المقدس بين قتلى وأسرى (٢٧).

لقد وقعت كوارث سابقة على المستوطنين الصليبيين فى المنطقة العربية فقد حدث من قبل أن وقع بعض ملوكهم وأمرائهم فى الأسر كما لقى بعضهم الهزائم العسكرية ؛ ولكن ما حدث فى حطين كان أخطر من ذلك بكثير .. فقد تم تدمير أكبر جيش صليبى أمكن جمعه منذ قيام الكيان الصليبى . كما أن المنتصر كان هو صلاح الدين الأيوبى صاحب السيادة على العالم الإسلامى بأسره ، وعندما قضى الجيش الإسلامى على الجيش الصليبى توجه صلاح الدين بجيشه لكى يستولى على الحصون والقلاع الصليبية .

وما حدث بعد حطين كان أشبه بنزهة عسكرية فقد سارعت المدن والقلاع الصليبية إلى الاستسلام إما لصلاح الدين شخصيا وإما لقادة جيوشه . اتجه صلاح الدين إلى مدن الساحل بقصد الاستيلاء عليها لمنع أية إمدادات أوربية قد تصل لنجدة الصليبيين فى فلسطين ولكى يؤمن مواصلاته البحرية مع مصر حتى يضمن وصول الإمدادات البشرية والغذائية من مصر لجيوشه العاملة على أرض فلسطين . ومن ثم اتجه صلاح الدين بكامل جيشه صوب عكا ولم يفكر حاكمها جوسلين فى شىء سوى سلامته الشخصية فأرسل أحد سكان المدينة لمقابلة صلاح الدين أمام أسوار المدينة وعرض تسليم المدينة مقابل تأمين أرواح سكانها وممتلكاتهم . وبقى صلاح الدين فى عكا بينما ذهبت ألوية من جيشه لإخضاع مدن الجليل ونابلس والضفة الغربية. وفى الوقت نفسه جاء العادل أخو صلاح الدين بجيش مصرى وفرض الحصار على يافا

ثم اقتحمها عنوه وأخذوا جميع سكانها أسرى وسبايا حرب [٢٨].

بعد ذلك تحرك الجيش الإسلامى بقيادة صلاح الدين إلى الساحل اللبنانى وكان معظم الناجين من معركة حطين قد فروا إلى مدينة صور التى كانت مدينة جيدة التحصين وكانت أسوارها تحميها جيدا من أية هجوم برى . وشن عليها صلاح الدين هجومه الأول ولكنه فشل فى الاستيلاء عليها فواصل سيره إلى صيدا التى أسلمت أبوابها للقائد الإسلامى فى ٢٩ يوليو من السنة نفسها (١١٨٧م) ؛ وحاولت بيروت أن تدافع عن نفسها ولكنها استسلمت فى السادس من أغسطس ثم استسلمت جبيل بعد ذلك بأيام قلائل ، وبنهاية شهر أغسطس لم يبق للصليبيين جنوب طرابلس سوى صور وعسقلان وغزة وبعض الحصون المتناثرة هنا وهناك فضلا عن مدينة بيت المقدس نفسها [٢٩].

وفى سبتمبر كانت قوات صلاح الدين تعسكر قبالة مدينة عسقلان ثم استطاع جيش المسلمين أن يقتحم المدينة ويهزم حاميتها فى الرابع من سبتمبر وسمح صلاح الدين لأهالى المدينة بالرحيل ومعهم ممتلكاتهم . واستسلمت غزة دونما قتال وفى اليوم الذى دخلت فيه قوات صلاح الدين إلى عسقلان وصله سفراء من أهالى مدينة بيت المقدس للتفاوض حول شروط استسلام القدس وفشلت المفاوضات لأن مندبى أهل المدينة رفضوا تسليم المدينة التى يعتقدون أن المسيح مات فيها ، فأقسم صلاح الدين أن يستولى عليها بالسيف [٣٠].

وكان سكان المدينة المقدسة قد ازدادوا بفضل أعداد اللاجئين الذين نجوا من المدن والقلاع الصليبية التى استولى عليها المسلمون ولكن عدداً قليلا من أولئك اللاجئين هم الذين يستطيعون القتال ، ويذكر رنسمان أنه فى مقابل كل رجل قادر على حمل السلاح ، كان هناك عدد من النساء والأطفال يصل إلى حوالى ٥٠ فردا . واضطر باليان الذى تولى القيادة على جيش بيت المقدس أن يجند كل صبى فوق السادسة عشر فارسا بشرط أن يكون من أبناء الطبقة النبيلة وأتمت الحامية الصليبية فى المدينة المقدسة استعداداتها للقاء جيش صلاح الدين[٣١].

وفى أواخر جمادى الثانية سنة ٥٨٣ هـ / سبتمبر ١١٨٧م اتجه صلاح الدين صوب القدس هدف المسلمين الأكبر فى الجهاد ضد الصليبيين ورمز النصر فى هذه المواجهة الطويلة المضنية وفى ٢٠ سبتمبر عسكر الجيش الإسلامى أمام المدينة وبدأت الفيالق الإسلامية تهاجم الحوائط

الشمالية والشمالية الغربية للمدينة ولكن المقاومة العنيفة وحرارة الشمس التى كانت فى عيون الجنود المسلمين جعلت الهجوم الذى استمر خمسة أيام يسفر عن لاشىء . ونقل صلاح الدين معسكره وظن المدافعون عن المدينة أن الجيش الإسلامى قد رفع الحصار عن المدينة المقدسة . ولكن صباح السادس والعشرين من سبتمبر أكد لهم أن أمانيهم قد ساقتهم بعيدا نحو الخيال ، فقد كان جيش صلاح الدين قد عسكر من جديد فوق جبل الزيتون الذى يطل على بيت المقدس.. وبدأ الهجوم الإسلامى . وحين أدرك الصليبيون عبث المقاومة ذهب قائدهم بنفسه إلى معسكر صلاح الدين يطلب تسليم المدينة ويسأل صلاح الدين عن شروطه (٣٢).

وكانت الشروط التى أملاها صلاح الدين كريمة تجسد أخلاقيات المقاتل المسلم ولم يرتكب المسلمون جريمة تشبه من قريب أو من بعيد تلك الجريمة البشعة التى ارتكبها الصليبيون حين استولت قواتهم على المدينة المقدسة فى نهاية أحداث الحملة الصليبية الأولى .. ساعتها أعمل الصليبيون سيوفهم فى رقاب المسلمين من العسكريين والمدنيين رغم شروط الأمان ولكن صلاح الدين يمنحهم الآن شروطا بلغت من الكرم غايته ومن النبل أقصاه . فقد كانت شروط تسليم بيت المقدس على النحو التالى :

(١) يدفع الصليبيون فدية عن أنفسهم (بمعدل عشرة دنانير للرجل ، وخمسة عن المرأة ، ودينارين عن الطفل) وعلى أن يتم الدفع فى خلال أربعين يوما وبعدها يحق للمسلمين أسر من لم يدفع الفدية .

(٢) سمح صلاح الدين للمسيحيين الشرقيين من أهل الشام واليونانيين بالبقاء ، كما سمح صلاح الدين للبطريرك أن يخرج من المدينة ومعه كل أمواله وذخائر الكنيسة ولم يدفع سوى عشرة دنانير فدية عن نفسه (٣٣).

(٣) لقد كانت المدينة وحاميتها الصليبية تحت رحمة صلاح الدين وكان بداخل المدينة أصدقاء مخلصين هم المسيحيون الشرقيون الذين كانوا يشكلون غالبية سكانها والذين كان الصليبيون يضطهدونهم ، ولو شاء صلاح الدين أن يقتحم المدينة ويخرب مبانيها ويقتل الصليبيين فيها لما منعه شىء . وقد اتصل صلاح الدين بالمسيحيين الشرقيين داخل بيت المقدس ووعدوه بأن يفتحوا له بوابات المدينة لأنهم كانوا يتوقون إلى التمتع بالحرية الدينية التى كفلها لهم الحكم الإسلامى (٣٤).

دخل صلاح الدين مدينة بيت المقدس فى السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ هـ/٢أكتوبر ١١٨٧م . ويقول ستيفن رنسمان أن المنتصرين كانوا إنسانيين وتصرفوا بطريقة سليمة، فبينما خاض الصليبيون فى دماء ضحايا غدرهم عندما استولوا على المدينة المقدسة قبل ثمان وثمانين سنة لم يجرح المسلمون حين استردوا بيت المقدس مدنيا واحدا ولم ينهبوا أى مبنى وأخذت الدوريات الإسلامية بأوامر صلاح الدين تطوف شوارع المدينة وترابط على أبوابها لمنع أى اعتداء على المسيحيين المدنيين (٣٥).

هكذا تحررت المدينة المقدسة من الأسر الصليبى بعد ثمانية وثمانين سنة وأقيمت الخطبة فى صلاة الجمعة بالمدينة بعدما منعها الصليبيون طوال تلك الفترة الطويلة الثقيلة . ثم أمر صلاح الدين باصلاح ما أفسده الصليبيون وما خربه الصراع الطويل . وبدأت الحياة الإسلامية تنتعش من جديد فى المدينة العائدة . فقد أنشأ صلاح الدين الأيوبى بعض المدارس فضلا عن البيمارستان (المستشفى) الذى بناه فى المدينة المقدسة (٣٦).

ولم يكن استرداد بيت المقدس هو نهاية المطاف فى المواجهة الإسلامية الصليبية فقد بدأت فلول الصليبيين تتجمع فى صور التى كانت قد اكتظت فعلا بسكانها ولم يسمح بدخول صور سوى لمن يقدر على القتال من الصليبيين أما بقية العزل الذين أطلق صلاح الدين سراحهم دون فدية فقد كان مصيرهم بائسا ، وهاجمهم أحد الكونتات الصليبيين المحليين وهو المدعو ريمون نيفين الذى سرقهم وجردهم من معظم مايملكون وساروا صوب طرابلس ... وهناك أيضا كانت أعداد اللاجئين السابقين قد ملأت المدينة وبدأت المدينة تعانى من نقص الأقوات مما دعى حكامها إلى اغلاق بواباتها فى وجه اللاجئين الصليبيين القادمين من القدس . وكان عليهم أن يواصلوا رحلة الشقاء والتعاسة إلى أنطاكية التى استقبلهم أهلها على مضض .. (٣٧)

وكانت هناك بعض مهام عسكرية أخرى تنتظر صلاح الدين ؛ إذ كانت هناك ماتزال بعض القلاع والمدن الصليبية التى يريد الاستيلاء عليها . وبدأ العادل أخو صلاح الدين بجيشه المصرى يفرض الحصار على حصن الكرك الذى طالما سبب المتاعب لقوافل التجارة الإسلامية وبدأت متاعب الحصار تفرض نفسها على الصليبيين فراسلوا العادل نائب السلطنة بمصر وانتهى الأمر بتسليم حصن الكرك فى نوفمبر سنة ١١٨٨م / شوال ٥٨٤هـ . وتحكى المصادر التاريخية أن بعض الصليبيين فى ذلك الحصن كانوا يبيعون نساءهم وأولادهم فى سبيل الحصول على بعض الطعام ، وكان استسلام الحصن بعد أن أكل الصليبيون بداخله كل فرس

كانت لديهم ثم استسلمت صفد فى ديسمبر من السنة نفسها ... (٣٨).

وفى تلك الأثناء كان جيش صلاح الدين الرئيسى يتحرك صوب طرابلس وأنطاكية . وأحرز بض الانتصارات الصغيرة ولكن الجيش الإسلامى كان قد ناله التعب والإرهاق وبدأ بعض المقاتلين يصرحون برغبتهم فى العودة لبلادهم فقد تجاوزت مدة بقائهم فى ميدان القتال السنوات الثلاث. وعندما توسل بوهيموند أمير أنطاكية لعقد هدنة مع صلاح الدين أعطاها له على مضض . فقد كان يشعر أنه يمكن أن يستأنف الجهاد ضد الصليبيين متى أراد ، ورحل صلاح الدين جنوبا يريد صور . ولكن الدفاع عن هذه المدينة كان قويا فآثر أن يتركها إلى حين (٣٩).

وهكذا لم يكن قد تبقى بأيدى الصليبيين فى بلاد الشام سوى صور وأنطاكية وطرابلس فى الشمال وبعض القلاع المتناثرة ، وبدا واضحا أن الساعة الأخيرة فى عمر المملكة الصليبية قد بدأت دقاتها . وجاء رد الفعل الأوربى ، فلم يكن ضياع القدس بالنسبة للغرب مجرد فقدان عاصمة ، وإنما كان خسارة لأكبر رمز محسوس للدين المسيحى وهو الضريح المقدس ، لقد صار قبر المسيح (كما يعتقدون) فى أيدى المسلمين مرة أخرى . ومن ثم انطلقت الدعوة إلى خروج صليبى جديد فى شتى أرجاء الغرب الأوربى وتزعم الدعوة إلى هذه الحملة الجديدة ملوك العالم المسيحى الغربى . وهكذا بدأ الغرب يجهز الحملة الصليبية المعروفة بالحملة الثالثة (٤٠).

فما كاد الصليبيون يخسرون معركة حطين حتى هرول الرسل صوب الغرب الأوربى لابلاغ حكامه نبأ الكارثة . ولحقهم بعد قليل رسل آخرون يحملون نبأ سقوط القدس فى أيدى المسلمين ، وكانت الأنباء السيئة صدمة نفسية مريرة للأوربيين فقد كان الفرسان والحجاج العائدين من الشرق يرون فى الكيان الصليبى مجتمعا أكثر رفاهية وازدهارا من مجتمع غرب أوربا ، وكانوا وهم فى الشرق يسمعون روايات عن التفوق العسكرى الصليبى ويرون بعيونهم مدى ازدهار التجارة ، ولذلك لم يكن بوسعهم أن يفهموا كيف يمكن أن ينهار مثل هذا المجتمع والآن وفجأة تجيئهم أنباء تقول أن هذا كله قد سقط ... (٤١).

أرسل البابا جريجورى الثامن رسائل إلى كافة الملوك والأمراء فى الغرب يحثهم على تكوين حملة صليبية جديدة لإنقاذ ماتبقى من الكيان الصليبى ووعد كل من يساهم فى هذه

الحملة بغفران كامل لخطاياه . ومات هذا البابا فى السابع عشر من ديسمبر سنة ١١٨٧م قبل أن يرى نتيجة عمله وترك للبابا كليمنت الثالث مهمة إكمال عمله ، وفى تلك الأثناء كان الملك الألمانى فردريك بربروسا وبرفقته كبير أساقفة صور الذى وصل إلى الغرب فى طلب النجدة يعبران جبال الألب للقاء ملك فرنسا وملك انجلترا (٤٢).

وأخيرا تم تكوين الحملة وتزعم الامبراطور الألمانى فردريك بربروسا قوات الألمان وهو فى السبعين من عمره كما قاد ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا القوات التى تألفت من الفرسان الأنجلو نورمان وفرسان أقطانية على حين كان فيليب أوغسطس ملك فرنسا يقود قوات الفرنجة ومعهم تحرك عدد كبير من أبرز نبلاء الغرب الأوربى ، وتم فرض ضريبة جديدة على رعايا الملكين الفرنسى والانجليزى عرفت باسم " عشور صلاح الدين " وهى عبارة عن ضريبة مقدارها ١٠٪ عن كل دخل أو ممتلكات منقولة يملكها أى من هؤلاء الرعايا (٤٣).

ومضى عامان قبل أن تصل قوات الحملة الصليبية الثالثة إلى أرض الشرق من عدة طرق مختلفة ؛ فقد سارت قوات الامبراطور الألمانى فردريك بربروسا عبر الطريق البرى الذى سارت عليه من قبل قوات الحملة الصليبية الأولى بمقتضى اتفاقات ومعاهدات عقدها الامبراطور المسن مع حكام المجر وبيزنطة وقد تكبدت هذه الحملة خسائر فادحة حين بدأت تعبر إلى آسيا الصغرى(٤٤).

وعندما وصل فردريك بقواته إلى الشاطىء الآسيوى للدردنيل سار فى نفس الطريق الذى سار فيه الاسكندر الأكبر قبل خمسة عشر قرنا من الزمان وبدأ الجوع والعطش وهجمات الأتراك السلاجقة تنال من الجيش الألمانى الكبير . وفى العاشر من يونيو سنة ١١٩٠م كان الجيش يستعد لعبور نهر كاليكادنس لدخول إحدى مدن آسيا الصغرى الهامة وركب الامبراطور مع حرسه باتجاه النهر . وما حدث بعد ذلك شيء غير مؤكد ، فقيل أنه أراد أن يسبح فى النهر لينعش نفسه فكان التيار أقوى منه بحيث جذبه بعيدا وأغرقه أو أن حصانه أوقعه فى النهر فغاص فيه بسبب ثقل دروعه المعدنية . وحين وصلت بقية جيشه إلى ضفة النهر كانت جثته تعلن عن نهاية الحملة الألمانية وانتشلها جنوده ومددوها على الشاطىء (٤٥).

كانت تلك خسارة فادحة لحقت بالجيش الصليبى قبل أن يصل إلى هدفه وتفرق الجيش

الألمانى الضخم وانتهى الأمر بالألمان بالمشاركة الرمزية فى الحملة الصليبية الثالثة . وهكذا تدهورت معنويات الألمان بحيث تعذر على دوق سوابيا الذى تولى القيادة بعد غرق الامبراطور المسن أن يصل بجيشه سالما إلى الأراضى المقدسة حيث تشتت شملهم لكثرة تعرضهم فى الطريق من أنطاكية إلى عكا لكثير من هجمات المسلمين وبخاصة من أهل حلب الذين أوقعوا بهم خسارة فادحة ، وأسروا عددا كبيرا منهم ، وبيعوا فى الأسواق بالثمن البخس على حد قول أحد المؤرخين المعاصرين (٤٦).

أما ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا وفيليب أغسطس ملك فرنسا فقد وصلا بقواتهما عن طريقين بحريين مختلفين وتقابلا فى صقلية حيث أمضيا سنة ١١٩٠ - ١١٩١م . وهناك تجدد الصراع بينهما حول الصراعات المحلية فى صقلية . ومع ذلك فقد أبحر الاثنان سنة ١١٩١م . ووصل فيليب أغسطس أولا بسبب انشغال ريتشارد قلب الأسد بالاستيلاء على قبرص من الحاكم البيزنطى وهو فى طريقه إلى عكا (٤٧).

وربما كانت السنتان ونصف السنة التى مضت قبل قدوم قوات الحملة الصليبية الثالثة كافية للقضاء على أية محاولة من جانب غرب أوربا للنيل من المسلمين أو لإنقاذ الصليبيين فى الشرق ، ولكن التطورات التاريخية شاءت أن تمتد قصة الحروب الصليبية عشرات أخرى من السنين فقد هرب أولئك الذين نجوا من سيف صلاح الدين إلى مدينة صور التى رحبت بالمقاتلين منهم فقط . وفى الوقت نفسه كان كونراد مونتفور قد هرب من القسطنطينية لأنه تورط فى جريمة قتل ونجا من الوقوع فى أسر المسلمين فى عكا بمعجزة . فلجأ إلى صور التى كانت هى المدينة الوحيدة الباقية بيدى الصليبيين وتمكن أن ينظم الدفاع عن المدينة التى كانت بلا قائد أو حامية وقاوم كونراد حصار صلاح الدين وتهديداته . وعندما فك صلاح الدين أسر جى لوزينان ملك بيت المقدس التعس توجه بقواته الهزيلة نحو صور يريد أن ينضم للصليبيين فيها ولكن كونراد رفض السماح له بدخولها فتحرك لوزينان بجيشه الصغير نحو سهل عكا وعسكر فى مواجهة المدينة التى كان المسلمون بقيادة صلاح الدين قد استولوا عليها .. وهكذا باتت صور وخليج عكا بمثابة رأس الجسر للحملة الصليبية الثالثة (٤٨).

وصل دوق سوابيا بشراذم الجيش الألمانى إلى الأرض المقدسة فى خريف سنة ١١٩٠م ، وبدأت الجيوش الصليبية تتزايد ثم وصل جيش فيليب أغسطس الفرنسى فى ربيع العام التالى

وبعدها بشهرين وصلت قوات ريتشارد قلب الأسد . وبدأت أحداث ومعارك الحملة الصليبية الثالثة التى استمرت على مدى عامين كانت عكا خلالها هى محور الصراع .. أو بعبارة أخرى غدت عكا الفرصة الأخيرة التى كان على الصليبيين استغلالها للدفاع عما تبقى من أشلاء ممتلكاتهم فى الشام (٤٩).

كانت عكا تقع على شبه جزيرة صغيرة داخل الخليج وكان البحر يحميها من الجنوب والغرب حيث تم بناء سور كبير يمنع الوصول إليها من البحر . وصوب الجنوب الشرقى كان حصن كبير للدفاع عن المدينة ولحماية الميناء . أما شمال المدينة وشرقها فكان يحميها سور هائل يتقابل فى زاوية قائمة مع برج كبير يسمى الملعون فى الركن الشمالى الشرقى من المدينة... وكان صلاح الدين قد زارها عدة مرات بعد أن استولت قواته عليها وأجرى بعض الاصلاحات والترميمات فى أسوارها وحصونها وأبراجها وكانت مدينة جيدة التحصين وبها حامية قوية ووفرة من الأقوات والمؤن بحيث يمكن أن تصمد مدة طويلة (٥٠).

وبدأ صلاح الدين ينتبه لخطورة الموقف مع توافد الجيوش الصليبية القادمة من غرب أوربا وأخذ يجمع قواته مرة أخرى وجاء هو بنفسه على رأس جيش كبير من بلاد الشام وحدثت معركة تمهيدية بين المسلمين والصليبيين أمام أسوار عكا وكان النصر حليفا للمسلمين ولكنه لم يكن نصرا كاملا . بسبب سرعة انتشار الوباء لكثرة جيف القتلى ، وأشار الأمراء على صلاح الدين بضرورة الابتعاد بقواته إلى الخروبة « فكان من قضاء الله أنا أغفلناهم وأجهلناهم بل أهملناهم .. ولما فرغوا من هذا الأمر اشتغلوا بالحصر ، واقطعت الطريق على المسلمين إلى عكا » (٥١).

وبدأت إمدادات جديدة تصل إلى الصليبيين من كل أنحاء أوربا وضيق الصليبيون الحصار حول عكا سواء من جهة البحر أو من ناحية البر . وحول الحصار الصليبى فرض صلاح الدين حصارا بجيوشه التى كان يعسكر بها فيما يشبه نصف الدائرة الضخمة . وعلى الرغم من جهود المسلمين للدخول إلى المدينة وبسالة القوات المدافعة عنها فان الضغط الصليبى كان أعنف من أن تتحمله حامية المدينة الإسلامية . وبدأت مفاوضات لتسليم المدينة وتم الاتفاق على مايلى:

١ - تسليم المدينة بما فيها من أسلحة ومعدات للصليبيين .

٢ - تدفع فدية مائتى ألف دينار للمسلمين بالمدينة .

٣ - أن يطلق سراح ألف وستمائة أسير من الفرسان الصليبيين .

٤ - أن يسترد الصليبيون الصليب المقدس .

٥ - يخرج المسلمون سالمين من المدينة .

وتم بالفعل تسليم المدينة فى ١٧ جمادى سنة ٥٨٧هـ / ١٢ يوليو ١١٩١م ثم حنث الفرنج بوعدهم . وفوجىء المسلمون بجثث الأسرى الذين ذبحهم الصليبيون وبدأ هجوم إسلامي جديد على المدينة التى كان الصليبيون بداخلها الآن (٥٢).

استمرت المعارك العنيفة وعاد فيليب أوغسطس إلى أوربا ليواصل دسائسه ضد الملك الانجليزى ريتشارد قلب الأسد الذى ظل عاما كاملا فى الشرق وأحرز بعض الانتصارات ضد صلاح الدين وذاق فيها مرارة الهزيمة والتقهقر . ووصل إلى منطقة قريبة من أسوار بيت المقدس ولكنه لم يستطع أن يسترد المدينة ذاتها (٥٣).

وعندما وصلت الأمور إلى هذا الحد بدأ المعسكران الإسلامى والصليبى يحسان بوطأة النفقات الباهظة للحرب من ناحية وانهاك الموارد البشرية والمالية من ناحية أخرى كما أن ريتشارد لم يتمكن من البقاء فى الأرض المقدسة تحت ضغوط الأخبار القادمة من انجلترا . كذلك كانت موارد صلاح الدين المالية والبشرية آخذة فى التدهور والضعف وتململت قواته من طول فترة الحرب . وكان هذا هو السبب الحقيقى فى توقيع صلح الرملة فى الثانى والعشرين من شعبان ٥٨٨ هـ / ٢ سبتمبر ١١٩٢م (٥٤). وكان صلح الرملة هو نهاية الحملة الصليبية الثالثة وأهم شروطه :

١ - أن يحتفظ الصليبيون بمنطقة الساحل من عكا إلى يافا .

٢ - أن يسمح للصليبيين بزيارة بيت المقدس .

٣ - تكون عسقلان وما يليها من أملاك صلاح الدين الأيوبى .

وهكذا ولدت مملكة بيت المقدس اللاتينية الثانية كقطاع ضيق من الأرض يلتصق بالساحل،

ويمتد من بيروت حتى يافا . أما القدس هدف الحملة الصليبية الثالثة فقد ظلت مدينة إسلامية. وبدأ ريتشارد يعد العدة للعودة إلى بلاده واكتشف أن جميع الطرق كان يسدها أعداؤه الأوربيون وعندما حاول الرجوع عن طريق ألمانيا قبض عليه وأودع السجن رهن فدية طلبها هنرى السادس ملك ألمانيا (٥٥).

لقد كان حصاد الحملة الصليبية الثالثة هزيلا بالقدر الذى خيب آمال الأوربيين والإفرنج المقيمين فى الشرق العربى جميعا وسرعان ماتحولت الآمال الكبار التى عقدت على هذه الحملة إلى يأس واتهامات حادة للزعماء الصليبيين . ذلك أن الفترة التى قضاها الأوربيون فى الإعداد لهذه الحملة ولمدة عامين لم تكن لتقارن بالإنجازات الهزيلة التى حققتها الحملة .

وعلى الجانب الإسلامى بقى صلاح الدين فى القدس شهورا قليلة اتجه صوب الشمال وعاد إلى دمشق حيث وافته المنية فى السابع والعشرين من صفر ٥٨٩ هـ / ٤ مارس ١١٩٣م . وبموته انتهت مرحلة وبدأت مرحلة جديدة فى الصراع ضد الكيان الصليبى .

كان بطل هذه المرحلة بلا منازع هو الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وعلى الرغم من أن كثيرين كتبوا عن صلاح الدين بشكل يجسد نظرية البطولة الفردية فى التاريخ فان اتجاه الدراسات التاريخية الحديثة تميل عامة إلى بحث نشأة البطل التاريخى فى ضوء الظروف التاريخية التى أفرزته ومعطيات العصر الذى ظهر فيه . وتقوم شهرة صلاح الدين الأساسية على انجازه العسكرى الرائع فى معركة حطين ١١٨٧م ثم استرداد بيت المقدس من الصليبيين(٥٦).

وربما تكون هذه النظرة إلى صلاح الدين ملائمة لعصر كان يبحث عن القائد الذى يقود الأمة نحو تحقيق النصر على أعدائها وربما تكون هذه النظرة متمشية أيضا مع رؤية المؤرخين الغربيين الذين جسدوا البطولة فى شخصيات زعمائهم الذين هاجموا الأرض العربية فى فلسطين والذين استولوا عليها أثناء الحملة الصليبية الأولى وبعدها . ولكن يبقى السؤال حول حقيقة دور صلاح الدين الأيوبى فى تاريخ العرب والمسلمين فهل كان رجلا خارقا لمستويات البشر وإمكانياتهم بحيث بعث الأمة الإسلامية من سباتها واستطاع أن يحقق النصر على الصليبيين بفضل مواهبه الفذة وحدها ؟

من نافلة القول أن نكرر أن الزعيم أو البطل لا يمكن أن ينجح فى أداء دوره التاريخى مالم تكن مواهبه وأخلاقياته مكرسة لخدمة أهداف أمته من ناحية ، ومالم يكن هو بكل مكوناته الأخلاقية والنفسية وقدراته ومواهبه تلبية لحاجات العصر . لقد نشأ صلاح الدين وترعرع فى ظل حاكم يسعى لتحقيق الوحدة الإسلامية لمواجهة الصليبيين ورأى كيف أن نور الدين محمود يكرس كل خططه السياسية والعسكرية لاتمام هذا الهدف . وكان الصراع بين المسلمين والصليبيين بمثابة المدرسة التى تلقى فيها صلاح الدين معلوماته السياسية الأولى عن حقائق هذا الصراع . ومن ناحية أخرى كان العالم الإسلامى الذى نشأ صلاح الدين فى رحابه يعيش حالة بعث أيديولوجى رائعة وينادى كل الناس بضرورة الجهاد ضد الصليبيين كما أن القضاء على الوجود الصليبى كان قد بات مطلبا شعبيا قويا بحيث لا يمكن لأى حاكم أن يتجاهل هذا المطلب ويبقى على عرشه (٥٧).

من هذه الزاوية يجب أن نقيم الدور التاريخى لصلاح الدين واضعين فى اعتبارنا أن صفاته وسجاياه الشخصية كانت رائعة بالقدر الذى جعل منه زعيما مثاليا للأمة الإسلامية . كما أن عبقريته السياسية والعسكرية كنت موجهة خدمة أهداف الأمة بشكل أساسى ، وفى تصورنا أن صلاح الدين الأيوبى نجح فى توحيد الجبهة الإسلامية بسبب عبقريته السياسية التى نضجت وتبلورت حينما شارك فى الصراع ضد الصليبيين على الأرض المصرية بحيث أدرك أهمية توحيد الجبهة على محاور الموصل - حلب - دمشق - القاهرة . أما سيده نور الدين محمود فلم يدرك أهمية وجود مصر داخل جبهة الصراع ضد الصليبيين سوى فى فترة متأخرة ، وربما لم يدرك هذه الأهمية على الإطلاق (٥٨).

ويقودنا هذا إلى المقارنة بين صلاح الدين ونور الدين على الرغم من تسليمنا بأن البناء الذى أقامه نور الدين هو البناء الذى أتمه صلاح الدين ولم يكن ممكنا لصلاح الدين أن يصل إلى ما وصل إليه لو لم يكن نور الدين ومن قبله عماد الدين زنكى قد مهدا الأرض وسبقاه بخطوات فى هذا السبيل . وعلى الرغم من أن مصادرنا التاريخية عن نور الدين لا تقارن بما لدينا عن صلاح الدين فمن المعروف أن نور الدين قد أسدى خدمة جليلة للمذهب السنى بفضل ما أقامه من معاهد دينية كالجوامع والمدارس والربط والزوايا التى خصصها للصوفية فضلا عن جهوده للقضاء على المذهب الشيعى . وكذلك جهوده العسكرية والسياسية التى بذلها للدفاع عن بلاد الشام ضد الصليبيين (٥٩).

بيد أن هناك من الفروق الأساسية بين الظروف التى قام فيها كل من نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبى بدوره التاريخى . فقد كانت نشأة الأسرة الزنكية على حساب التفكك السلجوقى العام . فمنذ تفككت سلطنة الأتراك السلاجقة قرب نهاية القرن الحادى عشر للميلاد بدأت روح من التمزق والفردية تتواجد فى المنطقة مع وجود ذلك العدد من الأسرات الحاكمة المحلية التى اقتسمت أملاك الأتراك السلاجقة . وأفرزت هذه الظروف التى تسودها المنافسة السياسية والصراع العسكرى مجموعة من المؤامرات وقصص الخيانة والغدر وتحالفات المصالح والاغتيال والخلع عن العرش مما جعل مهمة آل زنكى غاية فى الصعوبة على نحو ما رأينا فى الصفحات السابقة (٦٠).

ومن ناحية أخرى كانت جيوش نور الدين ذات تركيبة عسكرية خاصة ، فقد كان كل أمير يستند إلى قوة دائمة من الحرس الخاص وهم من المماليك الذين كانوا يعيشون على عائد ما يأخذونه من الاقطاعات من قائدهم المباشر الذى استأثر بولائهم الشخصى . ولما كان أولئك من الجنود المحترفين فقد كانت نفقاتهم باهظة وكان ولا هم للبلد الذى يتواجدون فيه منعدما وبسبب ارتفاع نفقات هذه الجيوش استشرت روح العدوان بقصد الاستيلاء على أملاك الغير بهدف زيادة أعداد الجيوش . ولما كان نور الدين ابنا لعماد الدين زنكى ، وهو جندى تركى محترف فانه حافظ على هذا النظام الذى اعتبر نفسه جزءا منه (٦١).

وإذا كان نور الدين قد أظهر مقدرة وكفاية كقائد عسكرى وسياسى تفوق على أقرانه الذين عايشوه فانه مع ذلك لم يخرج عن النظام السياسى والعسكرى القائم . أما صلاح الدين فقد بنى دولته على أساس من الوحدة الأخلاقية والأيديولوجية للعالم الإسلامى ، وكانت شخصية صلاح الدين تحمل من المناقب والسجايا والقدرات ما يؤهله لبناء هذه الدولة التى امتدت من كردستان وديار بكر حتى اليمن (٦٢). ولقد اصطدم كل من حاول أن يستغل مثالية صلاح الدين الأخلاقية بحقيقة أنه كان عازماً على تحقيق مثله الأعلى وهو الجهاد ضد الصليبيين ، وإذا كان صلاح الدين قد نجح فى تقليص الوجود الصليبى على أرض فلسطين واسترداد بيت المقدس فالراجح لدينا أن خطته كانت أوسع من ذلك كثيرا . لقد اتصف صلاح الدين بطموحه وإخلاصه لمبادئه ولكن طموحه لم يكن موجها لمجده الشخصى وإنما كان نابعا من بساطة أخلاقه وصفاء بصيرته . فقد كان يرى بوضوح أن ضعف الجسد الإسلامى هو الذى أفسح

المجال لقيام المستوطنات الصليبية ، كما أن استمرار هذه المستوطنات فى الوجود كان نتيجة للانحطاط فى الخلق السياسى لدى زعماء العالم الإسلامى ، وقد عبر عن ذلك أصدق تعبير فى رسالته الخالدة إلى الخليفة العباسى المستضىء بقوله : " ولو أن أمور الحرب تصلحها الشركة ، لما عز علينا أن يكون هناك كثير من المشاركين ، ولا أساءنا أن تكون الدنيا كثيرة المالكين ، وإنما أمور الحرب لا تحتمل فى التدبير إلا الوحدة ، فاذا صح التدبير ، لم يحتمل فى اللقاء إلا العدة " (٦٣). ولم يكن صلاح الدين مثل نور الدين محمود يعتبر نفسه جزءا من النظام القائم وإنما ثار على هذا النظام ولم يكن أمامه من سبيل سوى إعادة بناء الوحدة الإسلامية ، ليس تحت حكمه هو وإنما تحت حكم الشريعة فى ظل الخلافة العباسية وهذا هو مايفسر لنا حرصه على استرضاء الخلافة والحصول على تأييدها فى كل خطواته ، وهى حقيقة تؤكدها باستمرار رسائله إلى الخليفة العباسى فى بغداد مبشرا بكل ما يفتحه الله عليه من بلاد (٦٤).

ولكن مثالية صلاح الدين الأخلاقية لم تقف حائلا بينه وبين الخطوات العملية لتنفيذ خطته وتحقيق مثله الأعلى . فقد بدأ بتوطيد سلطانه فى مصر وأدرك أن الولاء السياسى الذى ينشده من أعوانه لابد وأن يدعمه ببعض الحوافز النفسية والأخلاقية كما تدعمه بعض الروادع المعنوية . فقد آثر أن يكون صادقا فى قوله وافيا بعهده سواء كان يتعامل مع الأصدقاء أو مع الأعداء . كانت الهدنة التى يعقدها مع أعدائه الصليبيين هدنة حقيقية بالنسبة له ولكنه من ناحية أخرى لم يكن يتسامح أبدا مع من ينقضون العهد ويخرقون الهدنة . ولم يكن ممكنا لصلاح الدين أن يواصل سياسته دون أن يحاول إعادة بناء النظام الأخلاقى فى الأمة ومن ثم استعان بالفقهاء الذين كانوا أساتذة المدارس وقادة الرأى العام آنذاك ، فأحبوه باعتباره تلبية لحاجة الشعب العربى إلى زعيم يتخذ من الجهاد وسيلة لتحقيق غاية يهدف الشعب إليها ، وقد عبر أحد فقهاء هذا العصر عن ذلك صراحة بقوله : " وكان الله قد أوقع محبته فى قلبى منذ رأيته وحبه للجهاد ، فأحببته لذلك وخدمته فى مستهل جمادى الأولى سنة أربع وثمانين... "(٦٥).

كما أنه حرص على إلغاء الرسوم والضرائب الظالمة فى كل مكان خضع لحكمه . فقد بلغ مقدار ما أسقطه عن أهل مصر وحدها فى السنة مائتى ألف دينار (٦٦).

وعلى الرغم من قصور النظام الإقطاعى العسكرى فان صلاح الدين استطاع أن يبقى جيوشه فى الميدان لمدة ثلاث سنوات للقتال ضد قوات الحملة الصليبية الثالثة . صحيح أنه ابتكر نظاما للتبادل بين الفرق المصرية والفرق العراقية بحيث يمكن أن يحصل الجنود على قدر من الراحة ولكن تبقى حقيقة أن هذه كانت المرة الأولى منذ قرون طويلة التى واجه فيها حاكم مسلم مشكلة تعبئة جيش فى حرب دائمة لمدة ثلاث سنوات (٦٧).

حين توفى صلاح الدين كان فى الرابعة والخمسين من عمره ولكن الصراع الطويل ضد الصليبيين كان قد أرهقه وأضناه ومن بين كل الشخصيات التى برزت فى عصر الحروب الصليبية بدت شخصية صلاح الدين هى الشخصية الأكثر جاذبية . كان مسلما مخلصا . وعلى العكس من كل الزعماء الصليبيين لم يحدث أن نقض صلاح الدين هدنة أو معاهدة وكان كريما عطوفا ونبيلا راقيا فى سلوكه . وعلى الرغم من أن المبشرين المسيحيين المتعصبين فى غرب أوربا كانوا يطلقون عليه لقب المسيح الدجال فان غالبية أعدائه لم يستطيعوا أن يمنعوا أنفسهم من الاعجاب به (٦٨) . كانت منجزاته عظيمة فقد استطاع أن يطرد الفرنج ويحصرهم فى شريط ضيق على ساحل بلاد الشام ... وكان يمكن أن يتم العمل الباقى فى مدة وجيزة ولكن مأساة التاريخ الإسلامى فى ذلك الحين أن العالم الرسلامى كان يفتقر إلى النظم الثابتة القوية والمستقرة . فقد كانت الخلافة قد انتهت فاعليتها منذ زمن ؛ وبقى التشرذم السياسى ولم يكن لصلاح الدين خليفة وجاء خلفاؤه من بعده بتنازعهم وصراعهم ، إخفاقا جديدا حتى قامت دولة المماليك لتوحيد العالم الإسلامى من جديد ..

... ويبقى أن نستعرض عصر خلفاء صلاح الدين .

حواشي الفصل الثاني

١ - ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٩٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ١١٩ - ١٤٢ .

٢ - ابن شـاهنشـاه الأيوبي : مـضـمـار الحقائق ، ص ٩٦ - ١٠٦ ؛ ابن واصل : نفسـه ، جـ ٢ ، ص ١٢٣-١٣٦ ؛

Baldwin : Crusades I , Philadelphia , 1935 , pp . 574 - 577 .

٣ - ابن شاهنشاه : نفسه ، ص ٢٤ - ٢٩ ؛ ابن واصل : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٥٨ - ٦٣ .

٤ - ابن جبير : الرحلة ، دار صادر بيروت ١٩٦٤ ؛ ص ٣٤ - ٣٥ ؛ ابن شاهنشاه : نفسه ، ص ١٨٨ . ص ١٨٩ - ٢٢٢ ؛ ابن واصل : نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٣٩ .

٥ - ابن شاهنشاه : نفسه ، ص ٢١٢ - ٢٢٥ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ١٧٢

Wiet , G:L'Egypte Arabe , Paris 1937 , p . 320 ;

٦ - Grousset : Hist . des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem , Paris 1943 , Tome 11 , p . 743 .

٧ - William of Tyre : op . cit . vol . II , pp . 925 - 926 ; Richard : Le Royaume Latin de Jerusalem Paris 1933 , pp . 65 - 66 .

٨ - Runciman : Op . cit . vol . II , p . 437 .

٩ - أبو شامة : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٢٦ - ٣٥ ؛ ابن واصل : نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٢٧ - ١٣٠ ؛ المقريزي : نفسه ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٧٩ .

١٠ - Grousset . Op . cit . Tome II , p . 116 ; King : The Kinghts Haspitall ers in the Holy Land , Landon 1931 , p . 111;

أبو شامة : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٧٥

١١ - Runciman : Op . cit . vol . II , p . 440 - 441 .

١٢ - ابن شاهنشاه : نفسه ، ص ٩٣ - ٩٥ ؛ أبو شامة : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٥٦ ؛ ابن واصل : نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٥١

William of Tyre : op . cit . vol . 11 , pp . 925 - 926. ;

١٣ - Runciman : Op . cit . vol . 11 , p . 440 - 450 .

١٤ - William of Tyre : op . cit . vol . II , pp . 927 - 930 ; Grousset : Op . cit . Tome II , pp . 765 - 768 .

١٥ - أبو شامة : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٧٤ - ٧٥ ؛ ابن واصل : نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٨٥

Grousset : Op . cit . Ii , p . 703 .

١٦ - أبو شامة : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٧٥ ؛ ابن واصل : نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٩٤

Grousset : Op . cit . , II , p . 703 ; Runciman : Op . cit . , II , p . 450 ; Baldwin ; Crusades I , Phildelphia , 1955 , pp . 585 - 606 . ؛

١٧ - Grousset : Op . cit . , II , p . 778 ; King : Op . cit . pp . 118 - 119 .

١٨ - ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ١٠ ، ص ٣٢٤ ؛ أبو شامة : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٧٦ ؛ ابن واصل : نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٨٧

Grousset : Op . cit . , II , p . 782 ؛

١٩ - ابن شداد : نفسه ، ص ١٢٠ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٩٣

Runciman : Op . cit . , II , p . 443 . ؛

٢٠ - ابن واصل : نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٨٧ - ١٨٨

Baldwin : Op . cit . p . 585 ; Runciman : Op . cit . , II , p . 455 . ؛

٢١ - Baldwin : Op . cit . p . 610 .

٢٢ - ابن واصل : نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٩٠

Ibid : p 611 ؛

٢٣ - ابن واصل : نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٩٠

Ibid : pp . 613 - 614 . ؛

٢٤ - أبو شامة : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٧٧ ؛ ابن واصل : نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٩٢

Ibid: p 614 . ؛

٢٥ - عماد الدين الكاتب « ت ٥٩٧ هـ » : الفتح القسى فى الفتح القدسى ، القاهرة ، ١٣٢٢ هـ، ص ٢٣ ؛ ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٢٤ ؛ أبو شامة : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٧٩ .

٢٦ - عماد الدين الكاتب : نفسه ، ص ٢٣ ؛ ابن واصل : نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٩٤ - ١٩٥ .

٢٧ - أبو شامة : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٨٧ ؛ ابن واصل : نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٩٣ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٧٨٠ .

٢٨ - Stevenson : The Crusaders in The East , Cambridge , 1907 , p . 2949 . , Grousset : Op . cit . , II , p . 802 ; Runicman : Op . cit . , II . pp . 460 - 461 .

٢٩ - عماد الدين الكاتب : الفتح القسى ، ص ٣٥ ؛ ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٢٦ ؛ ابن واصل : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٠٢ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ق ١٠ ، ص ١٩٥ .

٣٠ - ابن واصل : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٠٩ - ٢١١

Grousset : Op . cit . , II , p . 809 . ؛

٣١ - Runicman : Op . cit . , II , p . 494 .

٣٢ - عماد الدين الكاتب : نفسه ، ص ٤٦ ؛ أبو شامة : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٩٧ ؛ ابن واصل : نفسه ، جـ ٢ ، ٢١٤ .

٣٣ - ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٢٩ .

٣٤ - ابن الأثير : الكامل ، جـ ١١ ، ص ٥٥٢ - ٥٥٣ ؛ Grousset : Op . cit . , II , pp . 811 - 812 .

٣٥ - Runciman : Op . cit . III , pp . 61 - 62 ; Baldwin : Op . cit . pp . 619 - 621 .

٣٦ - ابن شداد : نفسه ، ص ١٢٩ ؛ ابن واصل : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢١٧ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ٩٧ - ٩٨ .

٣٧ - Grousset : Op . cit . , II , pp . 818 - 819 .

٣٨ - أبو شامة : نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٣٤ ؛ Stevenson : Op . cit . p . 251

٣٩ - عماد الدين الكاتب : الفتح القسى ، ص ١٢٩ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ٢٧٠ .

٤٠ - Grousset : Op . cit . , 11 , pp . 834 - 836 .

٤١ - Michaud : Hist . des Croisades , Paris , 1817 , Tome 11 , pp . 314 - 315 ; Grousset : Op . cit . , 111 , p. 6 .

٤٢ - ابن واصل : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٨٨ ؛ Grousset : Op . cit . , III , pp . 8 - 9 . Archer (T) : The Crusades , London 1894 , pp . 306 - 307 ; Setton : AHistory of The Crusades , Pensylvania 1958 , Vol . 2 , . pp . 113 - 114 ; Grousset : Op . cit . , III , p . 41 .

٤٣ - سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ١٢١١ ؛ Camb . Med . Hit . , Cambridge 1957 , p . 324 .

٤٤ - ابن شداد : نفسه ، ص ١٩٩ ؛ Grousset : Op . cit . III , p . 16 .

٤٥ - أبو شامة : نفسه ، جـ ٢ . ١٥٥ ؛ Ibid : , III pp . 15 - 16 .

٤٦ - أبو شامة : نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٥٦ ؛ ابن واصل : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٣٢٢ - ٣٢٣ .

٤٧ - Grousset : Op . cit . , III , pp . 17 - 18 .

٤٨ - أبو شامة : نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٤١ ؛ ابن واصل : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٨٩ ؛ Stevenson : Op . cit . pp . 254- 255 ; Michaud : Op . cit . , 11 ., pp 436 - 357 .

٤٩ - Grousset : Op . cit . , II , p . 18 ; Wiet : op . cit . , p . 327 .

٥٠ - Wiet : Op . cit . p . 328 ; Archer : Op . cit . pp . 316 - 317

٥١ - أبو شامة : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٤٧ .

٥٢ - عماد الدين الكاب : الفتح القسى ، ص ٢٨١ ؛ ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٧٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ، ص ٣٥٩ - ٣٦٠ .

٥٣ - أبو شامة : الروضتين ، حـ ٢ ، ص ١٩٢

؛ Grousset : Op . cit . , III , p . 52 ; Archer : Op . cit . pp . 336 - 337 .

٥٤ - عماد الدين الكاتب : الفتح القسى ، ص ٣٤٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ، ص ٣٩٩

؛ King : Op . cit . pp . 155 - 156 .

٥٥ - ابن واصل : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٤٠٣

؛ Grousset : Op . cit . , III , pp . 73 - 74 .

٥٦ - ابن قاضى شهبة « بدر الدين محمد ت ٨٧٤ هـ » : الكواكب الدرية فى السيرة النورية ، تحقيق د. محمود زايد ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ١٨١ ؛ هاملتون جب : نفسه ، ص ١٧٩ - ١٨٤ .

٥٧ - ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٧ - ١٠ ؛ هاملتون جب : نفسه ، ص ١٩٥ .

٥٨ - أبو شامة : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٤٣ - ٤٤ ؛ البندارى : سنا البرق الشامى ، ص ٣٥٧ - ٣٥٨ ، هاملتون جب : نفسه ، ص ١٩٦ .

٥٩ - ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ١١٨ ؛ هاملتون جب : نفسه ، ص ١٨٤ - ١٨٥ .

٦٠ - ابن قاضى شهبة : نفسه ، ص ٩٨ - ١٠٩ ؛ هاملتون جب : نفسه ، ص ١٨٥ .

٦١ - عماد الدين الكاتب : نفسه ، ص ٣٩٢ - ٣٩٣ ؛ ابن شداد : نفسه ، ص ٢٠٠ - ٢٢١ ؛ ابن قاضى شهبة : نفسه ، ص ١٢٢ ؛ هاملتون جب : نفسه ، ص ١٨٦ - ١٨٧ .

٦٢ - أبو شامة : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٤٨ .

٦٣ - هاملتون جب : نفسه ، ص ١٨٧ - ١٩٢

: Baldwin : Op . cit . p . 577 .

٦٤ - أبو شامة : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٤٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ١٥٩ ؛ جـ ٢ ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .

٦٥ - ابن الأثير : الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٤١ ؛ أبو شامة : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٣٤ ؛ ابن شداد : نفسه ، ص ٨٧ ؛ هاملتون جب : نفسه ، ص ١٩٥ .

٦٦ - أبو شامة : نفسه ، جـ ٢ ، جـ ٢ ، ص ١٧٧ ؛ ابن قاضى شهبة : نفسه ، ص ٢١٥ ؛ هاملتون جب : نفسه ، ص ١٩٩ .

٦٧ – عماد الدين الكاتب : الفتح القسي ، ص ١٦٠ ؛ ابن شداد : نفسه ، ص ٢٠٥ – ٢١٥ ؛ أبو شامة : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٨١

Grousset : Op . cit . , 111 , p. 71 . ؛

Ibid : II, pp . 119 - 230 ; Setton : Op . cit , 11 , p . 85 : Stevenson : Op . cit . p . – ٦٨
254 .

الفصل الثالث

الأيوبيون

انهيار دولة صلاح الدين وتقسيمها – العادل الأيوبى – تطورات الصراع ضد الصليبيين – الحملة الصليبية الخامسة – أيام الأيوبيين الأخيرة – الحملة الصليبية السابعة وظهور قوة المماليك – بداية النهاية .

بوفاة صلاح الدين الأيوبى توارت عن ناظرى التاريخ شخصية ظلت ملء العين والقلب وموضوع الإعجاب والهيبة من جميع المعاصرين ؛ أعداء كانوا أم أصدقاء . وحين توارى صلاح الدين فى ذمة التاريخ كانت الظروف التى أفرزته مازالت قائمة ، وكانت حاجة أمته إلى مواهبة ماتزال ملحة . فالصليبيون ما يزالون موجودين على الأرض العربية ، وخطر قدوم حملات صليبية جديدة ما يزال ماثلا ، والإحياء الأخلاقى الذى بدأه صلاح بمساعدة الفقهاء كانت قطوفة وثماره ماتزال بعيدة ، وجاء خلفاء صلاح الدين على غير شاكلته وفى مستوى أدنى كثيرا من مستواه (١).

ولا يستطيع باحث فى تاريخ هذه الفترة إلا أن يكتشف أن وفاة صلاح الدين قد أحدثت فراغا سياسيا كبيرا فى المنطقة . فقد أدت وفاة هذا القائد إلى تفسخ دولته فى الحال . إذ كانت شخصيته ومواهبه وممارسته السياسية والعسكرية هى التى تحفظ الدولة من التفكك ، ولم يكن هناك مبدأ ثابت لتوارث العرش بحيث ينجم عنه استقرار أو تناسق داخلى يشد أركان هذه الدولة الشاسعة إلى بعضها . وسرعان ما جرى على هذه الدولة ما جرى على امبراطوريات كثيرة غيرها فى العصور الوسطى ، إذ قسم صلاح الدين دولته الشاسعة بين أبنائه وإخوته وبنى عمومته وأبنائهم ، وكان نتاج هذا التقسيم مريرا ، تمثل فى عدد من المشاحنات والمنازعات والحروب الداخلية وعادت المنطقة العربية تعانى من جديد مرارة النزاع والتشرذم السياسى (٢).

فقد تولى الملك الأفضل نور الدين أكبر أبناء صلاح الدين حكم دمشق والساحل وبيت

المقدس وبعلبك وصرخد ، وبصرى ، وبانياس وتبنين ، حتى الداروم جنوبا بالقرب من الحدود المصرية . أما حكم مصر نفسها فكان من نصيب الإبن الثانى لصلاح الدين الأيوبى وهو العزيز عثمان . أما ابنه الثالث " الملك الظاهر غياث الدين غازى " فقد كان نصيبه حكم حلب والمناطق المتاخمة لها . كذلك نال إخوة صلاح الدين نصيبهم من تركة السلطان الراحل ، فقد تولى أخوه سيف الإسلام طغتكين بن أيوب حكم بلاد اليمن . واحتفظ أخوه العادل سيف الدين أبو بكر بالكرك والشوبك (فى الأردن الحالية) وبعض مناطق أعالى العراق (٣) .

هذه الاقطاعات التى نالها العادل سيف الدين لم تكن تتناسب أبدا مع مواهب هذا الرجل ومهارته العسكرية والدبلوماسية ، وعلى الرغم من ذلك فانه لم يشأ أن يشارك فى الصراع الذى ما لبث أن نشب بين خلفاء صلاح الدين حول العرش والسلطة ، ولكنه اختار لنفسه دور الوساطة بين بنى أخيه المتنازعين . وقد ظهر العادل من خلال الدور الذى اختاره فى صورة الزعيم الأيوبى الحريص على وحدة الدولة الأيوبية بأقاليمها المختلفة تحت راية سياسية موحدة(٤).

وقد كانت وفاة صلاح الدين كما أسلفنا القول سببا فى انهيار وحدة مملكته التى فرضها بشخصيته وسلطانه ، وكانت النتيجة المباشرة لهذا التفكك السياسى أن أصبحت كل الولايات تقريبا إمارات منفصلة ومستقلة . وهكذا عادت الفوضى السياسية والتشرذم السياسى يفرض نفسه من جديد على بلاد الشام بسبب المنازعات بين هذه الإمارات المنفصلة المستقلة التى يحكمها خلفاء صلاح الدين من بنيه وإخوته . ولكن وجود العادل استطاع أن يقضى على هذه الفوضى حينما استطاع فى غضون ست سنوات أن يوسع رقعة سلطانه ويوطد دعائم نفوذه فى مصر والشام ، فقد استطاع أن يقصى كل الملوك الأيوبيين عن عروشهم فيما عدا الملك الغازى الذى كان حاكما على حلب (٥).

ولكن الحكم الأيوبى ما لبث أن استقر من جديد فى بلاد الشام . وتجلت مظاهر هذا الاستقرار من خلال النمو السريع فى الإمكانيات المادية لكل من مصر والشام . كما نشطت حركة الثقافة وازدهرت ازدهارا كبيرا سواء فى المجالات الأدبية أو الفنية أو الفكرية ، فقد انتهج الأيوبيون فى مصر والشام سياسة مستنيرة فى تشجيع الزراعة والاهتمام بتطويرها وزيادة الإنتاج الزراعى . كما اتبعوا سياسة عاقلة من حيث رعاية التجارة والتجار كما وجهوا

اهتمامهم لرعاية وتشجيع العلاقات التجارية مع جمهوريات المدن الإيطالية مثل بيزا وجنوة والبندقية (٦).

وكانت النتيجة الطبيعية لهذه السياسة السلمية أن انتهج الأيوبيون سياسة المهادنة تجاه المستوطنات الصليبية على أرض الشام لدرجة أن الأيوبيين لم يبادروا بشن الهجوم تجاه الصليبيين طوال الفترة التى تولوا فيها حكم الشام ومصر تقريبا (٧).

ولعل من عوامل الاستقرار والنمو النسبى الذى شهده العصر الأيوبى هو أن كل جيل من أجيال الأيوبيين كان ينجب شخصية رئيسية تتولى قيادة البيت الأيوبى ، بل وتفرض على صغار الأمراء والملوك الأيوبيين سلطتها ، مما زاد من فرصة الاستقرار والازدهار ، وفى الجيل الذى أعقب وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبى كان العادل سيف الدين أبو بكر ، الذى كان بمثابة المستشار الرئيسى لصلاح الدين أثناء حياته والذى كان بمثابة ساعده الأيمن فى الشئون السياسية والعسكرية ، هذا الرجل القوى ، بكل خبراته ونفوذه ومعلوماته الوافرة عن الأحوال الداخلية للولايات الأيوبية كان يواجه أبناء أخيه صلاح الدين الذين كانوا شبانا صغار السن قليلى الخبرة (٨).

وإذا كان العادل سيف الدين قد استطاع فى غضون ست سنوات فقط أن يبسط نفوذه على معظم الأراضى التى كانت تضمها مملكة صلاح الدين ، فانه لم يكن يحب استخدام القوة العسكرية لتنفيذ أغراضه ، وإنما كان يفضل استخدام سلاح الدبلوماسية والمكيدة . وقد أتاحت له المنافسات بين أبناء صلاح الدين أن يستخدم هذا السلاح باقتدار عظيم ، فقد كان الأفضل حاكم دمشق يعتبر أكبر الملوك من بنى أيوب لأنه أكبر إخوته ، ولكن سياسته الفاشلة وسوء حكمه جعل أخاه العزيز حاكم مصر يخرج على رأس جيشه لمحاربته ، فانضم العادل إلى ابن أخيه الأفضل ، وهنا أدرك العزيز أنه لن يستطيع تحقيق مآربه ، فطلب أن يجتمع بعمه العادل للتفاوض وقال له العادل : " لا تخرب البيت وتدخل عليه الآفة والعدو ورانا من كل جانب فقد أخذوا جبلة فارجع إلى مصر واحتفظ بملك أبيك " ثم طلب منه العادل أن يصالح أخاه فوافق (٩).

هذا الموقف يكشف عن حقيقة الرؤية الوحدوية للعادل سيف الدين كما يكشف من ناحية

أخرى عن القصور السياسى الذى كان يوصم به أبناء صلاح الدين . وقد رأى العادل أن من الخير أن يتولى هو زمام الأمور بنفسه عندما كشفت تطورات الأمور فيما بعد عن ضرورة ذلك فقد عاد الملك العزيز إلى مصر وعاد الملك الأفضل إلى دمشق وعاد إلى سابق سيرته من اللهو وشرب الخمر والانصراف عن مصالح الرعية وفوض أمر مملكته إلى وزيره ابن الأثير وأطلقت عليه الرعية اسم " الملك النوام " . ولكن تطورا خطيراً طرأ على شخصية هذا الملك العابث حينما بدأ يعيش حياة زاهدة فقد أقلع عن اللهو والخمر وبدأ يرتدى الثياب الخشنة وينقطع للصوم والعبادة (١٠).

وتجدد النزاع بين الأفضل صاحب دمشق والعزيز صاحب مصر حول السلطة ، فقد أراد العزيز أن تكون له السلطة العليا على المملكة وأن تكون الخطبة والسكة باسمه وانزعج الأفضل من الأخبار التى وردت بقدوم الجيش المصرى تحت قيادة العزيز ، وسارع يستنجد بعمه . واستخدم العادل سلاحه الأثير ، أى المكيدة والدسائس لإضعاف جيش العزيز الذى كان يضم طوائف من الجنود الصلاحية (أى جنود صلاح الدين الأيوبى) والجنود الأسدية (أى جنود أسد الدين شيركوه) . ونجح العادل فى الإيقاع بين فرق الجيش المختلفة (١١).

وتطور الأمر بحيث أن بعض فرق الجيش أرادت انتزاع حكم مصر من الملك العزيز ، وبعثوا يطلبون من العادل سيف الدين أن يساعدهم فى ذلك . وصادف هذا العرض هوى فى نفس العادل . وعندما كان النصر قريبا من جيش العادل والأفضل آثر العادل أن يرفع الحصار عن مدينة بلبيس التى كانت الجيوش المتحالفة قد حاصرتها فى الطريق إلى القاهرة ؛ وتم عقد الصلح وعاد الملك الأفضل إلى دمشق ، أما الملك العادل فقد آثر أن يبقى فى القاهرة بجوار ابن أخيه العزيز . وهكذا أقام العادل سيف الدين فى مصر بجوار العزيز ولكنه لم يكن ضيفا وإنما أخذ يتصرف كحاكم وانتهز العادل سيف الدين فرصة وجوده فى مصر لكى يتدخل فى شئونها " ... فأمر ونهى ، وحكم ، وتصرف فى كبير الأمور وحقيرها ... " والحقيقة أن تدخله فى شئونها على هذا النحو قد أفاد كثيرا فقد ازدهرت أحوالها الاقتصادية وانتعشت(١٢) .

ثم حدث أن تطورت الأمور بحيث خرج العادل مع ابن أخيه العزيز على رأس جيش كبير بهدف الاستيلاء على دمشق وبدأ الأفضل يستعد للقتال وأخذ فى تحصين دمشق استعداداً

للقاء الجيش المصرى . ولكن العادل راسل بعض أمراء دمشق وكبارها لمساعدته بفتح أبواب المدينة بدلا من القتال وسفك الدماء . وفى ٢٦ رجب ٥٩٢ هـ / ١١٩٥م دخل العادل والعزيز دمشق ، واستسلمت لهما قلعتها دون مقاومة من الأفضل ، وسقطت المدينة فى أيدى قوات العادل والعزيز وكان حكم دمشق من نصيب العادل ، وهكذا حقق أولى خطواته الكبرى فى سبيل إعادة توحيد مملكة صلاح الدين تحت حكمه (١٣).

أدرك العزيز متأخرا غلطته الكبرى حين تحالف مع عمه ضد أخيه . فبعد أن تولى العادل حكم دمشق ازدادت قامته السياسية والعسكرية طولا . ثم شاءت التطورات التاريخية أن يلقى العزيز مصرعه أثناء رحلة صيد فى الفيوم فى ٢٦ رجب ٥٩٥ هـ / ١١٩٨م . وكان الملك العزيز قد أوصى بحكم مصر من بعده لابنه الملك المنصور محمد . ولكن الأفضل دخل مصر ، وأراد أن يستولى على مقاليد الأمور بها . وبعد أن دخل القاهرة فى ربيع الأول سنة ٥٩٥ هـ / يناير ١١٩٩م أرسل إلى عمه الملك العادل طالبا منه الرأى والمشورة بشأن حكم مصر ، ولكن رد العادل جاء حاسماً حين قال له " إن الملك العزيز إن كان قد مات من غير وصية فليكتب الأعيان خطوطهم بذلك وشهادتهم له ، حتى يرى رأيه ، وإن كان قد مات عن وصية فلا يعدل عنها ، ولاينبغى له التعرض إلى ديار مصر ... " كانت كلمات رسالة العادل تحمل إلى الأفضل إنذاراً واضحا بعدم التدخل فى شئون مصر أو محاولة الاستيلاء عليها (١٤).

تأزمت الأمور بين العادل وابن أخيه الأفضل حين اختار الأخير طريق الحرب ، وقد تمكن بمساعدة أخيه الظاهر الغازى ملك حلب من فرض الحصار على دمشق . ولكن قدوم قوات الكامل ابن الملك العادل جاء نجدة لأبيه . وتقهقرت قوات الأفضل إلى مصر أمام ضغط قوات العادل . وأرسل العادل إلى ابن أخيه الأفضل رسالة يقول فيها :

" أنا لا أحب أن أكسر ناموس القاهرة ، لأنها أعظم معاقل الإسلام ، ولا تحوجنى إلى أخذها بالسيف ، وأذهب أنت إلى صرخد ، وأنت آمن على نفسك " . وبالفعل أعلن الأفضل استسلامه وعاد إلى إقطاعه فى صرخد (١٥).

دخل الملك العادل مدينة القاهرة فى فبراير سنة ١٢٠٠م / ربيع الآخر سنة ٥٩٦ هـ . وبعد

قليل أعلن أنه من غير المعقول أن يظل أتابكا (وصيا) على الملك الطفل المنصور بن العزيز بن صلاح الدين الأيوبى ، وأمام جماعة من الأمراء والفقهاء قال الملك العادل فى صراحة : "أنه قبيح بى أن أكون أتابكا لصبى مع الشيخوخة مع أن الملك ليس هو بالميراث ، وإنما هو لمن غلب " (١٦)... هكذا حدد الملك العادل مبدأ هاما من مبادىء الحكم . حقيقة أن هذا المبدأ لم يكن هو المبدأ السائد زمن الأيوبيين ، ولكنه كان هو المبدأ الأساسى الذى شكل النظرية السياسية لعصر سلاطين المماليك الذين ورثوا الأيوبيين .

هكذا وصل الملك العادل إلى عرش السلطنة . ونودى به رسميا سلطانا على مصر وبلاد الشام ، واعترف به الجميع ما عدا الملك الظاهر الغازى صاحب حلب الذى انضم إليه الأفضل فى محاولة أخيرة لتبيث حكم أبناء صلاح الدين الأيوبى . وتم نسج خيوط مؤامرة تهدف إلى استغلال التدهور الاقتصادى الناجم عن انخفاض مياه الفيضان سنة ٥٩٦ هـ ، وما ترتب عليها من شدة الغلاء وارتفاع الأسعار " وضعف قوة الجند " .

وكانت الاتجاهات الأساسية لهذه المؤامرة تقوم على أساس حصار دمشق ، فاذا ما خرج العادل بجيوشه لنجدتها ، يقوم الأمراء الموالون لأبناء صلاح الدين والمقيمون فى مصر بالاستيلاء عليها (١٧).

ولكن العادل نجح مرة أخرى فى تفكيك عرى التحالف حين استخدم سلاحه المفضل ونجحت دسائسه ضد الحلف المعادى . وبعد معارك هنا وهناك استطاع الملك العادل محمد أن يوطد دعائم حكمه الذى استمر ثمانية عشر عاما (١٢٠٠ - ١٢١٨) وفى السنة التى تولى فيها العادل منصب السلطنة الأيوبية العظمى بالقاهرة ، أى سنة ٥٩٦هـ / ١٢٠٠م كانت فكرة الاستيلاء على بيت المقدس من الأيوبيين ماتزال تشغل بال الأوربيين . وذلك أن استرداد صلاح الدين الأيوبى للمدينة المقدسة خلق شعورا بالدهشة والمرارة فى الغرب الأوربى فى وقت كانت الفكرة الصليبية فيه ماتزال حية نابضة . وحين رأى الصليبيون أن الوحدة التى بناها صلاح الدين الأيوبى قد تفككت بعد وفاته ، عادت فكرة الاستيلاء على بيت المقدس تفرض نفسها من جديد على مجرى الأحداث . وحين رأووا الملك العادل يفرض الوحدة على البيت الأيوبى أدركوا أن ذلك سوف يعود بهم إلى أيام صلاح الدين الأيوبى . وأدركوا أيضا أن مصر سوف تغدو مركز التموين المادى والروحى كما كانت أيام صلاح الدين . وقد أدى هذا

إلى أن الصليبيين رأوا أن الاستيلاء على مصر هو الخطوة المنطقية لضمان وجودهم فى بلاد الشام . ولقد بات الاستيلاء على مصر ، بكل مواردها البشرية والمادية والروحية قضية منطقية ، وضرورة حربية ، لضمان الاستيلاء على ما استرده صلاح الدين من أراضى مملكة بيت المقدس . وهكذا أخذ البابا إنوسنت الثالث على عاتقه مهمة الدعوة إلى حملة صليبية جديدة يكون هدفها مصر . كان هذا البابا قد اعتلى العرش البابوى منذ فترة وجيزة . وكان تواقا إلى تأسيس سلطة دينية قوية ، ولكنه فى الوقت نفسه كان ذكيا ، بعيد النظر صافى الذهن ، فقد كان قبل بابويته رجل قانون يحب أن يوفر الأسس القانونية لمشروعاته كما كان سياسيا على استعداد لأن يستخدم أية وسيلة ممكنة للوصول إلى هدفه (١٨).

كان الموقف فى الشرق يزعج البابا إنوسنت الثالث كثيرا ، ولذا فانه أعلن علانية أنه يريد خروج حملة صليبية جديدة لتصحيح الأوضاع الناجمة عن انتصارات صلاح الدين الأيوبى على الصليبيين ، وفى سنة ١١٩٩م كتب رسالة إلى بطريرك بيت المقدس يطلب منه تقريرا وافيا عن حالة المملكة الفرنجية فى الشرق . ثم بدأت الاستعدادات للحملة الصليبية ضد مصر . ولكن ظهرت مشكلة نقل قوات وعتاد الحملة إلى الشرق العربى وبدأت المفاوضات مع مدينة البندقية ، التى كانت تملك أسطولا بحريا من أقوى أساطيل ذلك الزمان ، لكى تقوم سفنها بنقل الجنود الصليبيين ... وأخيرا بدأت أحداث الحملة الصليبية الرابعة (١٩).

كانت أحداث هذه الحملة مزجا بين المأساة والملهاة ... فقد نجحت هذه الحملة التى قامت سنة ١٢٠٤م ، ولكن نجاحها كان على حساب بيزنطة لاضد العالم الإسلامى ، فقد كان الهدف المباشر لهذه الحملة هو مصر . وفى سنة ١٢٠١ توجهت مختلف الفرق الصليبية إلى البندقية حتى تنقلهم سفنها إلى الموانى المصرية . ولكنهم بعد سنة من هذا التاريخ كانوا يفرضون حصارهم على ... القسطنطينية العاصمة المسيحية !!! بدلا من القاهرة العاصمة الإسلامية (٢٠).

لقد استترت تقلبات أحداث الحملة الصليبية الرابعة منذ بدايتها حتى نهايتها الفاجعة خلف ضباب كثير من الحيرة والشك . وقد استمرت الاتهامات والاتهامات المضادة بين الصليبيين حول حقيقة ماحدث منذ احتلال القسطنطينية ، وحتى يومنا هذا لم تخمد نيران هذه الاتهامات ... ولكن بعض الذين لم تعجبهم خطط الإغارة على القسطنطينية واصلوا سيرهم

حتى بلادِ الشام ، وبالتعاون مع القوات الصليبية المحلية شنوا هجوما ضئيل الأثر على ثغر رشيد ومدينة فوة . وسرعان ماسعى ملك عكا أمورى الثانى يطلب عقد هدنة مع السلطان العادل فى سبتمبر سنة ١٢٠٤م لمدة ست سنوات (٢١).

كان جنوح الطرفين للسلم واضحا لأن أمورى الثانى ملك بيت المقدس لم يكن يأمل فى قدوم نجدة أو معونة حربية من غرب أوربا . وذلك لأن استيلاء الحملة الصليبية الرابعة على الإمبراطورية البيزنطية جعل من أقاليم الإمبراطورية الجريحة مرتعا لكل مغامر أو طامع صليبى . ومن ناحية أخرى ، كان السلطان العادل الأيوبى يفضل عدم القتال نظرا للمكاسب التى توفرها حالة السلم التى تحقق ازدهار التجارة والعلاقات الاقتصادية الرابحة ، كذلك كانت المتاعب الداخلية التى واجهها السلطان العادل الأيوبى سببا فى رغبته فى عقد الهدنة قبل شهرين من انتهائها فى يوليو سنة ١٢١٠ م (٢٢).

فى ذلك الوقت . تقريبا ، ظهرت على مسرح الأحداث شخصية جديدة . هى الملكة ماريا ابنة أمورى الثانى التى خلفت أباها على عرش مملكة عكا الصليبية . وكانت هذه الملكة الشابة قد تزوجت من كهل فى الستين من عمره هو " حنابرين " ، الذى كان بطل الحملة الصليبية الخامسة . وكانت أول أعمال الملك الزوج أن جدد الهدنة مع السلطان العادل الأيوبى لمدة خمس سنوات جديدة تبدأ من يوليو ١٢١٢م . وانتهز الملك الصليبى فرصة الهدنة وأرسل إلى غرب أوربا يطلب إعداد حملة صليبية جديدة بحيث تصل إلى فلسطين بعد إنتهاء مدة الهدنة ، وذلك بقصد استرداد مملكة بيت المقدس فى الوقت المناسب وبالطريقة المناسبة . وانقضت فترة السنوات الخمس دون أن يحدث ما يعكر صفو الهدنة بين السلطان العادل الأيوبى والصليبيين(٢٣) .

ولكن هذه السنوات الخمس لم تكن توقفا للحركة الصليبية ، فقد خرجت فى أثنائها الحملة الصليبية الغربية التى عرفت باسم " صليبية الأطفال " . وهى حركة جاءت تعبيرا عن التدين العاطفى ، وجاءت بمثابة رد الفعل الشعبى لفشل حكام أوربا فى الاستيلاء على مدينة القدس بعد أن أستولى عليها صلاح الدين الأيوبى . وجاء فشل الحملة الثالثة ثم الحملة الرابعة ليزيد من وطأة التيار الدينى العاطفى فى أوربا الغربية وقد خرج من طيات هذه الموجة الدينية الوعظية فى فرنسا صبى فى الثانية عشر من عمره يدعى ستيفن يدعو الناس فى باريس

والأقاليم الفرنسيه وزعم أن العنايه الإلهيه قد اختاره لقيادة حمله من الأطفال الأبرياء الذين سوف يستردون مدينة القدس التى عجز الملوك والقادة والجنود عن استردادها بسبب ذنوبهم وآثامهم. واجتذب ستيفن حوله بضع مئات من الأطفال وصغار رجال الدين وتجمع الكل فى ميناء مرسيليا حيث خرجت بهم بعض السفن إلى جهة غير معلومة ... (٢٤).

ويبدو أن ألمانيا أحست بوجوب منافسة فرنسا فى حملة الأطفال . فقد خرجت من ألمانيا فى هذه الأثناء أيضا حملة أطفال صليبية يقودها طفل ألمانى اسمه نيقولا ، انطلق من مدينة كولونيا بوادى الراين ، وانقسمت الحملة إلى قسمين بعد وصولها لإيطاليا .... قسم ركب السفن من ميناء بيزا ، والآخر وصل إلى ميناء برنديزى ... وقد تخلفت أعداد كبيرة من هؤلاء الأطفال بسبب البرد والجوع وطول الطريق ، أو الخوف من ركوب البحر .

أما الذين سافروا بالفعل فلم يعرف أحد على وجه اليقين بما جرى عليهم ... فقد قال البعض أنهم راحوا ضحية لتجار الرقيق الذين باعوهم فى أسواق النخاسة فى القاهرة وبغداد وغيرها من مدن الشرق الإسلامى ... وقال البعض الآخر إن السفن تحطمت على بعض الجزر الصخرية فى البحر المتوسط (٢٥).

على أية حال ، فان هذه الحملة الغريبة لم تكن لتقف حائلا دون إعداد الغرب للحملة الصليبية التى طلبها حنابرين واستجاب البابا أنوسنت الثالث للدعوة فأرسل مندوبيه للدعاية الحملة فى شتى أرجاء الغرب الأوربى وفى مجمع اللاتيران الكنسى العام ، الذى عقد سنة ١٢١٥م ، شرح البابا أنوسنت الثالث أصول مملكة عكا ، وترتيب بعض الوسائل للحصول على النفقات المطلوبة لتجهيز الحملة الصليبية المقترحة . وطرح البعض فى هذا الاجتماع فكرة الاستيلاء على مصر ، كوسيلة لضمان نجاح الحملة التى تهدف إلى استعادة السيطرة الصليبية على مدينة بيت المقدس (٢٦)

فى سنة ١٢١٦م وجه البابا إنوسنت الثالث إنذارا للسلطان العادل الأيوبى بقرب وصول الحملة التى تم إعدادها للاستيلاء على مصر ، إذا لم ينقذ نفسه بتسليم مدينة بيت المقدس فى هدوء وفى تلك الأثناء مات البابا . ولكن خليفته على العرش البابوى واصل خططه بشأن الحملة الصليبية وأرسل يطمئن حنابرين والصليبيين فى الشرق إلى أن الحملة قادمة فى القريب العاجل (٢٧)

وبالفعل بدأت بعض قوات الحملة الصليبية الخامسة فى الوصول إلى عكا سنة ١٢١٧م . وفى هذه السنة كان المحصول الزراعى فقيرا فى بلاد الشام . وعندما بدأت القوات الصليبية فى التجمع فى عكا أوصى الملك حنابرين بشن هجوم سريع . وفى يوم الجمعة ٣ نوفمبر ١٢١٧م خرج الصليبيون من عكا فى جيش كبير لم تشهد الأرض الفلسطينية مثله منذ أيام الحملة الصليبية الثالثة التى قدمت لقتال صلاح الدين الأيوبى ؛ وعندما سمع السلطان العادل باجتماع الصليبيين ، وبأنهم جاءوا ببعض الجيوش إلى فلسطين ، لم يخطر على باله أن يقوموا بغزو سريع على هذا النحو . ومن ناحية أخرى كانت جيوش الصليبيين تفوق جيشه عددا ، ولذا فانه تقهقر أمام الصليبيين عندما تقدموا نحو بيسان وأرسل ابنه المعظم لحماية مدينة بيت المقدس ، على حين بقى هو بجيشه فى عجلون استعدادا لصد أى هجوم صليبى على دمشق ... ولكن مخاوفه تبددت بفضل الفوضى التى ضربت أطنابها فى الجيش الصليبى . فقد كان الملك حنابرين يعتبر نفسه قائدا للجيش الصليبى بأسره ، ولكن آخرين من القادة الوافدين من غرب أوربا نازعوه قيادة الحملة . وبعد أن استولى الصليبيون على بيسان ونهبوها ، ظل الجيش الصليبى يهجم على ضفاف نهر الأردن دون هدف واضح ، ثم واصلوا سيرهم إلى الجليل ، ومنها عادوا إلى عكا ثانية (٢٨).

وظل الحال على سكون نسبى حتى وصل أسطول فريزى (هولندى) إلى مياه عكا فى ٢٦ أبريل سنة ١٢١٨م . ثم توالى وفود قوات صليبية جديدة من أوربا .

وبدأ حنابرين يتشاور مع رفاقه فيما يجب عمله . ولم يكن أحد من الصليبيين قد نسى أن ريتشارد قلب الأسد قد نصح بالاستيلاء على مصر ، كما أن مجمع اللاتيران الكنسى قد أوصى أيضا بالاستيلاء على مصر . وكان من رأى الصليبيين أنه لو تم طرد المسلمين من مصر ، فانهم لن يخسروا أغنى أقاليمهم فقط ، وإنما سيكون من الصعب عليهم أيضا أن يحتفظوا بأى أسطول إسلامى فى شرق البحر المتوسط ، كما أنهم لن يستطيعوا أن يسيطروا على بيت المقدس أمام أية هجمات يشنها الصليبيون . وهكذا قرر الصليبيون دون تردد أن يكون هدفهم الأول فى الحملة الخامسة ، بعد وصول التعززات الجديدة ، هو ميناء دمياط . مفتاح الطريق للسيطرة على وادى النيل (٢٩).

فى تلك الأثناء كان السلطان العادل قد بلغ من الكبر عتيا ، وبات أمله أن يقضى أيام

عمره الأخير فى سلام وحين سمع السلطان العادل بكل هذه الأخبار وهو فى دمشق أخذته المفاجأة. ثم ازداد وقع المفاجأة حين نزلت القوات الصليبية على الشاطىء المصرى عند قرية بوره ، ثم زحفت تجاه مدينة دمياط القديمة (إلى الشمال من المدينة الحالية) فى تلك الأثناء خرج الملك الكامل ابن السلطان العادل من القاهرة بجيشه ، وأسرع السلطان يجهز قواته من دمشق للدفاع عن مصر ضد الهجوم الصليبى ... وتمكن الصليبيون من الوصول إلى أسوار دمياط (٣٠).

فى تلك الأثناء مات السلطان العادل محمد بدمشق فى أغسطس ١٢١٨م . وخلفه فى حكم مصر ابنه السلطان الكامل محمد ، وفى حكم الشام ابنه المعظم عيسى . وقد ورث السلطان الكامل معظم صفات أبيه ووسائله فى السياسة والحكم . ولاغرو فقد نشأ هذا الأبن وهو يرى أباه يعمل بشكل دؤوب وبمختلف الوسائل العسكرية والدبلوماسية لكى يقى البلاد شر الحروب (٣١). ومن ناحية أخرى ، كان السلطان الكامل قد تمرس على الحكم فعلا خلال سنوات تولى منها حكم مصر نيابة عن أبيه السلطان العادل ... وبدأ السلطان يبذل كل ما فى وسعه ليعوق تقدم القوات الصليبية صوب دمياط (٣٢)، وفى تلك الأثناء وصلت بعض القوات الفرنسية والانجليزية وانضمت إلى جيوش الصليبيين . وكان قائد هذه الفرق أسقفا أسبانيا جاء بوصفه مندوبا للبابا فى قيادة الحملة الصليبية . وأدى هذا إلى زرع بذور الشقاق بين أفراد الجيش الصليبى . فقد كان حنابرين يتصرف باعتباره القائد العام للقوات الصليبية ، وهاهو المندوب البابوى ينزع عنه هذا الشرف ... !! (٣٣).

ثم اضطر السلطان الكامل لترك معسكره وعاد إلى القاهرة مسرعا ليواجه مؤامرة ضده فى القاهرة . وعندما وجد الجنود الأيوبيون أنفسهم بلا قيادة ، رحلوا عن معسكرهم دون قتال والصليبيون على الضفة الأخرى من النيل يرونهم ولا يصدقون أعينهم ، وهكذا أحكم الصليبيون الحصار حول مدينة دمياط (٣٤).

وبعد أن قضى الكامل على المؤامرة عاد إلى دكرنس ، ثم سار إلى فارسكور ولحق به جيش كبير أرسله أخوه المعظم عيسى من الشام لنجدته ، ولكنه لم يكن فى وضع يسمح له بتحقيق انتصار كبير على الصليبيين ... وطال انتظار الطرفين لحل يمكن أن ينهى المسألة لصالح أحدهما ، ولكن عدم قدرة كل من المسلمين والصليبيين على حسم الصراع جعل الموقف يتجمد على ماهو عليه فترة من الوقت (٣٥).

ثم انتاب اليأس السلطان الكامل وقرر أن يفاوض الصليبيين من أجل الجلاء عن دمياط . وكان عرضه الذى تقدم به إلى الصليبيين غاية فى الكرم والسخاء .... والتخاذل . فقد عرض جلاء القوات الصليبية عن الأرض المصرية ، فى مقابل حصول الصليبيين على الصليب الأكبر (صليب الصلبوت) الذى استولى عليه صلاح الدين عندما استولى على القدس ، وأن يرد للصليبيين مدينة بيت المقدس نفسها ، ومعظم المناطق التى استردها صلاح الدين الأيوبى من الفرنج فى فلسطين ؛ مثل " عسقلان ، وطبرية ، واللاذقية وجبلة وجميع ما فتحه الملك الناصر صلاح الدين من الساحل ما عدا الكرك والشوبك " . فلم يرضوا (٣٦).

وعلى الرغم من التخاذل الواضح فى العرض الذى تقدم به السلطان الكامل ، فإن الصليبيون رفضوا هذا العرض ... لقد زعموا كثيرا أن هدفهم تحرير القدس من أيدى المسلمين ... وها هى القدس التى بذل المسلمون كثيرا من الدماء الزكية فى سبيلها تعود إليهم دونما قتال ، ولكنهم يرفضون . لأنهم يريدون مصر لتأمين وجودهم فى فلسطين ؛ لقد رفض المندوب البابوى وقال إن المفاوضات مع المسلمين لايجب أن تكون قبل أن تحل بهم الهزيمة ، وطالب بفرض جزية مالية باهظة على المسلمين . لقد هان المسلمون على سلطانهم ، ولكن هذا الهوان لم يكن كافيا لإطفاء نيران الحقد فى صدور الصليبيين . ولكن أهم أسباب الرفض الصليبى جاءت من جانب المدن التجارية الإيطالية التى اشتركت بأساطيلها فى هذه الحملة . فقد كان الإيطاليون يريدون البقاء فى ميناء دمياط بمكانته التجارية الهامة فى عالم ذلك الزمان . لقد كان أبناء المدن التجارية الإيطالية يريدون السيطرة على دمياط ، لتكون بمثابة رأس الجسر لهم يمدون منه أذرعتهم الأخطبوطية للسيطرة على مقدرات البلاد المصرية ... لقد كان الملك حنابرين يرغب فى قبول ماعرضه الكامل حتى تستعيد مملكة بيت المقدس مكانتها ؛ لكن المندوب البابوى أصر على رفض العرض الذى قدمه السلطان (٣٧).

ومنى الكامل بخيبة أمل بسبب الرفض الذى قوبلت به مقترحاته . واشتد الحصار حول دمياط التى قاوم أهلها مقاومة باسلة على الرغم من قلة الأقوات والمؤن ، وغلاء الأسعار ، وفتك الأمراض الوبائية التى انتشرت بالمدينة . وقد بذل السلطان جهودا مضنية لمساعدتهم وإرسال النجدات التموينية لهم ، وكان من أبطال هذه المرحلة رجل اسمه « شمايل الشامى » وهو من أهل حماة ببلاد الشام ، وكان هذا الرجل يستعين بمجموعة من الرجال الشجعان

لتوصيل القوارب التموينية الصغيرة المحملة بالدقيق والسكر والجبن والعسل وغيرها إلى الدمياطيين الواقعين تحت الحصار الصليبى (٣٨).

ولكن طول فترة الحصار ، وانتشار الأوبئة ، عجل بسقوط المدينة بأيدى القوات الصليبية فى نوفمبر سنة ١٢١٩م . ومن العجيب أن سقوط دمياط خفف من حدة التوتر فى العلاقات داخل المعسكر الإسلامى ، أى بين حكام العالم الإسلامى ، وبدأوا فى تجنيد مواردهم للتصدى للخطر الصليبى الذى تجسد شره من جديد . حقيقة أن السلطان الكامل دعا إلى حملة عامة لتجنيد المقاتلين " من القاهرة حتى أسوان " ، كما أن أخاه السلطان المعظم عيسى دعا إلى حملة مماثلة فى بلاد الشام (ولكنها لم تلق الاستجابة الكافية مما جعله يرجع إلى بلاد الشام ليهاجم الصليبيين على أمل تخفيف الضغط عن مصر) (٣٩).

ولكن الحروب المحلية بين الحكام المسلمين فى أعالى الجزيرة وشمال الشام جعلت تحقيق الوحدة الإسلامية فى مواجهة الخطر الصليبى أمراً مستحيلا ...

إزاء التطورات العسكرية اضطر السلطان الكامل لنقل معسكره من فارسكور إلى منطقة جديدة قبالة طلخا ، يمكن أن يقطع منها الطريق إلى القاهرة إذا ما فكر الصليبيون فى الزحف إلى العاصمة . فى هذا المكان الذى عسكر فيه السلطان بجيشه قامت مدينة المنصورة وكانت هناك نشأتها الأولى (٤٠).

وعلى الجانب الآخر ظل الصليبيون على حال من الجمود وعدم الحركة لمدة ثمانية عشر شهرا ، بسبب الخلافات والمنازعات التى نشبت بين قادتهم . وظل السلطان الكامل يوسع فى المدينة الوليدة لاستقبال الإمدادات التى أرسلها أخوه المعظم عيسى ثم أخوه الأشرف موسى من بعده ... وهكذا كانت النشأة الأولى لمدينة المنصورة نشأة عسكرية الطابع (٤١).

وبعد ذلك وصلت قوات إضافية من أوربا وعكا للانضمام إلى الجيوش الصليبية التى احتلت دمياط ... وأخيرا زحف الصليبيون جنوبا فى قوات برية ونهرية ضخمة حتى مدينة فارسكور واستولوا عليها فى منتصف يوليو ١٢٢١ م ... وجاءت اللحظات الحاسمة مع اقتراب موسم الفيضان . فقد عبرت بعض فرق الجيش المصرى لتحاصر الصليبيين قرب بحيرة المنزلة ، وبدأ الفيضان ليمنع الصليبيين من محاولة التقدم جنوبا ، كما كان الجيش المصرى

يمنع تقهقرهم شمالا للعودة إلى دمياط . وفى نهر النيل نفسه وقفت السفن المصرية الأيوبية بالمرصاد لأية محاولة صليبية (٤٢).

والواقع أن البحرية المصرية قامت بدور حاسم فى المعركة ضد الصليبيين ، فقد استولت على عدد من السفن الصليبية الكبيرة المحملة بالمؤن وأدوات القتال ، كما أسر رجالها غالبية البحارة الصليبيين (٤٣).

فضلا عن أن بعض فرق البحرية المصرية عبرت بحر المحلة (وهو فرع قديم من فروع النيل كان يخرج بالقرب من مدينة بنها ، ثم يعود ليصب فى النيل قرب فارسكور) . وقد استطاعت هذه السفن أن تمنع وصول أى نجدات للصليبيين من قاعدتهم فى دمياط ... وهكذا غرقت القوات الصليبية فى أوحال الدلتا ، وتحدد بشكل نهائى مصير الحملة الخامسة(٤٤) .

كانت الحملة الصليبية الخامسة منعطفاً جديدا فى التاريخ الصليبى ، ذلك أن أهم ما كان يميزها أن هدفها كان هو مصر ... ولم تكن هذه المرة الأولى التى يقصد الفرنج فيها غزو مصر، ولكن بينما كان هدف أماريك فى القرن الثانى عشر هو تحويل مصر إلى دولة تابعة للمملكة الصليبية ، أو حتى ضمها إلى أملاكه ، سيطرت على الغرب الأوربى الفكرة القائلة بأنه مادامت مصر باقية على ماهى عليه من القوة والبأس ، فان المشاريع الصليبية فى الشام فاشلة لا محالة ، ولابد من حرمان الجبهة الاسلامية من تلك القاعدة الهامة . وإلى جانب هذا كان هدف الحملة الخامسة هو استرداد شرف وهيبة الصليبيين اللذين تمرغا فى تراب حطين . ولقد أدرك بعض المؤرخين المسلمين هذه الحقيقة الهامة ، فمن ذلك مايرويه لنا المؤرخ المعاصر ابن واصل من أنه عندما شرع حنابرين فى غزو مصر فى الحملة الخامسة قال الصليبيون : «إن الملك الناصر صلاح الدين إنما استولى على الممالك ، وأخرج القدس والساحل من أيدى الفرنج بملكه ديار مصر وتقويته برجالها . فالمصلحة أن نقصد مصر ونملكها ، وحينئذ لايبقى لنا مانع من أخذ القدس وغيره من البلاد " (٤٥).

وفى وسط أوحال الدلتا تخلى الصليبيون عن أحلامهم ثمنا لحريتهم . وهكذا انتهت الحملة الخامسة . وفى اليوم الثامن من سبتمبر سنة ١٢٢١م خرج الصليبيون من دمياط ودخلتها القوات المصرية الأيوبية عصر اليوم نفسه .

وحين زال الخطر الصليبى عاد النزاع والتنافس بفرض نفسه على العلاقات بين الملوك من أبناء البيت الأيوبى . فقد بقى الأشرف موسى صاحب بلاد مابين النهرين ، وشعر المعظم موسى الشقيق الثالث وصاحب دمشق ، أنه عرضه لتحالف أخويه فى مصر وما بين النهرين . وبدأت المتاعب العسكرية والسياسية تنشب من جديد بين الأخوة الأعداء (٤٧).

ولم تكن هذه المتاعب وحدها هى التى أزعجت السلطان الكامل الأيوبى ، وإنما حملت إليه رياح السياسة العاتية أنباء تجمعات صليبية جديدة تريد أن تنتقم للمهانة التى جرت على الصليبيين فى الحملة الصليبية الخامسة ، نعنى بذلك الحملة السادسة .

والطريف أن الحملة السادسة لم تشهد قتالا أو إراقة دماء من الجانبين ولكنها حققت هدفا صليبيا كبيرا ، هو استعادة بيت المقدس تحت السيطرة الصليبية . والطريف أيضا أن قائد هذه الحملة كان تحت عقوبة الحرمان البابوى (٤٨).

لم يحاول الصليبيون أبدا الاستجابة لسياسة المهادنة التى سار عليها السلطان الكامل الأيوبى ، ولم يكن ذلك ممكنا فى ضوء فهمهم لحقائق الصراع الإسلامى / الصليبى الذى كان لابد وأن ينتهى بالقضاء على أحد الطرفين . ولكن الإمبراطور فردريك الثانى هوهنشتاوفن ، إمبراطور ألمانيا ، أبدى استعدادا واضحا للإفادة من هذه الروح السلمية البادية فى موقف السلطان . لقد كان فردريك الثانى ، الذى اشتهر بلقب « أعجوبة الدنيا » صقليا تربى على القيم الثقافية العربية ، وفى شوارع الجزيرة وأزقتها عرف حقائق الحياة ، ونبذ النظام الأخلاقى الغربى ، لم يكن الإسلام فى نظره مجرد كتاب مغلق ، كما أن المسلمين ، فى نظره ، لم يكونوا مجرد قوم من الكفار يستحقون الفناء . فقد كانت مظاهر الثقافة والحضارة الإسلامية الراقية تقتحم ناظريه فى كل مكان بالجزيرة التى نشأ وترعرع على ترابها (٤٩).

وكان فردريك الذى تولى عرش الامبراطورية سنة ١٢١٥ ، قد أخذ شارة الصليب لكى يضمن تأييد البابا إنوسنت الثالث له فى اعتلاء العرش ، ولكنه كان عازفا عن الوفاء بقسمه الصليبى لأنه كان يتوق إلى شن حملة على شمال إيطاليا . فقد كان فردريك إيطاليا ، وأراد أن يجعل من نفسه حاكما على كل إيطاليا ، وتخضع مدن الشمال الكبرى لسيطرته . واستطاع فردريك أن يؤجل الوفاء بنذره الصليبى مرة أخرى بسبب مشاغله الداخلية . ولكن

زواجه من " يولندا " ابنة " حنابرين " ، والوريثة الشرعية لمملكة عكا الصليبية ، جعل الإمبراطور مسئولا عن الوفاء بقسمه الصليبى . ومن ناحية أخرى ظلت البابوية تطالبه بالحاح، بالوفاء بنذره الصليبى (٥٠).

وفى تلك الأثناء بدأت المراسلات الودية بين الإمبراطور الألمانى ، والسلطان الكامل وانتظمت السفارات بين الجانبين منذ سنة ١٢٢٦م بغية الوصول إلى اتفاق ودى عام بين الجانبين . ثم جاء الإمبراطور إلى الشرق سنة ١٢٢٨م بعد أن جدت عدة تقلبات على الواقع السياسى ، وكان برفقته أسطول صغير وجيش برى من ستمائة فارس فقط . والغريب أن البابوية أصدرت ضده قرار الحرمان . وكان مشهدا غريبا أن تأتى حملة صليبية لتحرير بيت المقدس من المسلمين ، وقائدها رجل اشتهر بعداوته الشديدة للبابوية التى أسبغت عليه أشنع أوصاف الهرطقة ، كما دعت إلى شن حملة صليبية للهجوم على امبراطوريته ، وهو غائب فى فلسطين يؤدى واجبه الصليبى . إذ يذكر ابن واصل أن الامبراطور فردريك وأولاده الذين تولوا من بعده " هؤلاء كلهم كانوا ممقوتين عند البابا خليفة الفرنج صاحب رومية ، لميلهم إلى المسلمين" (٥١).

على أية حال تم عقد هدنة بين الكامل وفردريك الثانى على أساس أن يتسلم فردريك مدينة بيت المقدس ومدينة بيت لحم ، وأن يكون للصليبيين ممر من الأرض يصل ما بين عكا ، وبيت المقدس بما فى ذلك اللد ويافا والناصرة والجليل ، على أن يبقى المسجد الأقصى وقبة الصخرة ، وقرى بيت المقدس بأيدى المسلمين . وكان أجل الهدنة عشر سنوات بشرط أن يمنع الإمبراطور نزول أية حملة صليبية جديدة على شواطىء مصر أو الشام (٥٢).

وهكذا حقق الإمبراطور ، الذى استحق لقب " أعجوبة الدنيا " عن جدارة ، مالم تستطع الحملات الكبرى تحقيقه . وكان جيشه الصغير وأسطوله الضئيل مجال سخرية الأوربيين عندما أبحر من الموانى الإيطالية ... وفى كنيسة القيامة توج فردريك الثانى نفسه ملكا على مملكة بيت المقدس . كان هذا الإمبراطور يتحدث اللغة العربية بطلاقة كواحد من العرب . ويبدو من كلام المؤرخين العرب أن فردريك كان يسخر من رجال الكنيسة المسيحية ، وهو ماتؤكده روايات المؤرخين الغربيين الذين رأوا فيه شخصا خارجا على الكنيسة (٥٣).

ثم عاد الإمبراطور فردريك الثانى فى يونيو ١٢٢٩م ، دون قتال أو خسارة فى العتاد والرجال ، وإنما بمكاسب لم تستطع الحملات الصليبية الضخمة منذ أيام صلاح الدين الأيوبى أن تحقق شيئا قريبا منها . ولا شك فى أن الكامل قد تورط فعلا نتيجة لسلوكه هذا .

فلقد حققت الحملة الصليبية السادسة ، رغم طابعها السلمى ، من النجاح ما يعادل ما منيت به الحملة الصليبية الخامسة من فشل رغم طابعها العسكرى العدوانى .

أما العالم الإسلامى ، فقد رأى فى هذه الهدنة التى عقدها السلطان الكامل كارثة حقيقية ولم يستطع أحد فى العالم الإسلامى أن يوافق علي ما أدعاه السلطان من أن الهدنة التى كان ثمنها بيت المقدس كانت خدمة للمسلمين . وامتلأت مساجد القاهرة ودمشق وبغداد وغيرها من المدن الإسلامية بالخطباء الناقمين على السلطان المتخاذل الذى ضحى بالمصلحة الإسلامية العامة فى سبيل مصلحته الخاصة ، ومكاسبه الإقليمية الضيقة . وعلى الرغم من أن السلطان بعث سفراءه ورسله فى كل مكان لتبرير فعلته ، فان الرأى العام الإسلامى لم يغفر له هذا الخطأ الفادح ، وقد عبر أحد المعاصرين عن ذلك بقوله : " وللكامل هفوة جرت منه ، عفا الله عنه ، وذلك أنه سلم بيت المقدس إلى الفرنج اختيارا ، نعوذ بالله من سخط الله ، وموالاة أعداء الله " ؛ كذلك قيل " ووصلت الأخبار بتسليم القدس إلى الفرنج فقامت القيامة فى جميع بلاد الإسلام واشتدت العظايم بحيث أن أقيمت المآتم " (٥٤).

وقد أتاحت هذه الهدنة فترة سلام استمرت عشر سنوات تمكن الصليبيون خلالها من تدعيم مركزهم ، وتوطيد وجودهم . ثم توفى السلطان الكامل فى مارس ١٢٣٩م عن ستين سنة ، وانفرط بذلك عقد الدولة الأيوبية للمرة الثالثة . إذ تولى السلطنة بالقاهرة إبنه العادل الثانى، وتولى حكم دمشق الصالح أيوب الذى بدأ يستخدم الجند الخوارزمية الذين كانوا يتجولون فى هذه المناطق ، بعد انهيار دولتهم ، يبيعون سيوفهم لخدمة كل من يرغب فى استخدامهم(٥٥) .

ولما كان الصالح نجم الدين أيوب هو الابن الأكبر للكامل ، فقد عقد العزم على أن يتولى السلطنة الأيوبية المتحدة بعد أبيه ، وأن تكون عاصمته القاهرة . وبعد عدة تقلبات فى حظه السياسى جرت مؤامرة فى القاهرة كانت نتيجتها خلع السلطان العادل الثانى عن العرش ، وتم استدعاء الصالح نجم الدين أيوب لتولى العرش فى القاهرة ، وتم ذلك بالفعل فى يونيو سنة ١٢٤٠م . ولكن الوحدة الأيوبية لم تتم فقد ظل الصالح اسماعيل الذى استولى على دمشق

يمثل قطب المعارضة للقاهرة في بلاد الشام . ولعب الخوارزمية دورهم في ظل الانقسام السياسي الذي مزق الجسد الأيوبي (٥٦).

وفي تلك الأثناء كانت أوربا تستعد لحملة صليبية جديدة عندما تنتهي الهدنة التي كان الكامل قد عقدها مع فردريك الثاني . وبدأ البابا يطلب من ملوك انجلترا وفرنسا وألمانيا إعداد حملة صليبية جديدة يكون هدفها الاستيلاء على مصر . وبينما كان الملوك مشغولين بالأمور الداخلية ، بدأ بعض النبلاء يجمعون فرسانهم استجابة لنداء البابوية . وجاءت هذه القوات الصليبية إلى عكا في وقت كان النزاع فيه محتدماً بين أبناء البيت الأيوبي . وآثر فريق من الصليبيين أن يبدأ الهجوم على مصر ، على حين رأى فريق آخر أن دمشق هي مصدر الخطر المباشر . ولكن يبدو أن شدة النزاع بين أبناء البيت الأيوبي في مصر والشام ، جعلت الصليبيين يبالغون في تفاؤلهم ، إذ قرروا شن الهجوم على الجانبين (٥٧).

وفي نوفمبر زحف الملك تيبالد ، قائد الجيوش الصليبية ، صوب الحدود المصرية ، ثم تقابلت الحملة مع جيش مصري قرب غزة ... وكانت الهزيمة الساحقة من نصيب الجيش الصليبي الذي تفرق جنوده بين قتيل وأسير . وكانت هزيمة الجيش الصليبي من عوامل تشجيع الملك الناصر داود حاكم الكرك ، فهاجم بيت المقدس فجأة واستعادها للمسلمين مرة أخرى في ديسمبر من السنة نفسها (٥٨).

وظل تيبالد حائرا بحملته ينتقل من مكان لآخر في بلاد الشام ، وأخيرا غادر مدينة عكا إلى أوربا وعاد خائبا دون أن يحقق شيئا من آماله الكبار . وكان ذلك أواخر سبتمبر سنة ١٢٤٠م ، أي في نفس السنة التي تولى فيها الصالح نجم الدين أيوب عرش السلطنة بمصر . وهكذا انتهت بالفشل تلك الحملة الصليبية التي ظن قادتها أنهم قادرون على تحطيم المقاومة الإسلامية في كل من مصر وبلاد الشام ولم تستطع تلك الحملة أن تحقق شيئا من الآمال الكبار التي عقدت عليها (٥٩).

وربما كان الفشل الذريع الذي منيت به حملة تيبالد هو السبب في أن هذه الحملة لم تُعرف برقم عددي (مثل الحملة الخامسة والسادسة ، اللتين سبقتا حملة تيبالد) ، ولكن الحملة الفاشلة انتهت دون أن تحظى برقم ومكان واضح بين تلك الحملات التي شنها الغرب الكاثوليكي ضد العالم الإسلامي طوال فترة الحروب الصليبية .

وبعد سنوات تسع من رحيل تيبالد وحملته الخائبة ، جاءت حملة أخرى بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، كان هدفها الاستيلاء على مصر ، وحظيت برقم جعلها الحملة الصليبية السابعة. هذه الحملة كانت نتيجة للأحداث التى جرت على مسرح الصراع ضد الصليبيين فى الشرق العربى طوال فترة السنوات التسع . ففى سنة ١٢٤٠م وصلت إلى عكا حملة إنجليزية سلمية بقيادة ريتشارد كورنول أخى الملك الانجليزى هنرى الثالث ، وكانت أخته زوجة للإمبراطور فردريك الثانى " أعجوبة الدنيا " . وكان فردريك الثانى قد أرسل ريتشارد هذا لإصلاح الحال بين الأمراء الصليبيين المتنازعين فى عكا من ناحية ، ولكى يعيد ترتيب العلاقات مع الأيوبيين فى مصر والشام من ناحية ثانية . وكان هدف زعيم الحملة ريتشارد هذا أن يعقد هدنة مع الأيوبيين من جديد . بالفعل تم تبادل السفراء والمبعوثين بين الصالح نجم الدين أويب وريتشارد كورنول ، وجرت المفاوضات بين الجانبين وقد نجحت هذه المفاوضات التى حققت للصليبيين أكثر مما كانوا يحلمون به (٦٠).

وفى مايو ١٢١م عاد كورنول إلى إنجلترا ، وبرحيله عاد الانقسام ينشب أظافره من جديد فى الكيان الصليبى ، وانقسم الصليبيون إلى فريقين : أحدهما يحبذ مواصلة الحرب والعدوان ضد المسلمين ، والقسم الثانى يجنح إلى السلم والهدنة . ولما كان فرسان المعبد (الداوية) يحبذون الحرب والعدوان ، فانهم بدأوا يغيرون على المناطق التى يحكمها المسلمون ، وبدأت الحرب تفرض نفسها من جديد على العلاقات بين الجانبين . وعلى الجانب الإسلامى كان النزاع والتخاصم يمزق الجبهة الإسلامية ، بل إن الملك الصالح اسماعيل حاكم دمشق ، والناصر داود حاكم الكرك ، والمنصور ابراهيم حاكم حمص انضموا إلى الصليبيين فى تحالف غريب ضد الصالح نجم الدين أيوب سلطان الأيوبيين فى مصر . وقد تنازل الأمراء المسلمون من جديد عن منطقة المسجد الأقصى وقبة الصخرة للصليبيين . ونال الصليبيون وعدا بامتلاك جزء من مصر عندما يتمكن هذا الحلف من هزيمة الصالح نجم الدين أيوب والاستيلاء على مصر (٦١).

ولكن مصر بمواردها الهائلة كفلت للصالح نجم الدين أيوب جيشا ضخما يفوق القوة العسكرية الهزيلة لذلك التحالف البائس . فقد استطاع السلطان الصالح أن يجند عددا هائلا من الخوارزمية الذين كانوا يهيمون فى المنطقة يبيعون خدماتهم العسكرية لمن يدفع أكثر ، وذلك بعد أن دمر المغول دولتهم . وأمر الصالح نجم الدين بالهجوم على دمشق وبيت المقدس

وضمها إلى أملاك مصر . وبسرعة تمكن الخوارزمية من الاستيلاء على نابلس وبيت المقدس . ثم عاد الخوارزمية مرة أخرى صوب الجنوب قاصدين الحدود المصرية وعند غزة انضموا إلى الجيش المصرى الذى كان يرابط لحماية مصر من أية هجمة قد تقوم بها قوات الحلف الغريب(٦٢) .

وفى تلك الأثناء حشد الصليبيون وحلفاؤهم من أمراء الأيوبيين عددا ضخما من قوات الفرسان والمشاة تحت قيادة عامة عقد لواءها الملك المنصور ابراهيم صاحب حمص الذى وضع خطة القتال ضد المصريين . واعتمدت هذه الخطة على أن الجيش المصرى لن يهاجم عسقلان التى عسكرت فيها القوات الصليبية الأيوبية المتحالفة . ولكن ساء ظنهم ، وخابت حساباتهم، فقد شن الجيش المصرى هجوما عنيفا على القوات المتحالفة فى منتصف الطريق بين غزة وعسقلان . ولكن التفوق العددى للجيوش المتحالفة ، وكثرة الحصون التى تحميها جعلت قادتها يتفاءلون كثيرا بامكانية تحقيق النصر على الجيش المصرى . ولكن المعركة التى استمرت عدة ساعات فقط إنجلت عن تدمير الجيوش المتحالفة . وكان عدد القتلى من الصليبيين خمسة آلاف ، ومن الأسرى ثمانمائة ... فضلا عن القتلى والأسرى من القوات الأيوبية التى تحالفت معهم (٦٣).

هذه المعركة الهامة التى جرت فى " حيرميا " ، والتى اشتهرت باسم معركة غزة لسبب غير مفهوم ، جرت فى ١٢٤٤م . وكانت أهم نتائجها أن استرد المسلمون مدينة بيت المقدس ، كما أن ثقل الهزيمة جعل الصليبيين فى بلاد الشام فى يأس من إمكانية القيام بأى عمل حقيقى ضد المسلمين . وعلى الرغم من أن الغرب الأوربى لم يعد يلقى بالا لمشاكل الصليبيين فى الشرق ، فان الأوساط الكنسية هناك كانت ماتزال مهمومة بما آل إليه حال الصليبيين ، وبدأ التفكير فى آخر حملة صليبية كبيرة يجردها الغرب لإنقاذهم . كان هذا هو الحال عقب الهزيمة التى لم ينج منها سوى خمسين صليبيا (٦٤).

بعد ذلك قام الجيش المصرى بالاستيلاء على فلسطين . ثم تم إحتلال دمشق . ولما منع الخوارزمية من دخولها خوفا من نهب المدينة غيروا ولاءهم ، وحاصروا دمشق وساعدوا أعداء الصالح نجم الدين أيوب ، وعاثوا فى المناطق القريبة نهبا وخرابا حتى لقوا هزيمة بشعة سنة ١٢٤٦م أنهت وجودهم كقوة مقاتلة (٦٥).

واستمرت الجيوش المصرية تحرز انتصاراتها وتضم مناطق بلاد الشام إلى الحكم المصرى . وفى مارس سنة ١٢٤٧م قام الصالح نجم الدين أيوب بجولة تفقد فيها ممتلكاته الشامية وقدم الهبات وبنى المدارس ... وبعدها استولت قواته على عسقلان . وقبل أن يتمكن من إخضاع الشام كلها جاءته الأنباء عن الحشود الصليبية التى تتجمع فى قبرص من أجل الاستيلاء على مصر . وكان مرضه قد تمكن منه فعاد إلى مصر فى أبريل سنة ١٢٤٩م لينظم الدفاع عن دمياط ومصر ضد الهجوم الصليبى المرتقب . وبعد أن عقد صلحا مع الناصر يوسف ملك حلب، وهو الصلح الذى توسط فيه الخليفة العباسى فى بغداد آنذاك .

وتروى المصادر التاريخية أن الإمبراطور فردريك الثانى ، صديق الأيوبيين ، وعدو البابوية اللدود ، أرسل واحدا من رجاله ، متخفيا فى زى تاجر ، إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب فى الشام يخبره بأنباء استعدادات الغرب الأوربى لشن حملة صليبية جديدة ضد مصر .

ولذا ركز السلطان جهوده فى مراقبة تحركات ملوك الأيوبيين المعادين له فى بلاد الشام من جهة ، وترميم حصون البلاد الشامية والمصرية تحسبا للهجوم الصليبى المنتظر من جهة أخرى . ثم ذهب رغم مرضه الشديد ليعسكر قرب أشموم طناح استعدادا للقاء الصليبيين القادمين من غرب أوربا . وظل السلطان ، رغم مرضه بالسل المزمن ، يواصل استعداداته للقاء الحملة الصليبية ، ثم رحل سنة ١٢٤٨م من القاهرة إلى دمشق لكى يستولى على حمص ويعيدها إلى حاكمها السابق المنصور ابراهيم حتى يهدأ باله من ناحية الشام ويستعد بشكل نهائى للحملة الصليبية القادمة .

هذه الحملة كانت الاستعدادات تجرى لها فى الغرب الأوربى ، بالتنسيق بين البابا إنوسنت الرابع والملك الفرنسى لويس التاسع ، منذ ١٢٤٥م - أى منذ سقوط بيت المقدس بأيدى المسلمين . ولم يكن هدف هذه الحملة استرجاع بيت المقدس فقط وإنما كانت تهدف أيضا إلى تكوين حلف وثنى / مسيحى بين المغول والصليبيين لهدم الدولة الأيوبية فى مصر والشام ، ووضع المنطقة العربية الإسلامية بين شقى الرحى . وقد يؤدى هذا ، كما تصور الأوربيون ، إلى القضاء على الإسلام وانتشار المسيحية فى هذه المناطق . والواقع أن فكرة الحملة الصليبية بقيادة لويس التاسع جاءت مصاحبة للفكرة الداعية إلى إقامة الحلف المغولى / الصليبى . وقد تصور البابا إنوسنت الرابع أنه يمكن للحملة التى يقودها لويس أن تهاجم المنطقة العربية من

سواحل البحر المتوسط على حين تقوم القوات المغولية بالهجوم على المنطقة من الناحية الشرقية، وبذلك تخلو المنطقة من الإسلام والمسلمين ، ويخلو الجو للبابوية وأحلامها (٦٨).

وقد أرسل البابا بعثتين لعقد هذا الحلف ، ولكن المحاولة فشلت لإحساس المغول بتفوقهم العسكرى والسياسى ، مما جعل الخان الأعظم يطلب من البابوية أن تعترف له بالسيادة على ملوك أوربا الذين طالبهم الخان بأن يفدوا إلى بلاده لتقديم الجزية إليه ... وأخيرا كان على أوربا أن تعتمد على مواردها الذاتية فى مشروعاتها العدوانية ضد المسلمين (٦٩).

ومن المهم أن نلاحظ أن الحملة الصليبية السابعة كانت هى الحدث التاريخى الذى مهد الطريق لسقوط دولة الأيوبيين ، وقيام دولة سلاطين المماليك فى مصر والشام والحجاز .

فقد تخلى الأيوبيون عن دورهم التاريخى فى التصدى للصليبيين ، وآثروا الالتزام بسياسة المهادنة حتى يتفرغوا لمنازعاتهم الداخلية ، ومن ثم فان دولتهم التى جاءت استجابة ناجحة للتحدى الذى فرضه العدوان الصليبى على المنطقة لأن مؤسس الدولة (صلاح الدين الأيوبى) التزم بسياسة الجهاد والهجوم على الصليبيين - هذه الدولة فقدت مبررات وجودها منذ أخذ ملوك بنى أيوب وسلاطينهم يعزفون عن الهجوم ضد الصليبيين ، ولجأوا إلى سياسة المهادنة والتعايش السلمى . ومن الأمور اللافتة للنظر فى هذا السبيل أن الحروب التى خاضها الأيوبيون ضد الصليبيين كانت فى معظمها حروبا دفاعية تأتى كرد فعل للهجمات أو الحملات التى شنها الصليبيون ضد المسلمين فى مصر والشام . وفى خضم أحداث الحملة الصليبية السابعة برزت قوة جديدة أثبتت قدرتها على التصدى للصليبيين وتزعم المنطقة العربية العربية الإسلامية فى مواجهتهم - تلك هى قوة المماليك (٧٠).

ومن ثم ، فان أحداث هذه الحملة التى جرت وقائعها على الأرض المصرية تستحق منا أن نعالجها تفصيلا . بيد أننا ينبغى أن نلاحظ أن سقوط الدولة الأيوبية وقيام الدولة المملوكية لم يغير من اتجاه الحركة التاريخية فى المنطقة ، فالواقع أن الدولة المملوكية جاءت امتدادا لدولة بنى أيوب ، ولكن المماليك نجحوا فى توحيد المنطقة وهو ما فشل فيه من قبل سادتهم الأيوبيون .

كانت الحملة الصليبية السابعة تختلف عن غيرها من الحملات الصليبية من حيث تركيبها

فقد كانت غالبية جنودها من الفرنسيين ، كما كان قائدها فرنسيا . والحقيقة أن الزعماء الأوربيين فى القرن الثالث عشر لم يكونوا متحمسين لشن حروب جديدة ضد الإسلام بسبب مشاكلهم الداخلية العديدة . ومهما كانت آراؤهم العلنية بشأن الحروب الصليبية . فان الحركة الصليبية بالنسبة لهم كانت حركة هامشية إلى حد ما . فقد أخذ كثيرون من الملوك وكبار الإقطاعيين فى غرب أوربا شارة الصليب خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، ولكن الذين رحلوا منهم إلى الشرق العربى الإسلامى ، فعلا ، كانوا نسبة ضئيلة . ومن الأمور المتناقضة أن الزعماء الصليبيين الذين أخذوا شارة الصليب مأخذ الجد كانوا هم أسوأ القادة العسكريين وكان لويس التاسع واحدا منهم (٧١).

كانت الفكرة السائدة فى أوربا منذ منتصف القرن الثانى عشر أنه مادامت مصر محتفظة بقوتها ، فان أى مشروع صليبى لابد وأن ينتهى بالفشل . وقد أجمل المؤرخ المسلم جمال الدين بن واصل هذه الحقيقة فى قوله : " .. إن ملك فرنسا ريد افرانس حدثته نفسه بأن يستعيد بيت المقدس إلى الفرنج ... وعلى أن ذلك لا يتم إلا بملك الديار المصرية " . وقد أكد هذا الرأى بعض مؤرخى الفرنج المعاصرين لهذه الحملة السابعة (٧٢).

فى خريف سنة ١٢٤٨م أبحر الأسطول الصليبى من ميناء مرسيليا إلى جزيرة قبرص التى كانت خاضعة آنذاك لحكم آل لوزينان . وفى مايو سنة ١٢٤٩م أقلعت السفن تقل جنود الحملة الصليبية السابعة وقائدهم لويس التاسع متجهة إلى مصر . وكانت قوات الصليبيين حوالى خمسين ألف مقاتل . وفى ٢٠ صفر سنة ٦٤٧ هـ / ٤ يونيو ١٢٤٩م نزلت قوات العدو الصليبى إلى الشواطىء المصرية قبالة دمياط ، وأمامها الملك لويس يخوض فى مياه الشاطىء الضحلة وقد رفع سيفه وترسه على رأسه . وتم الإنزال الصليبى بنجاح . وانسحبت الحامية المصرية بقيادة الأمير فخر الدين بجيشه وبحامية المدينة إلى المعسكر السلطانى بأشموم طناح. لقد انسحب المدافعون عن المدينة فى سرعة تدعو للغضب والدهشة ، وانهارت مقاومة عرب بنى كنانة الذين كانوا بمثابة القوات المساعدة لحامية المدينة . وفر الجنود تتبعهم جموع أهل دمياط المذعورين . واستشاط السلطان الصالح نجم الدين أيوب غضبا لما وقع (٧٣).

هكذا سقطت دمياط دون قتال ، ودخلها الصليبيون تتقدمهم مشاعر الدهشة والريبة خوفا من أن يكون هناك كمين ينتظرهم فى داخل المدينة . ولكن دمياط التى دوخت عتاة الصليبيين

بمقاومتها الشرسة إبان الحملة الخامسة استسلمت فى وداعة مذهلة لفرسان الفرنج ، وما أن تأكد الصليبيون من حقيقة النصر السهل الذى أحرزوه دون أن يبذلوا جهدا من أجله ، حتى أخذوا يدعمون وجودهم فى المدينة الأسيرة (٧٤).

واستقبل السلطان المريض أنباء سقوط المدينة التى حرص على تحصينها بمزيج من المرارة والألم والغضب ، فعاتب قادة الحامية المنسحبة بكلمات مريرة عنيفة ، وأعدم عددا من فرسان بنى كنانة الفارين . ولكنه لم يستسلم للهزيمة . وانتقل إلى المنصورة التى أنشئت قبل هذا التاريخ بثلاثين سنة فقط . وشرع الجنود فى ترميم أسوار المدينة بمساعدة الأهالى فالصراع ضد العدوان لم يكن قد انتهى بعد (٧٥).

وبدأت القوات المصرية تتوافد على المنصورة ، فها هى كتائب الجيش الأيوبى المكونة أساسا من المماليك ، والفرسان الذين يقومون بدور القوات المساعدة ، يتبعهم المتطوعون للوعظ وحث الناس على الجهاد ، أو للقيام بما تقوم به أسلحة الخدمات والتموين فى الجيوش الحديثة . وماجت المدينة الفتية بالحركة والنشاط من حول القصر السلطانى الذى كان يرقد بداخله السلطان المريض ، وقد غلبت شجاعته مرضه . وبات مؤرقا بالرغبة فى الانتقام (٧٦).

وفى المعسكر الصليبى لم ينتهز لويس التاسع فرصة استسلام دمياط دون قتال لكى يواصل الزحف صوب القاهرة للقضاء على المقاومة الإسلامية ، وإنما انصرف إلى إضفاء الطابع الصليبى على المدينة الأسيرة ، وأخذ يوزع الأسلاب والغنائم على باروناته وجنوده ، وحول مسجد المدينة إلى كاتدرائية كاثوليكية . ولعل الملك الذى عرفه مواطنوه باسم " القديس لويس" قد حسب أن الرب يبارك مشروعه الصليبى ، وأن الأمر كله سوف ينتهى بالسهولة التى انتهى بها أمرَ دمياط ، فأرسل يستدعى زوجته (٧٧).

وفى تلك الأثناء صارت العمليات العسكرية بين المسلمين والصليبيين أقرب إلى حرب العصابات والعمليات الفدائية منها إلى القتال المنظم . كان لفترة الانتظار الطويلة نتائجها السلبية فى المعسكر الصليبى على حين كانت لها ثمارها الإيجابية فى المعسكر المصرى . وتململ المصريون من البقاء خلف تحصيناتهم القوية ، وبدأو يتحركون إلى الهجوم ، وتم تنظيم ما يمكن أن نسميه بحركة مقاومة شعبية على حد تعبيرنا المعاصر . فقد شارك فى العمليات الفدائية أبناء الشعب المصرى بكل فئاته وبجانبهم المتطوعون من المسلمين الموجودين فى مصر أو الوافدين فى ركاب القوات الأيوبية التى قدمت من الشام (٧٨).

وكان أولئك المتطوعون يقومون بهجمات فدائية ليلية جريئة على المعسكر الصليبى ويعودون بالجنود الصليبيين الذين تمكنوا من أسرهم أحياء ، ويسلمونهم للسلطان وعندما كان يتم أسر عدد كبير من هؤلاء كان موكب الأسرى يطوف فى الشوارع بين صيحات الناس الحماسية ، ويتناقل الناس أخبارهم فتتصاعد حرارة الحماسة وتزداد أعداد المتطوعين ، وتتزايد بالتالى خسائر الصليبيين ، فيلجأون إلى تعديل نظام الحراسة فى معسكرهم ويحفرون الخنادق من حوله . ولكن الهجمات الإسلامية تأخذ اتجاها آخر ويستمر سقوط المزيد من جنود حملة لويس التاسع (٧٩).

ومن ناحية أخرى قامت البحرية المصرية بدورها المعهود فى الدفاع عن البلاد ، ومثلما حدث أثناء حملة " حنابرين " ، بدأت السفن العسكرية المصرية تنصب الكمائن للسفن الصليبية التى تنقل المؤن والإمدادات للصليبيين وتستولى عليها أو تدمرها (٨٠).

وأخيرا جمع الملك لويس مجلس الحرب لتقرير خطة الزحف ، وكشفت المناقشات عن انقسام شديد فى الرأى بخصوص خطة الزحف . وعلى أية حال خرجت الحملة من دمياط فى يوم السبت ٢٠ نوفمبر ١٢٤٩م / ١٢ شعبان ٦٤٧ هـ ، ورافقتها أعداد كبيرة من السفن . وسلكت الحملة نفس الطريق الذى سبق لحملة حنابرين الصليبية أن سلكته. وفى دمياط بقيت حامية صليبية قوية كما بقيت زوجة الملك لويس التاسع وهى الملكة مرجريت البروفنسالية ؛ وربما كانت وفاة الصالح نجم الدين أيوب التى حدثت فى ليلة النصف من شعبان سنة ٦٤٧ هـ / ٢٢ نوفمبر ١٢٤٩م من أهم أحداث هذه المرحلة . إذ أن وفاة ذلك السلطان أفسحت المجال لظهور قوة المماليك وعجز اليوبيين بشكل خاص . كان عمر السلطان الصالح نجم الدين أيوب حين وافته المنية أربع وأربعين سنة ، ويرى المؤرخ جمال الدين يوسف بن تغرى بردى أنه كان أعظم السلاطين الأيوبيين بعد صلاح الدين نفسه وهو أمر نوافق عليه تماما نظرا للدور الهام الذى قام به هذا السلطان فى مواجهة العدوان الصليبى . إذ يقول فيه : " ولو لم يكن من محاسنه إلا تجلده عند مقابلة العدو بالمنصورة ، وهو بتلك الأمراض المزمنة ، وموته على الجهاد، والذب عن المسلمين ، ما كان أصبره وأغزر مروءته " (٨١).

توفى السلطان بعد أن عهد بالسلطنة من بعده لابنه المعظم توران شان الذى كان شابا حديث السن قليل الخبرة . ويبدو أن السلطان رتب كل أمور الحكم مع زوجته شجر الدر ، وهو

على فراش الموت . فقد تولى الأمير " حسام الدين بن أبى على الهذبانى " نيابة السلطنة بمصر، وتولى الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ " القيادة العامة بالمنصورة ؛ وأخفت شجر الدر نبأ وفاة السلطان ، وأعلنت أن الأطباء منعوا زيارة السلطان المريض .

وفى الوقت نفسه أرسلت " شجر الدر " إلى توران شاه تحثه على الرحيل من ولايته فى حصن كيفا بأطراف العراق والقدوم إلى مصر ليعتلى عرش السلطنة بعد أبيه الراحل (٨٢).

وفى تلك الأثناء كانت قوات لويس التاسع تتخبط فى أوحال الدلتا المتخلفة عن مياه الفيضان فى الطريق إلى المنصورة . ودخلت القوات الصليبية مدينة فارسكور دون مقاومة تذكر. وتسرب خبر وفاة السلطان على الرغم من كل احتياطات " شجر الدر " . كما طار الحمام الزاجل بالأخبار المؤسفة عن سقوط فارسكور . وأخذ الرأى العام يطلب التصدى للجيش الزاحف صوب القاهرة ، وقرئت على منابر المساجد فى صلاة الجمعة رسالة كتبها الشاعر " بهاء الدين بن زهير " تحث الناس على الجهاد وتبدأ بالآية القرآنية الكريمة ﴿ انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ . وكان لهذه الرسالة أثرها الفعال من حيث توافد الإمدادات من الرجال والذخائر والمؤن على المعسكر المصرى فى المنصورة (٨٣).

وعبر النيل ، عند أشموم طناح ، (شمال شرق المنصورة) أقام الصليبيون معسكرهم فى مواجهة المعسكر المصرى . وفى خلال الأيام التى سبقت المواجهة الحاسمة بين الطرفين ، أمطر المصريون المعسكر الصليبى بوابل من القذائف الملتهبة التى عرفت فى تلك العصور باسم النار الإغريقية (وهى نوع من القنابل الحارقة فى شكلها البدائى) ، وكان لهذه القذائف أثرها من خيث تدمير الكثير من معدات الصليبيين . ومن ناحية أخرى أخذت فرق الفرسان والمتطوعين تهاجم الصليبيين بين الآونة والأخرى . واحتار الصليبيون أمام الأوحال التى حاصرتهم من كل اتجاه (٨٤).

ولكن شخصا اختلفت المصادر التاريخية حول هويته (ذكر جوانفيل أنه من البدو وذكرت المصادر العربية أنه مسيحى) دل الصليبيين على منطقة يعبرون منها إلى مكان المعسكر المصرى ، وهى منطقة عرفت باسم " مخاضة سلمون " . وبالفعل دهمت القوات الصليبية المعسكر المصرى فجأة ، وسقط قائد القوات المصرية " الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ "

صريعا بسيوف الداوية الذين أحاطوا به من كل جانب حين خرج من الحمام للقتال دون أن يلبس ملابس القتال وعدته . وبدا وكأن الهزيمة سوف تنشب مخالبها القاسية فى الجسد المصرى(٨٥).

ولكن رياح الأحداث جاءت بمالا تشتهى السفن الصليبية . ففى داخل أسوار المدينة التى أقترب منها الصليبيون ، أى مدينة المنصورة ، كان الأمير بيبرس البندقدارى ، الذى صار هو السلطان الظاهر بيبرس فيما بعد ، قد أعد خطة ماكرة للقاء الصليبيين فى رحاب المدينة الصغيرة . ووافقت على الخطة " شجر الدر " التى كانت صاحبة النفوذ الفعلى آنذاك . فقد أختبأت القوات المصرية فى عدة كمائن داخل المدينة ، على حين حبس أهالى المدينة أنفاسهم فى انتظار اللحظة التى يساهمون فيها برد غائلة العدوان ، وكانت فرقة من الصليبيين يقودهم شقيق الملك قد قصدت المدينة . ودخل فرسان الصليبيين المدينة الصامتة ، وأخذوا يتجولون فى شوارعها الخالية فى زهو وخيلاء بحثا عن الغنائم والأسلاب ، ورغبة فى القيام بواحدة من مذابحهم البشرية التى اشتهروا بها . إذا بالمماليك البحرية ، وأهل المنصورة يطبقون عليهم من كل حدب وصوب . وفى خضم المعركة اختلطت أصوات السلاح بصيحات الرعب الصادرة عن الصليبيين المذعورين . وأخذ سكان المنصورة يساعدون العسكريين فى القضاء على شراذم الصليبيين الذين بعثرتهم المفاجأة فى ثنايا المدينة وأزقتها . فقد وضع الأهالى المتاريس الخشبية والحجرية والطينية لعرقلة فرسان الصليبيين ، كما قذفوهم بشتى القذائف المنزلية من فوق أسطح البيت ومن خلال نوافذها وشرفاتها (٨٦).

وانقشع غبار المعركة عن عدد كبير من قتلى العدو . وفى مكان آخر كان الجيش الصليبى الرئيسى بالقرب من أشموم طناح يستعد للقاء الجيش المصرى الذى تولى قيادته منذ الآن الأمير ركن بيبرس البندقدارى . ولم تكن أنباء الكارثة التى جرت على طليعة الجيش الصليبى فى المنصورة يوم ٤ ذى القعدة ٦٤٧ هـ / ٨ فبراير ١٢٥٠م قد وصلت إلى أسماع الملك لويس وجيشه (٨٧).

وفى اليوم التالى لمعركة المنصورة عقد القائد العام للجيوش المصرية ، وهو الأمير فارس الدين أقطاى الصالحى مجلس حرب عرض فيه على ضباطه معطفا قصيرا كان يرتديه شقيق الملك لويس الذى قتل فى معركة المنصورة ، وقد ظن أنه معطف الملك الفرنسى نفسه . وأعلن

أن مقتل الملك الصليبى يستوجب مهاجمة جيشه بلا تردد . وبدأ الهجوم الذى تمكن الفرنج من صده بعد أن تكبدوا خسائر فادحة (٨٨).

وبعدها بعدة أيام قدم المعظم توران شاه بن الصالح لجم الدين أيوب إلى مصر فى ٢٧ فبراير سنة ١٢٥٠م . فتم إعلان وفاة السلطان رسميا ، وسلمت شجر الدر مقاليد الأمور للسلطان الشاب الذى لم يلبث أن تولى قيادة الجيوش بنفسه . ووضع خطة لإجبار الصليبيين على التسليم . فأمر بحمل عدة سفن مفككة على ظهور الجمال ثم تركيبها وإنزالها خلف الخطوط الصليبية لمهاجمة الأسطول الصليبى وأسر عدد كبير من سفنه المحملة بالمؤن والأقوات. وساءت حال الصليبيين ، وطلب لويس التاسع الهدنة وتسليم دمياط على أن يأخذ الصليبيون القدس . ولكن المصريين رفضوا هذه الشروط وفضلوا الحرب . وفى فارسكور دارت معركة رهيبة قضت على الجيش الصليبى تماما فراح أفراده بين أسير وقتيل . وتم أسر الملك لويس التاسع نفسه فى قرية منية عبد الله شمال مدينة لمنصورة . ثم نقل الملك إلى دار ابن لقمان القاضى بالمنصورة حيث بقى سجينا فترة من الزمان (٨٩).

هكذا فشلت الحملة الصليبية السابعة ، وكان للمماليك البحرية فضل كبير فى هزيمتها وقد برز زعماؤهم من أمثال فارس الدين أقطاى ، وعز الدين أيبك ، وبيبرس البندقدارى خلال المعارك التى أظهروا فيها شجاعة وقدرة عسكرية فائقة .

ولكن السلطان الأيوبى الجديد ، تورانشاه ، جاء إخفاقا أيوبيا جديدا وفشلا فى الاستجابة للتحديات التى تفرضها الظروف التاريخية . وبدلا من الانصراف لتوحيد المسلمين للقضاء على الخطر الصليبى تماما ، بدأ يحيك المؤامرات والدسائس ضد الأمراء المماليك ، وضد زوجة أبيه " شجر الدر " التى حفظت عرشه . بدلا من أن يحمد السلطان تورانشاه للمماليك دورهم، حسدهم على ما حققوه لأنفسهم من مكانة ، وسيطر عليه شعور بأنهم يزاحمونه فى حكم البلاد . وتحكى المصادر التاريخية أن تورانشاه كان فتى عنيف الأهواء ، ورث عن أبيه الكآبة والكبرياء مما نفر منه أمراء المماليك . كما يبدوأنه ارتاب فى المماليك البحرية وتوجس خيفة من نفوذهم الذى زاد وتضخم بسبب دورهم فى القتال ضد الصليبيين ومن ثم أعرض السلطان عن المماليك وقرب إليه رجاله الذين جاء بهم من الشرق (٩٠).

وقد وصف أحد المؤرخين المعاصرين السلطان تورانشاه بأنه " ... كان سيء التدبير

والسلوك ذا هوج وخفة ... " . كما حكت بعض كتب التاريخ أنه كان يسكر فى الليل ثم يخرج سيفه ويطفىء به الشموع الموضوعة أمامه واحدة فواحدة ، وهو يقول : " هكذا أفعل بالبحرية " ، ومع كل شمعة ينطق باسم واحد من زعماء المماليك البحرية . وعرف المماليك بنواياه واضمروا له السوء بدورهم . ومن ناحية أخرى ، كانت الأميرة شجر الدر هى صاحبة الفضل فى حفظ عرش السلطان الشاب ، ولكنه بدلا من أن يعترف بالجميل لهذه الأميرة القوية ذات النفوذ ، بعث إليها يتهددها ويطالبها بأموال أبيه . ولما أجابته بأن الأموال كافة قد صرفت فى شئون الحرب والحكم ، لم يقنع بهذا الجواب . وخشيت شجر الدر منه لذا سافرت إلى القدس حتى تكون بمأمن من شره . ومن هناك أرسلت الأميرة القوية للمماليك البحرية تشكو إليهم مسلك توران شاه العنيف تجاهها على الرغم من خدماتها الجليلة له وهو غائب عن مصر . وصادفت شكواها هوى فى نفوس زعماء البحرية الذين كانوا غاضبين بدورهم من السلطان الشاب لأنه حرمهم من إقطاعاتهم (٩١).

وهكذا استقر الرأى على ضرورة التخلص من آخر الأيوبيين فى مصر ، وقد لعبت شجر الدر دورا هاما فى التحريض على ذلك . وبالفعل قام بتنفيذ هذه المؤامرة أربعة من كبار أمراء المماليك هم بيبرس البندقدارى ، وقلاون الصالحى ، وأقطاى الجمدار ، وأيبك التركمانى ... وقد تولى عرش سلطنة المماليك منهم ثلاثة وقتل واحد هو أقطاى الجمدار . وفى صباح يوم الأثنين ٢٧ محرم سنة ٦٤٨ هـ / ٢ مايو ١٢٥٠م وبعد أن فرغ تورانشاه من إفطاره فى خيمته بفارسكور ، تقدم إليه بيبرس البندقدارى وضربه بسيفه ضربة تلقاها بيده فقطعت أصابعه . وجرى توراشاه ليحتمى ببرج خشبى فى معسكره على شاطىء النيل ، فأضرم المتآمرون النار فى البرج ، فنزل يجرى صوب النيل ، والسهام تناله من كل جانب ، فرمى نفسه فى المياه ولحقه أقطاى فقتله . ويقول المقريزى أنه مات " ... جريحا غريقا محترقا " (٩٢). وبموته انتهى حكم الأيوبيين فى مصر ، وبدأ حكم المماليك ... وتلك قصة أخرى .

حواشي الفصل الثالث

١ - ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤١٠ ؛ ابن واصل : نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٧٩ ؛ أبو الفدا " الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل ت ٧٣٢ هـ " : المختصر فى أخبار البشر ، بيروت بدون تاريخ طبع ، جـ ٣ ، ص ٨٧ - ٨٨ .

٢ - سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٨٧٥

Runciman : Op . cit . III , pp . 78 ; Wiet : Op . cit . p . 337 . ؛

٣ - ابن واصل : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٣٧٨ - ٣٧٩ ؛ زبو الفدا : المختصر ، جـ ٣ ، ص ٨٧

Wiet : Op . cit . p . 337 . ؛

٤ - عماد الدين الكاتب : نفسه ، ص ٣٦٤ ؛ ابن واصل : نفسه ، جـ ٣ ، ص ٣٠ ؛ ابن تغرى بردى : نفسه ، جـ ٦ ، ١٤٩.

٥ - أبو شامة : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٢٣١ - ٢٣٥ ؛ ابن واصل : نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٧٩ ؛ أبو الفدا : نفسه ، جـ ٣ ، ص ٩٠ .

٦ - المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ١٠١ - ١٠٢ ؛ هاملتون جب : نفسه ، ص ٢٠٤ ؛

Wiet : Op . cit . p . 337 .Runciman : Op . cit . III , pp .102 - 103 ; Heyd : Hist . du commerce du Levant au Moyen Age , Leipzg 1923 , Tome I , pp . 395 .

٧ - ابن واصل : نفسه ، جـ ٣ ، ص ١٦٢ - ١٦٣

Grousset : Op . cit , III , pp . 181 - 184 ؛

المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ١٦٦

Runciman : Op . cit . III , pp .102 - 103 . ؛

٨ - ابن واصل : نفسه ، جـ ٣ ، ص ٢٧١ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٢٢٧ ؛ هاملتون جب : نفسه ، ص ٢٤

Stevenson : Op . cit . p . 296 . ؛

٩ - ابن واصل : نفسه ، جـ ٣ ، ص ٢٧١ ؛ هاملتون جب : نفسه ، ص ٢٠٥

Wiet : Op . cit . p . 344 . ؛

١٠ - أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٣ ، ص ٨٧ - ٩١ ؛ ابن الوردى : نفسه ، جـ ٢ ، ص ١١٠ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ق ١ ، ص ١٢٩ .

١١ - أبو شامة : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٢٣٦ ؛ أبو الفدا : نفسه ، جـ ٣ ، ص ٩١ - ٩٢ ؛ ابن الوردى : نفسه ، جـ ٢ ، ص ١١٠ - ١١١ .

١٢ - أبو الفدا : نفسه ، جـ ٣ ، ص ٩٣ - ٩٤ ؛ ابن الوردى : نفسه ، ص ١١١ .

١٣ - أبو الفدا : المختصر ، جـ ٣ ، ص ٩٢ ؛ ابن الوردى : نفسه ، ص ١١١ - ١١٢ .

١٤ - أبو شامة : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٢٣٥ ؛ ابن واصل : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٩٣ - ٩٥ ؛ أبو الفدا : المختصر ، جـ ٣ ، ص ٩٥ ؛ ابن الوردى : نفسه ، جـ ٢ ، ص ١١٣ - ١١٥ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ١٤٩ .

١٥ - أبو شامة : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٣٦ - ٢٣٧ ، ابن واصل : نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٠٩ ؛ أبو الفدا : نفسه ، جـ ٣ ، ص ٩٨ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ١٤٩ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ١٤٧ .

١٦ - أبو شامة : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٣٧ - ٢٣٨ ؛ ابن واصل : نفسه ، جـ ٢ ، ص ١١٠ - ١١١ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ١٤٩ - ١٥٠ .

١٧ - ابن واصل : نفسه ، جـ ٢ ، ص ١١٥ - ١٢٣ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٢٢٧ .

١٨ - ابن واصل : نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٢٣ ، ١٣٦ ، ٢٥٨

Michaud : Op . cit . III , pp . 90 - 91 ; Lane . Pool : A History of Egypt ؛ in The Middle Ages , London 1925 , p . 218 .

١٩ - هـ . ا . ل . فشر : تاريخ أوربا العصور الوسطى ، نقله إلى العربية محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العرينى ، دار المعارف ، ١٩٦٩ ، ص ٢٤١ - ٢٤٣ ؛ ارنست باركر : الحروب الصليبية ، نقله إلى العربية السيد الباز العرينى ، بيروت ١٩١٧م ، ص ٩٤ - ٩٩

Setton : Op . cit II , pp . 157 - 159 . ؛

٢٠ - يوشع براور : نفسه ، ص ٧٩

Runciman : Op . cit . III , pp . 108 - 109 . ؛

٢١ - ابن واصل : نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٦٠ - ١٦٢ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٩٠٢ ؛ يوشع براور : نفسه ، ص ٧٩ - ٨٠

Grousset : Op . cit . III, p . 171 ;Runciman : Op . cit . III , pp . 112 - 115 . ؛

٢٢ - ابن واصل : نفسه ، جـ ٢ ، ص ١٧٢ - ١٧٤ ؛ نظير حسان سعداوى : الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى ، القاهرة ١٩٦١م ، ص ٦٧ - ٦٨ ؛ يوشع براور : نفسه ، ص ٨٢

Setton : Op . cit II , pp . 161 - 171 ; Stevenson : Op . cit . p . 296 . .

٢٣ - ابن واصل : نفسه ، جـ ٣ ، ص ١٦٢ - ١٦٣ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ١٦٤ ؛ يوشع براور : نفسه ، ص ٨٤ ؛ نظير حسان سعداوى : نفسه ، ص ٦٨

Grousset : Op . cit . III , p . 181 ; Setton : Op . cit 1I , pp . 532 . ؛

٢٤ - يوشع براور : نفسه ، ص ٨٢ ؛ ارنست باركر : نفسه ، ص ١٠٦

Runciman : Op . cit III , p 186 ; Michaud : Op . cit . III , p . 378 ; Setton : Op . cit. II, ؛ pp.333-334 .

٢٥ - إرنست باركر : نفسه ، ص ١٠٦ - ١٠٧؛

Setton : Op . cit II , p. 336 . .

٢٦ - ابن واصل : نفسه ، جـ ٣ ، ص ٢٥٨ ؛ نظير حسان سعداوى : نفسه ، ص ٧١ - ٧٧ ؛ ارنست باركر : نفسه ، ص ١٠٧ - ١٠٩

Runciman : Op . cit . III , pp . 167- 170 . ؛

٢٧ - سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٩٢٣ ؛ ارنست باركر : نفسه ، ص ١١٠

Runciman : Op . cit . III , pp . 159 - 163 .

٢٨ - يوشع براور : نفسه ، ص ٨٤ ؛ ارنست باركر : نفسه ، ص ١٠٨ - ١٠٩

King : op . cit . pp . 186 - 190 ; Runciman : Op . cit . III . , pp . 166 - 167 . ؛

٢٩ - ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، تحقيق د . حسنين محمد ربيع ، دار الكتب ، ١٩٧٢ ، جـ ٤ ، ص ١٥ ؛ يوشع براور : نفسه ، ص ٨٤ - ٨٥ ؛ نظير حسان سعداوى : نفسه ، ص ٧١ - ٧٤

Grousset : Op . cit . III , pp . 210 - 211 . ؛

٣٠ - ابن واصل : نفسه ، جـ ٤ ، ص ١٦ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٩٧١ ؛ يوشع براور : نفسه ، ص ٨٤

Ibid : III , p . 211 . ؛

٣١ - ابن الأثير : نفسه ، جـ ١٢ . ص ١٤٨ ؛ ابن واصل : نفسه ، جـ ٤ ، ص ١٦ - ١٧ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦٧٢ ؛ نظير حسان سعداوى : نفسه ، ص ٧٦ - ٧٨ .

٣٢ - ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٢ ، ص ٣٢٥ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٣٩ ؛ أبو الفدا ، نفسه ، جـ ٣ ، ص ١٣٠ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ١٨٩ .

٣٣ - ابن واصل : نفسه ، جـ ٤ ، ص ٣٢ - ٣٣ . ٩٣ ؛ يوشع براور : نفسه ، ص ٨٤ ؛ نظير حسان سعداوى : نفسه ، ص ٧٤ - ٧٥ ؛ Grousset : Op . cit . 11 , p . 227 ; King : Op . cit . p . 192 .

٣٤ - ابن واصل : نفسه ، جـ ٤ ، ص ١٦ - ١٧ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ١٩٥ - ١٩٧

Runciman : Op . cit . III , pp . 155 - 156 . ؛

٣٥ - ابن واصل : نفسه ، جـ ٤ ، ص ١٧ - ٣٢ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ١٩٧ - ٢٠١ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٢٣٠ - ٢٣١ .

٣٦ - ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٢ ، ص ٣٢٩ ، ٣٦١ ؛ ابن واصل : نفسه ، جـ ٥ ، ص ٩٥ ؛ أبو الفدا : نفسه ، جـ ٣ ، ص ١٢٩ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧

Michaud : Op . cit . III , p . 244 . ؛

٣٧ - ابن واصل : نفسه ، جـ ٤ ، ص ٩٥ ؛ يوشع براور : نفسه ، ص ٨٥ ؛ نظير حسان سعداوى : نفسه ، ص ٧٣ - ٧٤

Runciman : Op . cit . III , p. 161 ; Archer : Op . cit . p . 318 . ؛

٣٨ - ابن واصل : نفسه ، جـ ٤ ، ص ١٩ - ٢٠ ، ٣٢ - ٣٣ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٢٠١ ؛ يوشع براور : نفسه ، ص ٨٤ - ٨٥ .

٣٩ - ابن واصل : نفسه ، جـ ٤ ، ص ٣٣ ، ٦٤ ، ٩٢ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٢٠١ - ٢٠٧

٤٠ - ابن الأثير : الكتامل ، جـ ١٢ ، ص ١٤٨ ؛ ابن واصل : نفسه ، جـ ٤ ، ص ٩١ - ٩٥ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ١٩٥ - ٢٠١ ك ٢٠٣ - ٢٠٤ .

٤١ - ابن الأثير : الكال ، جـ ١٢ ، ص ٣٦٠ - ٣٦١ ؛ ابن واصل : نفسه ، جـ ٤ ، ص ٩٤

Michaud : Op . cit . III , p . 244 ; Lane - Pool : Op . cit . pp . 220 - 222 . ؛

٤٢ - ابن واصل : نفسه ، جـ ٤ ، ص ٩٥ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٢٠٧ ؛ نظير حسان سعداوى : نفسه ، ص ٧٨

Runicman : Op . cit . III , p . 165 . ؛

٤٣ - - المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ ؛ ابن تغرى بردى : النجوكم ، جـ ٦ ، ص ٢٤١.

٤٤ - ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٢ ، ص ٣٣٠ ؛ ابن واصل : نفسه ، جـ ٤ ، ص ٩٧ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٢٠٩ .

٤٥ - ابن واصل : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٣٥٨ ؛ وشع براور : نفسه ، ص ٨٣ - ٨٥

Lone - Pool : Op . cit . p . 218 . ؛

٤٦ - ابن واصل : نفسه ، جـ ٤ ، ص ٩٨ - ٩٩ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٢٤٢ ؛ نظير حسان سعداوى : نفسه ، ص ٧٦ - ٧٧ ؛ يوشع براور : نفسه ، ص ٨٥ .

٤٧ - ابن واصل : نفسه . جـ ٢ ، ص ٣ ، ٢٥٨ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٢٢٨ - ٢٣٢ .

٤٨ - ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٢ ، ص ٤٨٢ - ٤٨٣ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٠٥ ؛ ابن واصل : نفسه ، جـ ٤ ، ص ٢٣٣ - ٢٣٥ ؛ أبو الفدا : نفسه ، جـ ٣ ، ١٤١ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٢٢٩ ؛ ارنست باركر : نفسه ، ص ١١١

Camb . Med . Hist . Vol . 6 , p 144 . ؛

٤٩ - ابن واصل : نفسه ، جـ ٤ ، ص ٢٣٤ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٢٣٢ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٩٥٢ ؛ يوشع براور : نفسه ، ص ٨٥ - ٨٦ .

٥٠ - المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٢٢١ ، حاشية ٣ ؛ سعيد عاسشور : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٩٥٨ ؛ ارنست باركر : نفسه ، ص ١١٢ - ١١٣ ؛ يوشع براور : نفسه ، ص ٨٥

Runciman : Op . cit . 111 , p . 177 . ؛

٥١ - سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ ٢ ، ص ٤٣٣ ؛ ابن واصل : نفسه ، جـ ٤ ، ص ٢٤١ - ٢٤٤ ، ٢٤٨ ؛ يوشع براور : نفسه ، ص ٨٥ - ٨٦ ؛

Grousset : Op . cit . III , pp . 280 - 281 .

٥٢ - ابن واصل : نفسه ، جـ ٤ ، ص ٢٤٤ ؛ هاملتون جب : نفسه ، ص ٢١٦ ؛ ارنست باركر : نفسه ،

ص ١١٤ - ١١٥

Runciman : Op . cit . II , pp . 452 - 458 ; Grousset : Op . cit . II , pp . 316 - 317 . ؛

٥٣ - ابن واصل : نفسه ، جـ ٤ ، ص ٢٤٤ - ٢٤٥

Runciman : Op . cit . II , pp . 458 - 460 ; Grousset : Op . cit . II , pp . 318 - 320 . ؛

٥٤ - ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٢ ، ص ٢٢٦ ؛ سبط ابن الجوزى : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٤٣٢ ؛ ابن واصل : نفسه ، جـ ٤ ، ص ٢٤٦ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٢٠ .

٥٥ - ابن واصل : نفسه ، جـ ٤ ، ص ٢٤٦ - ٢٤٧ ؛ هاملتون جب : نفسه ، ص ٢٢٥

Runciman : Op . cit . II , pp . 452 - 458 ; Stevenson : Op . cit . , p . 314 . ؛

٥٦ - ابن واصل : نفسه ، جـ ٤ ، ص ٢٤٧ - ٢٦٨ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٢٥٤ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٦ ، ص ٣٠٠ ؛ يوشع براور : نفسه ، ص ٨٧ .

٥٧ - ابن واصل : نفسه ، جـ٤ ، ص ٣٠٣ ، ٣١١ ؛ ارنست باركر : نفسه ، ص ١١٨ - ١١٩ ؛ يوشع براور : نفسه ، ص ٨٧

Grousset : Op . cit . III , p . 374 . ; Richard : Op . cit , p . 239 . ؛

٥٨ - المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٢٩٦

Runciman : Op . cit . III , pp . 192 - 196 , Stevenson Grousset : Op . cit . III , p . 392 . ; ؛
: Op . cit . p . 317 .

٥٩ - المقريزى : السلوك ، جـ ٢ ، ص ٣٠٣ - ٣٠٥ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٦ ، ص ٣٢٢ ؛ نظير سعداوى : نفسه ، ص ١٠٣ - ١٠٤

Grousset : Op . cit . III , p . 394 ; Runciman : Op . cit . 111 , p 215 . ؛

٦٠ - المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٢١٩ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٧ ، ص ٢١١ ؛ ارنست باركر : نفسه ، ص ١٢٠ - ١٢١

Grousset : Op . cit . III , p . 303 ; Runciman : Op . cit . III , pp . 258 .؛

٦١ - ابن واصل : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٣٥٨ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٣١ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٦ ، ص ٣٢٣ - ٣٢٨

Grousset : Op . cit . III , p . 415 . ؛

٦٢ - المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٢٢ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٣٢٢ - ٣٢٣

Grousset : Op . cit . III , p . 415 ; Richard : Op . cit . p . 260 . ؛

٦٣ - المقريزى : السلوك ، جـ ٢ ، ص ٣١٧ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٣٢٣

Grousset : Op . cit . III , p . 414 ; Runciman : Op . cit . III , p . 325 . ؛

٦٤ - سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٩٩٩ ؛ نظير سعداوى : نفسه ، ص ١٠٩ - ١١٠ ؛
Grousset : Op . cit . III , p . 415 ; Stevenson : Op . cit . p . 232 .

٦٥ - أبو شامة : الذيل على الروضتين ، القاهرة ، ١٩٤٧ ، ص ١٧٨ ؛ أبو الفدا : نفسه ، جـ ٣ ، ص ١٧٢ - ١٧٥ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٣١٨ ؛ ابن تغرى بردى : نفسه ، جـ ٦ ، ص ٣٢٤

King : Op . cit . pp . 239 - 240 . ؛

٦٦ - ابن واصل : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٣٥٥ ؛ أبو الفدا : نفسه ، جـ ٣ ، ص ١٧٦ - ١٧٧ ؛ المقريزى :

الخطط ، جـ ١ ، ص ٢١٩ ؛ السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٢٧ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٧ ، ص ٢١١ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ١٠٠١ - ٦

Heyd : Op . cit . I , p . 409 - 412 . ؛

٦٧ - أبو الفدا : نفسه ، جـ ٣ ، ص ١٧٨

Runciman : Op . cit . III , p . 255 ؛

٦٨ - نظير حسان سعداوى : نفسه ؛ ١١٥ - ١١٦ ؛ ارنست باركر : نفسه ، ص ١٢٠

Atiya (A . S) : The Crusade in the Later Middle Ages , London , 1938 , p . 234 . ' ؛
Runciman : Op . cit . III , pp . 258 - 259 .

٦٩ - نظير حسان سعداوى : نفسه ، ص ١١٨

Grousset : Op . cit . III , pp . 520 - 23 ؛

٧٠ - ارنست باركر : نفسه ، ص ١٢١ - ١٢٢

Runciman : Op . cit . III , p . 258 . ؛

٧١ - نظير حسان سعداوى : نفسه ، ص ١١٥ ؛ ارنست باركر : نفسه ، ص ١٢٠ ؛ Runciman : Op . cit . III , p . 255 .

٧٢ - ابن واصل : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٢٥٨ ؛ جوانفيل : القديس لويس وحملاته على مصر والشام ، ترجمة وتعليق د . حسن حبشى ، دار المعارف ، ص ١٩٦٨ ، ص ١٠٢ - ١٠٣ .

٧٣ - أبو الفدا : نفسه ، جـ ٣ ، ص ١٧٨ - ١٧٩ ؛ جوانفيل : نفسه ، ص ٨١ - ٩٧

Runciman : Op . cit . III , p . 257 . ؛

٧٤ - ابن واصل : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٣٥٦ ؛ جوانفيل : نفسه ، ص ٩٦ - ٩٩ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٣٦ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٣٣٠

Runciman : Op . cit . III , pp . 262 - 263 . ؛

٧٥ - أبو الفدا : نفسه ، جـ ٣ ، ص ١٧٩ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٣٤ - ٣٣٥ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ١٠١٤ .

٧٦ - جوانفيل : نفسه ، ص ٩٩ - ١٠١ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٧٣

Setton : Op . cit . II , p . 97 . ؛

٧٧ - جوانفيل : نفسه ، ص ٩٧ - ١٠٣ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ١٠١٣ ،
Michaud : Op . cit . 4 , p . 144 . ; Setton : Op . cit . p . 97 . ؛

٧٨ - جوانفيل : نفسه ، ص ١٠٠ - ١٠٧ .

٧٩ - المصدر السابق ، نفسه ، ص ١٠٧ - ١٠٩ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٤٧

Grousset : Op . citr . 111 , p . 447 . ؛

٨٠ - المقريزى : المصدر نفسه ، جـ ١ ، ص ٣٤٨ .

٨١ - أبو الفدا : نفسه ، جـ ٣ ، ص ١٧٩ - ١٨٠ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٦ ، ص ٣٣٠ .

٨٢ - أبو الفدا : نفسه ، جـ ٣ ، ص ١٨٠ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٦ ، ص ٣٣٥ - ٣٣٦ .

٨٣ - المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٤٧ - ٣٤٨ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٦ ، ص ٣٢٨ .

٨٤ - جوانفيل : نفسه ، ص ١٠٩ - ١١١

Runciman : Op . cit . 111 , pp . 266 - 267 . ؛

٨٥ - جوانفيل : نفسه ، ص ١١٣ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ١٠١٩ نقلا عن العينى : عقد الجمان ، حوادث سنة ٦٤٧ هـ .

٨٦ - ابن واصل : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٣٦٦ ؛ جوانفيل : نفسه ، ص ١١٥ - ١٢٠

Runciman : Op . cit . 111 , p . 267 . ؛

٨٧ - المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٥١

Grousset : Op . cit . 111 , p . 465 . ؛

٨٨ - جوانفيل : نفسه ، ص ١١٨ - ١٢٠ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٢٥٣ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٤٦٣ .

٨٩ - ابن واصل : نفسه ، جـ ٢ ، ص ٣٦٨ ؛ جوانفيل : نفسه ، ص ١٤٥ - ١٤٧ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٥٤ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٦ ، ص ٣٦٦

Grousset : Op . cit . 111 , p . 479 ; Setton : Op . cit . 11 , pp . 487 - 518 . ؛

٩٠ - المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٥٩ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٦ ، ص ٣٧١

Setton : Op . cit . 11 , pp . 738 - 739. ؛

٩١ - ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ١ ، ص ٣٥٨ - ٣٧١

Wiet : Op . cit . p . 382 ; Runciman : Op . cit . 111 , p . 373 . ؛

٩٢ - أبو شامة : الذيل على الروضتين ، ص ١٨٥ ؛ أبو الفدا : نفسه ، جـ ٣ ، ص ١٨١ - ١٨٣ ؛ جوانفيل : نفسه ، ص ١٣٩ - ١٤٠

Wiet : Op . cit . p . 382 ؛

مصادر ومراجع :

- ابن الأثير « عز الدين أبو الحسن على ت ٦٣٠ هـ » :
- الكامل فى التاريخ ، طبع دار صار بيروت ، ١٩٦٦ م
- التاريخ الباهر فى الدولة فى الدولة الأتابكية فى الموصل ، القاهرة ١٩٦٣ م
- البندارى « الفتح بن على قوام الدين ت ٦٤٢ هـ » :
- سنا البرق الشامى ، تحقيق د . رمضان ششن ، بيروت ١٩٧١م
- ابن تغرى بردى « جمال الدين يوسف أبو المحاسن ت ٨٧٤ هـ » :
- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبع دار الكتب المصرية ، ١٩٣٩ - ١٩٧٢ م .
- ابن جبير « أبو الحسن محمد بن أحمد » :
- الرحلة ، نشر دار صار بيروت ، ١٩٦٤م .
- سبط ابن الجوزى « أبو المظفر يوسف قزاغلى ت ٦٥٤ هـ » :
- مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، تحقيق مسفر بن سالم الغامدى ، مكة ١٩٨٧ م .
- أبو شامة « شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن المقدس ت ٦٦٥ هـ » :
- كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، القاهرة ١٢٨٧هـ
- الذيل على الروضتين ، القاهرة ١٩٧٤ م
- ابن شاهنشاه الأيوبى « المنصور محمد بن تقى الدين عمر ت ٦١٧ هـ » :
- مضمار الحقائق وسر الخلائق ، نشر وتحقيق د . حسن حبشى ، ١٩٧٢م
- ابن شداد « القاضى بهاء الدين ت ٦٣٢ هـ » :
- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، طبع مطبعة الآداب والمؤيد بمصر سنة ١٣١٧ هـ .
- ابن العبرى « غريغوريوس المالطى ت ١٢٨٦م » :
- تاريخ مختصر الدول ، نشر الأب أنطوان صالحانى اليسوعى ، بيروت ، ١٩٥٨م .
- ابن العديم الحلبى « كمال الدين عمر بن أحمد ت ٦٦٠ هـ » :
- زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، نشر د. سامى الدهان ، دمشق ١٩٦٨م .
- عماد الدين الكاتب « الأصفهانى ت ٥٩٧ هـ » :
- الفتح القسى فى الفتح القدسى ، القاهرة ١٣٢٢ هـ .
- أبو الفدا « الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل ت ٧٣٢ هـ » :
- المختصر فى أخبار البشر ، ٤ أجزاء ، القاهرة ١٣٢٥ هـ .
- ابن قاضى شهبة « بدر الدين محمد ت ٨٧٤ هـ » :
- الكواكب الدرية فى السيرة النورية ، تحقيق د . محمد زايد ، بيروت ١٩٧١ م .
- ابن القلانسى « أبو يعلى حمزة ت ٥٥٥ هـ » :
- ذيل تاريخ دمشق ، نشر أمدروز ، بيروت ، ١٩٠٨ م .
- ابن كثير « الحافظ أبو الفدا ابن كثير الدمشقى ت ٧٧٤ هـ » :
- البداية والنهاية ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ١٩٨٥م .

- المقريزى « تقى الدين أحمد على ت ٨٤٥ هـ » :
- السلوك فى معرفة دول الملوك ، جـ ١ - ٣ ، نشره وحققه د . محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٥٨ م .
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، طبع بولاق ، ١٢٧٠هـ .
- النويرى « شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٢ هـ » :
- نهاية الأرب فى فنون الأدب ، جـ ٢٧ ، دار الكتب المصرية ، ١٩٨٢م .
- ابن واصل « جمال الدين محمد بن سالم ت ٦٩٧ هـ » :
- مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، أجزاء ١ - ٣ نشر جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٥٣ - ١٩٦٠ م ، أجزاء ٤ - ٥ نشر حسنين ربيع ، دار الكتب المصرية ، ١٩٧٢ - ١٩٧٧ م .
- ابن الوردى « زين الدين عمر ت ٧٥٠ هـ » :
- تاريخ ابن الوردى ، جزءان ، طبع النجف ، ١٩٦٩ م .

المراجع العربية والمعربة :

- ارنست باركر : الحرب الصليبية ، نقله إلى العربية السيد الباز العرينى ، بيروت ، ١٩٧١م .
- جوانفيل : القديس لويس وحملاته على مصر والشام ، ترجمة وتعليق د . حسن حبشى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٨م .
- رنسمان « ستيفن » : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى ، بيروت ، ١٩٦٩م .
- سعيد عبد الفتاح عاشور « دكتور » :
- الحركة الصليبية ، جزءان ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٣م .
- الناصر صلاح الدين ، سلسلة أعلام العرب ٤١ ، القاهرة ، ١٩٦٥م
- الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ، القاهرة ، ١٩٧٠ م .
- هـ . ا . ل فشر : تاريخ أوربا العصور الوسطى ، نقله إلى العربية محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العرينى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٩م .
- المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، نشر وتحقيق د . حسن حبشى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٥٨م .
- نظير حسان سعداوى « دكتور » : الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى ، القاهرة ، ١٩٦١م .
- السير هاملتون جب : صلاح الدين ، دراسات فى التاريخ الإسلامى ، بيروت ، ١٩٧٣ م .
- يوشع براور : عالم الصليبيين ، ترجمة وتعليق د . قاسم عبده قاسم ، دار المعارف ، ١٩٨١ م .

المصادر والمراجع الأجنبية :

1 - Archer (T) : The Crusades , London , 1894 .
2 - Atiya (A . S) : The Crusades in the Later Middle Ages , London , 1938 .
3 - Baldwin : Crusades I , Philadelphia , 1955 .
4 - Camridge Med . Hist . , Cambridge , 1957 .
5 - Grousset : Histoire des croisades et du Royaume France de Jerusalem , 3 vols . , Paris , 1943 .
6 - Heyd : Histoire du commerce du Levant , 2 vols . , Liepzig , 1936 .

7 - King : The Kinghts Hospitallers in the Holy Land , London , 1931 .
8 - Lane - Pool : A History of Egypt in the Middle Ages , London , 1925 .
9 - Michaud : Hist . des croisades , 5 vols , Paris , 1817 .
10 - Richard : Le Royaume Latin de Jerusalem . Paris , 1933 .
11 - Runciman : A History of the Crusades , 3 Vols . , Cambridge 1957 .
12 - Setton : A History of the Crusades , 2 vol . , Pensylvania , 1958 .
13 - Stevenson : The Crusaders in the East , Cambridge , 1907 .
14 - Wiet (G) : L . Egypte Arabe , Paris , 1937 .
15 - William of Tyre : History of Deeds Done Beyond th Seas ,translated by Emily Atwater Babcok , 2 vols . , New york , 1943 .

القسم الثانى

عصر سلاطين المماليك

(٦٤٨ - ٩٢٢ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م)

الفصل الأول

نهاية وبداية

الفترة الإنتقالية بعد تورانشاه - شجر الدر أول سلاطين المماليك - أيبك والنزاع الداخلى - تبلور النظرية السياسية لحكم السلاطين المماليك - التطورات الداخلية وظهور قطز - معركة عين جالوت ونتائجها - بيبرس المؤسس الحقيقى للدولة .

تبددت دماء تورانشاه مع موجات نهر النيل ، ومعها تبددت آخر مظاهر السلطة الأيوبية الفعلية فى مصر ؛ وإن بقى لها ظلٌ يتوارى خجلاً إلى جانب الأضواء التى فرضت نفسها على مسرح التاريخ آنذاك . ولكن بقايا الأسرة الأيوبية توزعت على بعض الإمارات الصغيرة المتنافسة فى بلاد الشام وأعالى العراق . وكان من الطبيعى أن تراود أولئك الأيوبيين أطماع الجلوس على عرش مصر الذى كان شاغراً بعد مصرع تورانشاه ؛ بيد أن الفرق بين الرغبة والقدرة كان شاسعاً فى حالة الأيوبيين الأواخر .

من ناحية أخرى كان الأيوبيون الأواخر قد فقدوا كافة مبررات البقاء فى حكم المنطقة العربية بعد أن تخلوا عن دورهم التاريخى الذى بدأه صلاح الدين الأيوبى والذى حاول الصالح نجم الدين أيوب استعادته على الرغم من قسوة المرض . فقد أسس صلاح الدين دولته على أساس مبدأ الجهاد ضد الصليبيين ، وكان ذلك هو سبب التفاف أبناء الأمة من حوله ، وإضفاء الشرعية على حكمه . ولكن ورثته فى حكم المنطقة العربية كانوا تجسيداً للإخفاق فى فهم دورهم التاريخى على النحو الذى أتاح للقوى الصليبية فرصة ذهبية لالتقاط الانفاس ، بل والتخطيط لمشروعات صليبية جديدة عطلت طاقات الأمة العربية الإسلامية أكثر من مائة سنة أخرى . وكان السلطان الكامل الأيوبى ، الذى سلم مدينة بيت المقدس للإمبراطور فردريك الثانى هوهنشتاوفن مقابل هدنة مدتها عشر سنوات ، أبرز تجسيد للإخفاق الأيوبى فى مواصلة سياسة صلاح الدين الجهادية .

على أية حال ، فشل الأيوبيون فى الاستجابة للتحدى السياسى العسكرى الذى أفرزه

الوجود الصليبى على الأرض العربية ، وتقاعسوا عن القيام بدورهم التاريخى بعد وفاة السلطان الشجاع ، الصالح نجم الدين ، فى خضم صراعه ضد جيش الملك الفرنسى لويس التاسع على أرض دلتا مصر . ولم يكن هناك بين الجالسين على العروش الأيوبية الصغيرة من يستطيع أن يملأ الفراغ السياسى الناجم عن غياب الصالح نجم الدين . ومن طيات هذا الفراغ السياسى برز فرسان المماليك ، بفضل كفائتهم العسكرية أولاً ، ثم قدرتهم على إدارة دفة السياسة فى تلك الفترة الحرجة من تاريخ مصر والمنطقة العربية ثانياً . وقبل أن نتعرض للظروف التى أدت إلى قيام دولة سلاطين المماليك فى مصر والشام يحسن بنا أن نشرح ، فى إيجاز ، بعض الجوانب المتعلقة بالمصطلح من ناحية ، وبروز المماليك قوة سياسية عسكرية على مسرح الأحداث من ناحية أخرى .

ومصطلح " المماليك " (ومفردها مملوك) يشى بالعبودية والرق . وقد كان المماليك من الرقيق الأبيض بالفعل ؛ بيد أنهم كانوا رقيقاً من نوع خاص . إذ كانوا هم الرقيق الأبيض الذى اعتمد عليهم حكام الشرق الإسلامى ، لاسيما فى مصر والشام ، فى منافساتهم وصرعاتهم الداخلية فى غمار الفوضى السياسية التى سادت عقب وفاة السلطان الناصر صلاح الدين مؤسس الأسرة الأيوبية . فقد كان الأيوبيون أصحاب العروش الصغيرة المتنافسة يشترون المماليك صغاراً فى سن الطفولة من تجار الرقيق ، ويعهدون بهم إلى من يعلمهم العربية ويلقنهم مبادىء الدين الإسلامى ، ثم يتدربون على الحياة العسكرية بحيث يضمنون لهم قدراً عالياً من الكفاءة العسكرية والولاء الشخصى لسيدهم ، وبهذا يكونون قوة وسندا له فى الصراعات والمنافسات الداخلية بين أبناء الأسرة الأيوبية . ومع ازدياد أعداد المماليك فى جيوش أولئك الحكام من ناحية ، وتصاعد أهميتهم فى الحياة السياسية الأيوبية من ناحية أخرى ، برزت أهميتهم فى دوائر الحكم فى مصر وبلاد الشام بشكل مطرد منذ أخريات القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) .

وفى زمن كان للقوة العسكرية الدور الأكبر فى حسم مصائر الحكام والمحكومين ، بدأ فرسان المماليك يتقدمون رويداً حتى صار وجودهم مرادفاً للقوة العسكرية والقدرة السياسية . وربما يكون السلطان الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧ - ٦٤٧ هـ / ١٢٤٠ - ١٢٤٩ م) هو المسئول عن ازدياد أعداد المماليك ، ونفوذهم بالتالى ، بالشكل الذى أدى إلى استيلائهم على

الحكم عقب وفاته . ذلك أن تجاربه مع الجنود المرتزقة من الخوارزمية والأكراد علمته أن الاعتماد على الجنود المرتزقة أمر غير مأمون العاقبة ، ولذلك اشترى عدداً كبيراً من المماليك الذين دربهم لكي يصيروا القوة الضاربة فى جيشه (١) . إذ يقول المؤرخ تقى الدين المقريزى : " والملك الصالح هو الذى أنشأ المماليك البحرية بديار مصر ، وذلك أنه لما مرَّ به ما تقدم ذكره (٢) ... فلما استولى على مملكة مصر أكثر من شراء المماليك ... " . وكان أولئك المماليك من عناصر وأجناس مختلفة من الأتراك والمغول والصقالية والألمان والأسبان واليونان والجراكسة ... وغيرهم . بيد أن غالبيتهم فى عصر الدولة المملوكية الأولى كانوا من العناصر التركية المجلوبة من بلاد القفجاق والقوقاز ، على حين كانت غالبيتهم من الأتراك الجراكسة فى الدولة الثانية .

وهنا ينبغى أن نلاحظ أن دولة سلاطين المماليك جاءت استمراراً لدولة بنى أيوب باعتبارها إفرازاً سياسياً / عسكرياً للواقع التاريخى الذى كان يعيشه العالم العربى الإسلامى آنذاك . فقد كان العالم الإسلامى يتعرض لضربات موجعة فى الأندلس غرباً عندما نجح المسيحيون الأسبان فى تقليص المساحة العربية على خريطة أسبانيا ، وفى الشرق كانت قعقعة حوافر الخيول المغولية تقترب من بغداد عاصمة الخلافة العباسية ؛ وفى فلسطين كانت بقايا مستوطنات الفرنج ماتزال قائمة تهدد المنطقة العربية ، كما كانت شراذم الحملة الصليبية السابعة على أرض الدلتا تجسيدا لفشل آخر مشروعات الغرب الكاثوليكى ضد العرب والمسلمين .

كانت تلك الظروف تستوجب قيام دولة موحدة ، على غرار دولة صلاح الدين ، تقود الأمة فى مواجهة الأخطار القادمة من الشرق والغرب . ولم يكن هناك بين الأيوبيين العاجزين ، الذين انغمسوا فى منازعاتهم ومنافساتهم ، من يستطيع أن يقوم بهذا الدور التاريخى . وكانت أحداث الحملة الصليبية السابعة التى قادها لويس التاسع ضد مصر سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م فرصة لإبراز أهمية فرسان المماليك العسكرية . إذ أن المماليك ، بقيادة بيبرس وبمساعدة المتطوعين من المصريين والعرب ، أنزلوا ضربة قاصمة بالحملة وأسروا الملك وكبار مساعديه فى معركة واحدة (٣) . وحين لم يجد المماليك أحداً ، من الرؤوس الأيوبية المتوجة ، يستطيع كبح جماحهم ويخضعهم لقيادته ، قرروا حل المشكلة المتعلقة بالعرش الأيوبى على

طريقتهم. وهكذا ، ظهر في الأفق السياسي ، مرة أخرى ، المبدأ الذي قال به العادل الأيوبي ذات مرة « الحكم لمن غلب » .

كانت الخطوة الأولى خطوة انتقالية ، إذ اختار المماليك أرملة السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، الأميرة " شجر الدر " لتتولى عرش السلطنة الشاغر . ولما كانت هذه السيدة جارية تركية (أو أرمينية) اشتراها السلطان الراحل ثم أعتقها وتزوجها ، فقد اعتبرها بعض المؤرخين المعاصرين أولى سلاطين المماليك في مصر . ويقول تقي الدين المقريزي : " وهذه المرأة شجر الدر ، هي أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك ... " (٤).

وعلى الرغم من أن " شجر الدر " قامت بدور بطولي بعد موت زوجها في خضم الصراع ضد الصليبيين وملكهم لويس التاسع ؛ فان الرأى العام في مصر والعالم العربي الإسلامي لم يكن ليقبل بقيام إمرأة بتولى زمام الحكم . ذلك أن النظرية السياسية الإسلامية تستوجب أن يكون الحاكم رجلاً . وقد رفض الخليفة العباسي الاعتراف بالسلطانة الجديدة ، كما اتسمت ردود فعل الأيوبيين ببلاد الشام بالعصبية ورفضوا الاعتراف بهذا التتويج . من ناحية أخرى ، حاولت شجر الدر أن تحكم باعتبارها أم ولد ، ونسبت نفسها إلى زوجها وإلى الخليفة المستعصم العباسي ، ونقشت على العملة التي سكتها عبارة « المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة خليل أمير المؤمنين » (٥).

قبضت شجر الدر على زمام الحكم بيد من حديد . وهو ما يبرر وصف أحد المعاصرين لها بأنها " إمرأة صعبة الخلق ، شديدة الغيرة ، ذات شهامة زائدة ، وحُرمة وافرة ، سكرانة من خمرة التيه والعجب ... " . وقد وجهت اهتمامها الأول للتخلص من بقايا الحملة الصليبية السابعة . فقد كانت الملكة الفرنسية مرجريت تقيم بدمياط مع الحامية على حين كان زوجها وكبار أمرائه رهن الأسر في دار ابن لقمان بالمنصورة ، ومعهم إثنى عشر ألفا ومائة وعشرة من الأسرى الفرنج . ودارت المفاوضات التي انتهت بالاتفاق على فدية قدرها ثمانمائة ألف دينار يدفع الملك الأسير نصفها قبل رحيله ، والباقي بعد وصوله إلى عكا . وجمعت الملكة الفرنسية مبلغ الفدية ، ثم رحلت إلى عكا ومعها ابنها الذي ولدته بدمياط ، وأطلقت عليه إسم جان تريستان (وليد الأحزان) بسبب ما جرى على أبيه وحملته الخائبة . وتم تسليم دمياط للمصريين في السادس من يونيو ١٢٥٠م ، وفي اليوم التالي أبحر لويس التاسع إلى

عكا [٦]؛ ومن رحم هذه النهاية التعسة للحملة الصليبية السابعة ولدت دولة سلاطين المماليك.

أخذت السلطانه شجر الدر تتقرب إلى الخاصة والعامة من رعاياها ، ولكن الرأى العام صدمته حقيقة أن إمرأة تجلس على عرش البلاد ، وهو الأمر الذى كان يناقض اتجاهات الثقافة السائدة من ناحية ، والتراث السياسى من ناحية ثانية ، والنظرية السياسية الإسلامية من ناحية ثالثة . وعبر المصريون عن غضبهم من خلال المظاهرات والاضطرابات التى سادت جميع أنحاء العاصمة مما اضطر السلطات إلى إغلاق أبواب القاهرة حتى لا تنتشر مظاهر السخط إلى مناطق أخرى . وبطبيعة الحال عارض المتعلمون والمثقفون تولى شجر الدر ؛ وألفت الكتب والرسائل التى تتحدث عن البلايا والمصلاتب التى تحل بالمسلمين إذا حكمتهم إمرأة وكان كتاب " عز الدين بن عبد السلام " ، أبرز قادة الرأى العام فى مصر آنذاك ، فى هذا الموضوع مثالاً صارخاً على إتجاهات الفكر والثقافة السائدة .

وإذ جاء رد الخليفة العباسى برفض المساندة الشرعية لحكم شجر الدر حاسماً ساخراً " إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نُسيِّر إليكم رجلاً " ، أدرك المماليك والسلطانة أنهم يسبحون ضد تيار عارم لابد وأن يغرقهم فى طياته ، وبعد ثمانين يوماً تنازلت شجر الدر عن الحكم لواحد من أمراء المماليك كانت قد اختارته زوجاً لها هو عز الدين أيبك التركمانى الصالحى الذى تولى العرش تحت إسم " الملك المعز " .

تولى المعز أيبك الحكم فى يوم السبت آخر شهر ربيع الآخر ٦٤٨ هـ / يوليو ١٢٥٠م . وقد وافق أمراء المماليك الأقوياء على هذا الرجل لأنهم اعتقدوا أنه ضعيف يسهل عزله إذا ما تم حسم الصراع لصالح أحد الكبار الأقوياء ، مثل أقطاى وبيبرس وقلاون . فقد قال بعضهم "... ومتى أردنا صرفه أمكننا ذلك لعدم شوكته ... " . بيد أن تصرفات هذا السلطان فى مواجهة الصعاب والمشكلات الخارجية والداخلية التى اكتنفت حكمه ، أثبتت أنهم أسرفوا فى الاستهانة به .

على الحدود الشمالية الشرقية كان الخطر الأيوبى والخطر الصليبى ماثلين ؛ إذ تجمع الأيوبيون تحت راية الملك الناصر يوسف حاكم دمشق ،وحلب لاسترداد مصر من المماليك . وفى مناورة سياسية لم تثمر كثيراً ، حاول المماليك بزعامة أيبك أن يضفوا قدرا من الشرعية على حكمهم " ... لا يستقيم لنا الأمر إلا أن نُملّك أحداً من بنى أيوب ، فاتفق أمرهم على موسى

بن الملك المسعود أقسس بن السلطان الملك الكامل ، وكان صغير السن فأقاموه..."(٧). بيد أن هذه المحاولة لم تُخمد نيران الغضب والطمع فى صدور الأمراء الأيوبيين الذين لم يروا فى المماليك سوى حفنة من الغاصبين الذين استولوا على مصر ، درة الأملاك الأيوبية . وكان لابد للسيوف من أن تحسم الصراع لصالح أحد الطرفين . وهكذا لاح فى الأفق السياسى ، مرة أخرى ، مبدأ « الحكم لمن غلب » .

ومن جديد أثبت الأيوبيون الأواخر أنهم تخلوا عن الدور التاريخى الذى كان سبباً فى ظهور دولتهم . فقد حاول الناصر يوسف الأيوبى التحالف مع لويس التاسع ، الذى كان ما يزال مقيماً بالشام ، ضد سلطنة المماليك الوليدة . ومرة أخرى كان ثمن التحالف المطلوب مع الملك الصليبى هو مدينة بيت المقدس . ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل .

على أى حال هاجم الأيوبيون ، ودخلت قواتهم الأراضى المصرية . وبالقرب من العباسة (قرب مدينة الصالحية فى محافظة الشرقية بمصر) دارت المعركة بين المماليك بقيادة عز الدين أيبك ، والأيوبيين بقيادة الناصر يوسف فى يوم الخميس عاشر ذى القعدة سنة ٦٤٨ هـ . وكانت الهزيمة من نصيب الأيوبيين . ولم تكن هذه المعركة نهاية المطاف بالنسبة للصراع بين المماليك فى مصر وبنى أيوب ببلاد الشام ، إذ استمر هذا الصراع حتى تم القضاء على المقاومة الأيوبية بشكل نهائى فى عهد السلطان الظاهر بيبرس (٨).

وواصل أيبك الحرب ضد الأيوبيين فى بلاد الشام ، ولكن الخليفة العباسى تدخل بين الطرفين وتم عقد الصلح بين الملك الناصر صاحب الشام والملك المعز صاحب مصر بوساطة الشيخ نجم الدين البادرائى مبعوث الخليفة المستعصم بالله العباسى سنة ٦٥١هـ / ١٢٥٣م . ومن الجدير بالملاحظة أنه فى أثناء المفاوضات بين الطرفين رفض المماليك أن تكون للناصر حقوق السكة والخطبة بمصر ، ونُسب إليهم أنهم قالوا : " نحن خلصنا مصر والشام بسيوفنا من أيدى الفرنج ، ولا صلح بيننا إلا أن يكون لنا من غزة إلى العقبة "(٩) . مرة أخرى يتأكد مبدأ « الحكم لمن غلب » أساساً للحكم .

هكذا كان الصلح بين الطرفين فشلاً لمشروعات لويس التاسع الذى وجد فى نزاعهما فرصة لتقوية مركزه . ولم يجد مفراً من العودة إلى بلاده سنة ١٢٥٤م (١٠).

لقد كان صدى طبول الحرب التتارية هو الدافع الحقيقى وراء المبادرة التى قامت بها الخلافة العباسية ، إذ اقتربت الجحافل التترية من حدود الخلافة الشرقية وأراد الخليفة أن يوحد القوى المتصارعة فى مواجهة الخطر القادم من الشرق ، ولكن الخليفة العباسى لم يكن يملك من القوة العسكرية والنفوذ السياسى ما يمكنه من تحقيق هدفه . بيد أن أهم نتائج هذه الاتفاقية كانت اعتراف الأيوبيين بشرعية حكم المماليك ، وقبولهم اقتسام مناطق السيادة مع السلطان المملوكى فى بلاد الشام (١١).

من ناحية أخرى ، واجه أيبك مصاعب الاعتراف بشرعية حكمه فى مصر من جانب البدو الذين كانوا يحتقرون المماليك لأنهم كانوا عبيداً فى طفولتهم ، وتمثل هذا الرفض فى ثورتهم التى تزعمها " حصن الدين بن ثعلب " ، أحد شيوخهم ، وكان يزعم أنه من نسل على بن أبى طالب . وثمة عبارة ينسبها المؤرخون إلى هذا الرجل ،هى : " نحن أصحاب البلاد ، بل وإنَّا أحق بالملك من المماليك ، وقد كفى أنَّا خدمنا بنى أيوب وهم خوارج خرجوا على هذه البلاد" (١٢) . هذه العبارة تفسر لنا النقص الأساسى فى شرعية الدولة الناشئة من وجهة نظر المعاصرين تجاه المماليك ، وعدم الاعتراف بشرعية حكمهم . وقد سبب البدو المتمردين الكثير من المتاعب فى أنحاء البلاد ؛ ولكن براعة المماليك العسكرية تكفلت بهم . وعلى الرغم من أن " عز الدين أيبك " تمكن من القضاء على هذه الحركة فان الدولة الناشئة كانت ماتزال بحاجة إلى تثبيت شرعيتها ... ولم يحدث هذا سوى فى عصر السلطان الظاهر بيبرس .

حين استقر الأمر على الجبهة الخارجية (الأيوبيون) وعلى الجبهة الداخلية (البدو) كان ما يزال على أيبك أن يواجه المتاعب من داخل القصر ومن رفاقه المماليك الذين كان زعماؤهم يرون فى عرش السلطنة جائزة يفوز بها الأقوى والأقدر على الإيقاع بالآخرين . وقام المعز أيبك بخلع السلطان الأيوبى الطفل ، وقبض عليه وسجنه ، ثم نفاه سنة ٦٥٢ هـ إلى القسطنطينية .

ولم يقدم المعز على هذا التصرف سوى بعد أن تخلص من غريمه فارس الدين أقطاى ، الذى كان زعيماً للمماليك البحرية . وقد بالغ فى احتقار أيبك والاستهانة به بحيث كان يناديه باسمه مجرداً من أى ألقاب . ومن ناحية أخرى أظهر أيبك حصافة وبعد نظر سياسى حين أنشأ فرقة خاصة من المماليك هم " المماليك المعزية " لمواجهة نفوذ المماليك البحرية . وكشف أقطاى عن أطماعه فى رعونة شديدة حين جعل أصحابه ينادونه بلقب " الملك الجواد " ، كما سعى إلى

الزواج من إحدى أميرات البيت الأيوبى ؛ وهى أبنة الملك المظفر تقى الدين محمود ملك حماة . وعندما طلب فارس الدين أقطاى الإقامة بالقلعة أدرك أيبك أن المماليك البحرية يسعون إلى عزله ، وبات الصدام بين الطرفين مسألة وقت . وفى يوم الأربعاء ٣ شعبان سنة ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤ م طلب أيبك من أقطاى الحضور إلى القلعة لكى يستشيره فى بعض الأمور . وفى قاعة العواميد ، كبرى قاعات القلعة ، تم اغتيال أقطاى . وحين شاع فى القاهرة نبأ اغتيال أقطاى هرع المماليك البحرية بقيادة بيبرس وقلاون إلى القلعة ، ولكن رأس أميرهم التى ألقيت إليهم من فوق أسوار القلعة أنبأتهم بما جرى ؛ فهرب من تمكن منهم إلى بلاد الشام طلباً لحماية ملوك بنى أيوب وملوك سلاجقة الروم .

هكذا أثبت زيبك قدرة فائقة فى صراع السلطة ، وانتصر على المماليك البحرية ؛ ولكن متاعبه لم تنته إلاّ بمصرعه فى مؤامرة دبرتها زوجته " شجر الدر " فقد كانت هذه المرأة الصلبة التى ذاقت طعم السلطة غير قادرة على أن تقبع فى كنف زوجها السلطان . وكان من الصعب عليها أن تتخلى عن السلطة التى مارستها بالفعل على مدى ثمانين يوماً هى طول سلطنتها على الديار المصرية . وزاد من ضراوة هذه المرأة ، التى وصفها المعاصرون بأنها " صعبة الخلق قوية البأس " ، أنها علمت أن زوجها السلطان يسعى للزواج من إحدى أميرات البيت الأيوبى . وبدأت " شجر الدر " توثق علاقاتها بالمماليك البحرية ؛ سواء من بقى منهم فى مصر أو من ظل مقيماً فى منفاه الاختيارى ببلاد الشام . وبدأ كل من أيبك وشجر الدر يتربص بالآخر . وحاكت السلطانة السابقة مؤامرة محبوكة الأطراف ، انتهت بمصرع المعز أيبك على أيدى مجموعة من غلمان شجر الدر فى الحمام .

وحين ذاع الخبر أسرع المماليك المعزية إلى القصر رغبة فى الإنتقام من شجر الدر . وبالفعل تم القبض على شجر الدر حيث حملها المماليك إلى ضرتها ، زوجة المعز الأولى وأم ولده على ؛ فأمرت جواريها " ... فضربها الجوارى بالقباقيب إلى أن ماتت وألقوا بها من سور القلعة إلى الخندق ، وليس عليها سوى سروال وقميص ، فبقيت فى الخندق أياماً ... ثم دفنت ... "(١٣).

هكذا كان العنف والدم هو الطريق إلى العرش منذ بداية عصر سلاطين المماليك . ويجدر بنا أن نشير إلى أن ظروف قيام سلطنة المماليك من ناحية ، والوضعية القانونية للمماليك الذين " مسهم الرق " من ناحية ثانية ، قد حددت أبعاد النظرية السياسية لتلك الدولة . وهو

ما يعنى أن المفاهيم السياسية لدولة سلاطين المماليك كانت نتاجا لظروف قيام الدولة ، وحقيقة أن أولئك السلاطين لم يكونوا أبناء أسرة حاكمة ، بل إنهم لم يكونوا أحراراً فى حياتهم الباكرة. ويمكن بلورة هذه المفاهيم السياسية فى أن أمراء المماليك اعتقدوا منذ البداية أن عرش البلاد حق لهم جميعاً يفوز به أقواهم وأقدرهم على الإيقاع بالآخرين . وهو الأمر الذى تأكد منذ بداية الدولة ؛ سواء فى مصرع أيبك وشجر الدر ، على نحو ما رأينا ، أو فى سلسلة الأحداث التالية كما سنرى . وهكذا تقرر منذ البداية مبدأ " الحكم لمن غلب " أساساً للبناء السياسى للدولة .

على أية حال ، صمم المماليك المعزية على أن يقيموا على العرش الشاغر سلطاناً صبيا ، هو نور الدين على ، ابن سيدهم المعز أيبك . وتم ذلك فى ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧م، ولقبوه الملك المنصور ، وكان عمره آنذاك خمس عشرة سنة . وقد رفض المماليك البحرية الاعتراف بالسلطان الصبى ، وتجسّد رفضهم فى عدة إضطرابات عاصفة . واستنجدت بعض الفئات المتنازعة بملوك بنى أيوب فى بلاد الشام ، وحاول المغيث عمر صاحب إمارة الكرك (فى الأردن حاليا) غزو مصر مرتين ولكن الهزيمة كانت من نصيبه (١٤).

كان جلوس السلطان الصبى على العرش مسألة قُصد بها كسب الوقت حتى يمكن لواحد من الأمراء المتنافسين أن يحسم الصراع لصالحه . وكان هذا مشهدا تكرر كثيراً طوال عصر سلاطين المماليك ؛ بل إننا لا نبالغ حين نقول إن هذه كانت ممارسة سياسية حظيت باعتراف الجميع طوال عصر سلاطين المماليك . ومن المهم أن نشير إلى أن المماليك لم يؤمنوا بنظام وراثة العرش ؛ بيد أن طبيعتهم العسكرية من ناحية ، وشعورهم بالمساواة فيما بينهم من ناحية أخرى ، جعل كبار أمرائهم يعتقدون أنهم جميعا يستحقون العرش الذى يفوز به أقواهم تحقيقاً لمبدأ « الحكم لمن غلب » . وكانت النتيجة الطبيعية لهذا الموقف أن ظل عرش السلطنة دائما ، محل التنافس والمنازعات بين كبار الأمراء ، لاسيما عندما يخلو العرش بسبب وفاة السلطان القائم .

وبينما كان النزاع حول السلطان الصبى قائماً ، كان صدى طبول الحرب التى شنها المغول على شرق العالم الإسلامى يتردد على حدود السلطنة المملوكية ، ولم يكن بوسع السلطان الصبى أن يفعل شيئا إزاء هذا الخطر الداهم ؛ فقد كان يقضى وقته فى ركوب الحمير والتنزه

بها داخل القلعة . واقترب الخطر عندما كانت الجحافل المغولية قد اقتحمت بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، وها هى رُسُلهم تصل إلى القاهرة تحمل رسالة تفيض وقاحة واستعلاء وتهديداً من هولاكو .

ولنتوقف قليلاً أمام قصة المغول ...

فقبل حوالى نصف قرن من الزمان كان « جنكيز خان »* قد استطاع أن يبنى إمبراطورية مترامية الأطراف ، امتدت حدودها من بحر قزوين حتى شواطىء الصين . ومنذ القرن الثالث عشر الميلادى ، كانت جموع القبائل التترية قد خرجت من موطنها بمناطق الاستبس فى وسط آسيا ، وأخذت تجتاح البلاد القريبة حتى تمكنت من بناء إمبراطورية امتدت من كوريا إلى بولندا . ومن تونكين إلى البحر المتوسط .

كان أول صدام بين المغول والعالم الإسلامى فى سنة ٦١٦ هـ / ١٢١٩ م عندما أغاروا على بلاد السلطان « علاء الدين محمد بن خوارزم شاه تكش »(١٥) . وبعد ذلك بخمس سنوات ، وصلت قواتهم إلى مدن « قُم » و « قاشان » و « همذان » فى فارس ؛ ولكن السلطان جلال الدين خوارزم شاه – الذى كان قد اعتلى عرش بلاده آنذاك – استطاع أن يسترد منهم هذه المناطق . ثم نشب خلاف بين هذا السلطان والخليفة العباسى الناصر لدين الله، وهاجم جلال الدين أراضى الخلافة العباسية . وفى الثانى من شهر شوال سنة ٦٢٢ هـ توفى الخليفة العباسى ؛ ولكنه كان قد ارتكب خطأ فاحشاً قبل وفاته . إذ استعان بالتتر (المغول) ضد السلطان جلال الدين خوارزم شاه الذى كانت مملكته هى الوحيدة القادرة على التصدى للمغول .

من ناحية أخرى ؛ مات جنكيز خان سنة ٦٢٥ هـ / ١٢٢٨ م ، وقبل وفاته كان قد قسَّم إمبراطوريته الشاسعة بين أبنائه الأربعة . وبعد ذلك بسنوات ثلاث كان التتر قد قضوا تماماً على مملكة جلال الدين خوارزم شاه (كرمان الحالية فى جنوب جمهورية إيران الإسلامية) واختفى السلطان هرباً من سيوف التتر (١٦) . وكان سقوط هذه المملكة نذيراً بالخطر المحدق بالخلافة العباسية نفسها . وأرسل الخليفة المستنصر بالله العباسى يستنجد بملوك بنى أيوب فى مصر والشام ، كما بعث رسائله يطلب نجدة القبائل العربية . وفى ذلك الحين كانت جحافل التتر قد وصلت إلى أعالى العراق واستولت على بعض الأقاليم الخاضعة لدولة الخلافة . وإذ

كانت الجيوش التترية أداة عسكرية ضخمة بالمقارنة إلى الجيوش الصغيرة لحكام المنطقة ، كان طبيعيا أن تطوى بلدان الشرق بسرعة هائلة (١٧).

مرة أخرى أرسل الخليفة العباسي يستنجد بالأيوبيين . وبالفعل أرسل السلطان الكامل الأيوبى مساعدة مالية كبيرة ، كما أمر بارسال نجدة عسكرية قوامها عشرة آلاف رجل من مصر والشام (١٩). وفى سنة ٦٣٥ هـ شن التتر هجومهم الأول على بغداد ؛ ولكن الهزيمة الشنعاء التى لحقت بهم جعلتهم ينسحبون مخلّفين وراءهم أعداداً كبيرة من القتلى . بيد أن هذه لم تكن نهاية القصة .

وهنا ينبغى أن نتوقف قليلاً لنتأمل أسباب نجاح المغول فى مواجهة الضعف الإسلامى . ففى الوقت الذى كان التتر يتوسعون على حساب الدول الإسلامية فى المشرق ، كانت الخلافة العباسية ظلاً باهتاً لايمت بصلة لأيام المجد الأولى ، كما أن الدول الإسلامية الأخرى كانت إخفاقاً متكرراً ، أما الأيوبيون الذين تشرذموا فى عدة إمارات وممالك هزيلة ، فكانوا مشغولين بأنفسهم وحروبهم الصغيرة بحيث لم يكن لهم وزن سياسى أو عسكرى .

وفى سنة ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م اجتمع مجلس رؤساء التتر (القوريلاى) فى عاصمتهم (قراقورم) وانتخبوا منكو خان بن تولاى بن جنكيز خان ليكون هو الخان الأعظم . وفى السنة التالية أرسل منكو خان حملتين ؛ إحداهما توجهت إلى الصين ، والثانية توجهت غرباً صوب الأراضى الإسلامية . وكانت هذه الحملة تهدف إلى تحقيق هدفين رئيسيين : القضاء على طائفة الإسماعيلية ، وتدمير الخلافة العباسية فى بغداد .

وتولى هولاكو قيادة الحملة الثانية . وفى مناطق ديار بكر وميافارقين ارتكب التتر مذابح مهولة راح ضحيتها آلاف من السكان ، وتركوا وراءهم من قصص الرعب والفزع ما جعل المعاصرين يصورنهم فى صورة وحش أسطورى لا يمكن قهره . وفى فبراير سنة ١٢٥٤ م دخل هولاكو بقواته إلى أراضى فارس حيث قضى على قلاع الشيعة الإسماعيلية ، وأخذ يمهد للقضاء على الخلافة العباسية . وتشير بعض المصادر العربية إلى أنه أرسل عدداً من جواسيسه إلى بغداد حيث عقدوا اتفاقاً مريباً مع الوزير ابن العلقمى وغيره من الأمراء ، "...والخليفة فى لهوه لايعبأ بشىء ... " (١٩).

على أية حال ، جاءت سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م لتشهد حدثاً زلزل أركان العالم الإسلامى ، نتجت عنه تغييرات كبيرة فى موازين القوى فى المنطقة العربية على نحو خاص . ففى أول صفر من تلك السنة أمر هولاكو بالهجوم العام على بغداد ، وفى اليوم الرابع من الهجوم سلم الخليفة العباسى المستعصم بالله نفسه وعاصمته دون شروط . وبعد التسليم بعشرة أيام قُتل الخليفة ، وأعمل التتر سيوفهم فى المسلمين ، ويحكى المؤرخون أن دماء الضحايا كانت تجرى فى طرقات المدينة التى كان اسمها يوماً مرادفاً للحضارة والعلم والمعرفة والفن الراقى . وظلت بغداد الجريحة نهباً لكل الرغبات الوحشية والتدميرية على مدى أربعين يوما ؛ صارت بعدها أطلالاً تشهد على عنف هذه الجموع الظالمة . وخرَّب التتر الجوامع والمشاهد وأحرقوا مبانى بغداد الجميلة ، ودمروا مكتبتها الثرية . وكانت تلك هى المرة الأولى التى تقع فيها الخلافة العباسية أسيرة لغير المسلمين (٢٠).

كان وقع الصدمة مريراً وعنيفاً فى نفوس المسلمين الذين وجدوا أنفسهم بدون خليفة للمرة الأولى فى تاريخهم . وعبَّر المعاصرون عن مدى فداحة الصدمة حين ذكروا أنه خُيِّل للمسلمين "... أن العالم على وشك الإنحلال وأن الساعة آتية عن قريب ... " . كان العالم فى نظرهم مرادفاً للخلافة . وعلى الرغم من كل مظاهر الضعف التى ظهرت واضحة على الخلافة العباسية ، فان مكانة الخلافة فى وجدان المعاصرين كانت راسخة بالقدر الذى جعلهم عاجزين عن تصور العالم بدونها .

أخذ الزحف التترى يطوى البلاد حتى وصل إلى أطراف بلاد الشام . وفى تلك الأثناء كان أمراء الأيوبيين فى الشام فريسة للعجز والذعر . وسارع الناصر يوسف حاكم دمشق وحلب بارسال ابنه فى سفارة ودية إلى هولاكو معلناً خضوعه مصحوباً بالهدايا والتحف الفاخرة دليلاً على هذا الخضوع ، وفى الوقت نفسه طلب مساعدة هولاكو فى استرداد مصر من أيدى المماليك . أما هولاكو فقد أغضبته السفارة التى اعتبرها غير لائقة بمقامه وطلب من الناصر يوسف الخضوع دونما قيد أو شرط . وعندما أدرك الناصر أنه خسر احترام المسلمين وتحالف مع المغول ، بعث برسالة عنيفة ملؤها السباب إلى هولاكو الذى جعله يدفع ثمن السباب غالياً عندما اقتحم أملاكه .

واستنجد بالمماليك ، ووعده قطز (الذى كان قد آعتلى عرش السلطنة آنذاك) بالمساعدة

وفى شهر صفر ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠م أستولى هولاكو على حلب بعد سبعة أيام من الهول والتخريب وسفك الدماء [٢١]. وأعلن بعض ملوك الأيوبيين خضوعهم لهولاكو فى محاولة لتجنب الخراب الذى حل بحلب . أما الناصر يوسف فقد خرج من دمشق ومعه عدد من المماليك البحرية (الذين كانوا قد هربوا من مصر بعد مقتل فارس الدين أقطاى) ، وعلى رأسهم الأمير بيبرس البندقدارى الذى صار سلطاناً فيما بعد . وسار الناصر صوب الحدود المصرية حتى غزة آملاً أن تصله النجدة فى وقت مناسب . وفى تلك الأثناء سقطت دمشق بأيدى المغول فى شهر ربيع الأول سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م . وتوسط أعيان دمشق لدى هولاكو فنجت المدينة العريقة من التخريب .

وبينما كانت هذه الأحداث العنيفة تلهب المشهد فى المنطقة العربية ، مات " منكو خان " الخان الأعظم فى العاصمة قراقورم ، وكان لابد لهلاكو من العودة إلى بلاده للمشاركة فى انتخابات الخان الأعظم الجديد . وعندما تم اختيار أخيه « قوبيلاى » تقبل الأمر ببساطة ، ولكنه لم يرجع لقيادة جيوشه التى تركها فى بلاد الشام تحت قيادة قائد تترى مسيحى على المذهب النسطورى هو " كتبغانوين " .

على الجانب الآخر كانت قوات الناصر يوسف الأيوبى المعسكرة عند غزة قد آثرت الانضمام إلى الجيش المصرى بقيادة سيف الدين قطز ، السلطان المملوكى ، وهرب الناصر فى قلة من أتباعه بحثا عن ملجأ يحميه بعد أن خسر جيشه وعرشه [٢٢] . وعلم القائد التترى بمكان الناصر فأرسل مجموعة من فرسانه لتقبض على الملك الشريد وتأخذه أسيراً إلى كتبغا الذى رحب به واتفق معه على القضاء على سلطنة المماليك التى ماتزال تحاول تثبيت دعائمها فى مصر [٢٣].

فى تلك الأثناء كان الهيكل السياسى لدولة سلاطين المماليك مايزال فى طور التكوين إذ لم يكن هناك نظام مستقر لولاية العرش ، كما أن المؤسسات كانت ماتزال هى مؤسسات الأيوبيين ، وكانت القوة العسكرية والدهاء السبيل الوحيد للوصول إلى عرش تفوح منه رائحة الدم . فقد مات المعز أيبك مقتولاً ، وتبعته زوجته وقاتلته شجر الدر . وعلى العرش كان الصبى الملقب بالمنصور على تحت وصاية قطز الذى كان هو الحاكم الفعلى للبلاد . وهكذا كان الوضع السياسى يتسم بقدر من السيولة وعدم الاستقرار ...

وعندما استولى التتر على حلب ودمشق وأنطاكية ، ولاح خطرهم قريباً من مصر ، استغل قطز الفرصة ، وخلع السلطان الصبى وتولى عرش البلاد منفرداً تحت إسم « السلطان سيف الدين قطز » . كان قطز هذا من الخوارزمية ، وتروى المصادر التاريخية أن اسمه الأصلى "محمود بن مودود " ، وأنه ينتسب إلي بيت جلال الدين سلطان خوارزم الذى قضى التتر على مملكته ويقال إنه ابن أخت هذا السلطان . ولما قضى المغول على مُلك هذه الأسرة كان " قطز " من بين الأطفال الذين حملهم التتار إلى دمشق وباعوهم إلى تجار الرقيق ، ثم اشتراه السلطان عز الدين أيبك . ومعنى كلمة " قطز " الكلب الشرس .

قال قطز لزملائه المماليك فى معرض تبريره لخلع المنصور على عن عرش السلطنة " ... لابد من سلطان قاهر يقاتل العدو ، والملك المنصور على صبى لايعرف تدبير المملكة ... " . وقد ساعده على خلع السلطان الصبى أن المماليك كانوا قد يئسوا من السلطان الطفل " ... لكثرة لعبه بالحمام ، ومناقرته بالديوك ، ومعالجته بالحجارة ، وركوبه الحمير الفُره بالقلعة ، ومناقرته بالكباش ... " (٢٤).

لقد وصف المؤرخون السلطان سيف الدين قطز بأنه كان " ... بطلاً شجاعاً مقداماً حازماً ، حسن التدبير ، يرجع إلى دين وإسلام وخير ، وله اليد البيضاء فى جهاد التتار .. " . والحقيقة ، أن هذا السلطان تولى حكم البلاد فى ظروف غاية فى الحرج والدقة . وما كادت مراسم تنصيبه على العرش تنتهى حتى كانت رُسُل هولاكو قد وصلت إلى القاهرة ومعهم رسالة عنيفة تقول كلماتها : (٢٥)

" من ملك الملوك شرقا وغربا القان الأعظم :

باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء

يعلم الملك المظفر قُطُز الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم يتمتعون بأنعامه ، ويقتلون من كان سلطانه بعد ذلك .

يعلم الملك المظفر وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وماحولها من الأعمال ، أننا جند الله فى أرضه ، خلقنا من سخطه ، وسلطنا على من أحل عليه غضبه ، فسلموا إلينا أموركم تسلموا ، قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ، وقد عرفتم أننا خربنا البلاد ، وقتلنا

العباد ، فلكم منا الهرب ، ولنا خلفكم الطلب ، فمالكم من سيوفنا خلاص خيولنا سوابق ، وسيوفنا قواطع ، وقلوبنا كالجبال ، وعددنا كالرمال ، ومن طلب حربنا ندم ، ومن قصد أماننا سلم ؛ فان أنتم لشرطنا وأوامرنا أطعتم فلكم مالنا ، وعليكم ماعلينا ، فقد أعذر من أنذر . وقد ثبت عندكم أننا كفرة ، وثبت عندنا أنكم الفجرة ، فأسرعوا إلينا بالجواب قبل أن تُضرم الحرب نارها ، وترميكم بشرارها ، فلا تبقى لكم جاه ولاعز ، ولايعصمكم منا جبل ولاحزر ، فما بقى لنا مقصد سواكم ، والسلام علينا وعليكم ، وعلى من اتبع الهدى وخشى عواقب الردى ، وأطاع الملك الأعلى " .

وقد رفض قطز تهديدات هولاكو وقتل رُسُله الأربعة وعلق رؤسهم جميعاً على باب زويلة من أبواب القاهرة ، وقرر الاستعداد لقتال التتر . وفى تلك الأثناء كان أمراء المماليك البحرية الذين كانوا قد هربوا من القاهرة بعد مصرع زعيمهم فارس الدين أقطاى على يد عز الدين أيبك ، قد تناسوا مخاوفهم وبدأوا فى العودة إلى مصر ، ورحب بهم قطز ومنحهم الإقطاعات الكبيرة فعادت للمماليك وحدتهم مرة أخرى . وكان من بين العائدين الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى الذى حاول أن يجعل ملوك الأيوبيين ببلاد الشام يتصدون للتتر ، ولكن تخاذلهم جعله يقرر العودة إلى مصر حيث أحسن قطز استقباله ، وأقطعه قليوب وأعمالها (٢٦).

كان لابد من إعداد جيش قوى لمواجهة التتر ، والجيوش القوية تحتاج إلى نفقات باهظة وأموال طائلة . وقرر السلطان فرض ضرائب جديدة على المصريين ؛ ولكن الفقهاء والقضاة أصروا على أنه لايجب جباية مثل هذه الضرائب سوى بعد أن يستنفد ما فى خزائن السلطان والأمراء وبيت المال ، وبعد إحضار مالدى حريم المماليك من ذهب وجواهر وأموال . فاذا لم تكن كافية يجوز فرض الضرائب على الناس (٢٧) . وبالفعل أحضر قطز والأمراء الأموال بين يدى الشيخ عز الدين بن عبد السلام الذى كان زعيماً شعبياً قاد الرأى العام فى كثير من المواقف . وبعد ذلك تمت جباية الضرائب اللازمة لتمويل الجيش .

وعندما كملت استعدادات الجيش ، خرج قطز على رأس قواته لملاقاة التتر . وانضمت إليهم أعداد كبيرة من المصريين المتطوعين . وفى الطريق ، قرب الصالحية فى محافظة الشرقية ، كانت السمعة الرهيبة للتتر سبباً فى تخاذل بعض أمراء المماليك الذين رأوا أنه لافائدة من محاربة التتر وأرادوا النكوص ، ولكن السلطان سيف الدين قطز صاح فيهم " يا أمراء

المسلمين لكم زمان تأكلون من بيت مال المسلمين وأنتم للغزاة كارهون ، أنا متوجه ؛ فمن اختار الجهاد يصحبنى ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته ، فان الله مطلع عليه ، وخطيئة حريم المسلمين فى رقاب المتأخرين . "

فى يوليو ١٢٦٠ م كان الجيش المصرى فى طريقه لقتال التتر . وسار الأمير بيبرس على رأس فرقة من الجيش لاستطلاع أخبار العدو ، وعند غزة التقى بيبرس بقوة من التتر واستطاع أن يدمرها . وسار قطز بالجيش الرئيسى بمحاذاة ساحل البحر المتوسط ، ثم انضمت قوات الجيش الرئيسى إلى القوة الاستطلاعية التى كان يقودها بيبرس عند عين جالوت على أرض فلسطين . وفى صباح يوم الجمعة السادس والعشرين من شهر رمضان ٦٥٨ هـ / ٣ سبتمبر ١٢٦٠م دارت المعركة التى أسفرت عن هزيمة التتر ومصرع قائدهم كتبغا نوين (٢٩).

ولاشك فى أهمية انتصار الجيش المصرى بقيادة المماليك على التتر فى عين جالوت بالنسبة لتدعيم أركان دولة سلاطين المماليك الناشئة . إذ تأكد المعاصرون أن سلطنة المماليك هى القوة الوحيدة القادرة على حماية دار الإسلام . واعترف ملوك المسلمين بفضل هذه السلطنة عندما تحقق هذا النصر على نحو ما شهدت به المصادر التاريخية . بيد أن هذه المواجهة حققت نصرا إضافيا لدولة سلاطين المماليك عندما أظهرت القوى الأيوبية ببلاد الشام من الضعف والتخاذل ماجعلها تبدو وحشاً لايستحق البقاء بالنسبة للمعاصرين .

وإذا كان بعض المؤرخين يعتبر أن الدولة الناشئة قد مرت بفترة تجربة امتدت عشر سنوات فيما بين نجاحها فى دحر حملة لويس التاسع الصليبية فى شمال الدلتا سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٥٠م ونجاحها فى كسر الموجة التترية فى عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠م(٣٠) فاننا نرى أن معركة عين جالوت ، بنتائجها الحاسمة ، كانت تأكيداً للدور الذى أخرج هذه الدولة إلى الوجود ؛ وهو دور القوة المدافعة عن العالم الإسلامى .

وربما يكون من المناسب هنا أن نشير إلى أننا نرى أن الخطر التترى على العالم الإسلامى لم يكن بمثل فداحة الخطر الصليبى . حقيقة أن التتر قد زلزلوا أركان هذا العالم بعنفهم المدمر ولكنهم لم يلبثوا أن ذابوا فى خضم الحضارة العربية الإسلامية ، بل صاروا فيما بعد من المساهمين فى بنائها والحفاظ عليها عندما اعتنقوا الإسلام . وكان كل خطرهم كامناً فى تفوقهم العسكرى الذى جعلهم يطوون البلاد بسرعة غريبة . أما الصليبيون فكانوا أصحاب

مشروع لا يتحقق سوى بالقضاء على الوجود الحضارى للمسلمين ؛ عربا وغير عرب . ولم يكن العنف المدمر ينقصهم أيضاً . وكان الصراع صراعاً بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الأوربية الكاثوليكية . ولم يحدث من قبل ، أو من بعد ، أن توحدت أوربا فى مشروع واحد مثلما توحدت تحت راية المشروع الصليبى . وكان الصراع صراع وجود على الأرض العربية ، ولابد أن يسفر بقاء أحد الطرفين عن تدمير الطرف الآخر . وكان الصليبيون يتحركون بدافع من إيديولوجية عنصرية تنكر حق الوجود على الآخرين ، كما كانوا مهتمين بتفريغ المناطق السكانية لتوطين عناصر بديلة غريبة على نحو ما تفعل الصهيونية الآن .

على أية حال ، كان إنتصار عين جالوت بمثابة إشارة الخلاص لبلاد الشام من ربقة الحكم التترى . وأسرع الحكام التتر هرباً من غضب أهل الشام . وبسرعة مدهشة أعلنت مدن الشام ولاءها للسلطان قطز الذى دخل دمشق فى اليوم التالى للمعركة وبدأ يعيد الأمن والنظام إلى هذه الأنحاء . ولم يبق أمامه سوى بعض الشخصيات العاجزة من ملوك الأيوبيين فعفا عن بعضهم وجعلهم ولاة تابعين له ، وأمر بقتل البعض الآخر لتآمرهم مع التتر ضد المسلمين .

وإذا كان إنتصار المماليك على حملة لويس التاسع الصليبية فى فارسكور والمنصورة ، قبل عشر سنوات ، بمثابة صرخة الميلاد لدولتهم فان انتصارهم على التتر فى عين جالوت كان تأكيدا للدور الذى اضطلعت به سلطنة المماليك منذ مولدها ، وهو دور القوة المدافعة عن العالم الإسلامى .

وبينما كان قطز يستعد للعودة إلى مصر ، التى استعدت لاستقباله بما يليق وما حققته جيوشه من انتصارات عظيمة ، فضلا عن ضم بلاد الشام إلى مصر ، تطورت الحوادث بالشكل الذى جعل السلطان المنتصر يلقى حتفه قبل أن ترى عيناه الزينات التى أعدها رعاياه لاستقباله . إذ أن الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى ، الذى لعب دورا فى انتصار عين جالوت لايقل عن الدور الذى لعبه السلطان نفسه ، كان يأمل فى الحصول على نيابة حلب(٣١) . ولكن السلطان الذى كان قد وعده بهذه النيابة من قبل منحها إلى أمير آخر هو الملك السعيد علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ لكى يكون حليفاً له يراقب حركات التتر . ولم يكن بيبرس بحاجة إلى أسباب جديدة للحقد على قطز ؛ فقد عاش هو ورفاقه من أمراء المماليك البحرية عدة سنوات فى منفاهم بعد أن اغتال قطز وزملاؤه فارس الدين أقطاى ،

زعيم البحرية ، لحساب عز الدين أيبك . وهكذا تذكر أمراء البحرية ثأرهم القديم في عنق قطز، واتفق بيبرس معهم على الإنتقام من السلطان عندما تسنح لهم فرصة . وبالقرب من الصالحية خرج قطز للصيد وقتله بيبرس ؛ وبذلك خلا الجو المماليك البحرية وزعيمهم القوى لحكم مصر والشام (٣٢).

وتطبيقاً للمبدأ السياسى الذى سارت عليه دولة سلاطين المماليك (الحكم لمن غلب) ، كان طبيعياً أن يعتلى القاتل عرش الضحية . فقد اجتمع المماليك الذين قتلوا قطز فى الدهليز السلطانى (خيمة السلطان) وقابلوا أتابك العسكر الذى سألهم عمن قتل السلطان ؛ فقال بيبرس " أنا " ، ونظر إليه الأتابك وقال " ياخوند إجلس أنت فى مرتبة السلطنة " . وهكذا حلّ القاتل محل القتيل ببساطة . وقبل أن تجف دماء السطان القتيل كان جنود الجيش يحلفون يمين الولاء للسلطان الجديد الذى اتخذ لنفسه لقب " القاهر " ، بيد أنه لم يلبث أن غيره وأخذ لقب " الظاهر " . وبعد أن تمت إجراءات السلطنة بشكل مبدئى فى الصالحية أسرع بيبرس ورفاقه إلى القاهرة لاتمام إجراءات السلطنة بدخول قلعة الجبل .

دخل بيبرس القلعة فى اليوم التالى ، وبدخوله بدأت مرحلة هامة فى تاريخ الدولة الناشئة جعلت من بيبرس المؤسس الحقيقى لهذه الدولة بفضل إنجازاته السياسية والإدارية والعسكرية . فقد كانت السنوات العشر السابقة مرحلة سيولة سياسية حكم خلالها خمسة سلاطين ، تم اغتيال ثلاثة منهم ، ونجا إثنان بسبب صغر السن وعدم خطورتهما ، ولكن حكم بيبرس استمر سبعة عشر عاماً ؛ ومن ثم فان قصته تستحق أن نرويها على حدة ...

حواشى الفصل الأول :

١ - المقريزى ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ ١ (نشره محمد مصطفى زادة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط . ثانية ، القاهرة ١٩٥٦) ، ص ٣٣٩ .

٢ - يقصد غدر الخوارزمية بالسلطان الصالح نجم الدين أيوب فى حملته على بلاد الشام سنة ٦٤٣ هـ . أنظر المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣٢٢ .

٣ - عن تفاصيل هذه المعركة أنظر : محمد مصطفى زياده ، حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة ، (القاهرة ١٩٦١م) ، ص ١٤٥ - ص ٢٠١ . أنظر أيضا :

Joinville , The Life of St Louis (trans Shaw , Penguin 1975) ; Joseph R . Strayer , "

The Grusades of Louis IX " in Setton (ed .) , Hist . of the Crusades , II , pp . 487 - 18 .

٤ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٦١ .

٥ - نفسه ، ص ٣٦٢ .

٦ - Joinville , The Life of St Lauis , pp . 220 - 264 .

٧ - ابن أيبك الدوادارى ، الدرة الزكية فى أخبار الدولة التركية (وهو الجزء الثامن فى حوليته " كنز الدُرر وجامع الغُرر ") تحقيق أولرخ هارمان ، القاهرة ١٩٧١ م ، ص ١٣ .

٨ - جمال الدين الشيال ، تاريخ مصر الإسلامية ، (دار المعارف ١٩٦٧) ، جـ ٢ ، ص ١٥١ - ص ١٥٤ .

٩ - ابن أيبك الدوادارى ، الدُروة الزكية ، ص ٢٢ .

١٠ - عن مشروعات لويس التاسع ومحاولات التحالف بينه وبين الأيوبيين أو بينه وبين المعز أيبك ، أنظر:

Joseph R . Strauer , " The Crusade of Loius IX " , pp . 504 - 511 .

١١ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٣٨٥ - ص ٣٨٦ . وقد تم الإتفاق على أن يكون للمصريين إلى نهر الأردن ، بما فى ذلك غزة والقدس ونابلس والساحل كله ، ويكون للملك الناصر الأيوبى ماوراء ذلك .

١٢ - نفسه ، جـ ١ ، ص ٣٨٦ .

١٣ - عن قصة أيبك وشجر الدر أنظر التفاصيل فى :

المقريزى ، جـ ١ ، ص ٣٩٨ - ص ٤٠٤ .

١٤ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٠٥ - ص ٤٠٦ .

* إسمه الحقيقى " تيموجين " أى " الصلب النقى " ، وقد اختار لنفسه إسم جنكيز خان ومعناه " أقوى الملوك " . راجع

Cambridge Medieval History , Vol . IV , XX , pp . 637 - 638 ; Claude Cahen , " The Mongols and The Near East " , in Setton (ed .) A History of the Crusades , Vol . II . pp . 615 - 716 .

١٥ - يذكر المؤرخ تقى الدين المقريزى (السلوك ، جـ ١ ، ص ١٨٥) أن بداية خروج التتر " .. من بلادهم الجوأنية إلى بلاد العجم ... " كان سنة ٦١٣ هـ . ثم يذكر فى حوادث سنة ٦١٦ هـ (السلوك ، جـ ١ ، ص ٢٠٥) أنباء إغاراتهم على بلاد السلطان علاء الدين محمد بن خوارزم شاه تكش .

١٦ - ابن واصل ، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، ج- ٤ (تحقيق د . حسنين ربيع ، دار الكتب ١٩٧٢ م) ، ص ٣١٤ - ص ٣٢٩ . وقد ذكر أنهم قتلوا السلطان جلال الدين بن علاء الدين خوارزم شاه .

١٧ - Claude Cahen " The Mongols and the Near East ", pp . 717 - 718 .

١٨ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٢٥٧ - ص ٢٥٨ .

١٩ - يقول ابن أيبك (كنز الدُرر وجامع الغُرر ، جـ ٨ ، ص ٢٩) " فيها (٦٥٤ هـ) دخل هلاوون سلطان التتار إلى بغداد فى زى تاجر عجمى ، ومعه مايه حمل حرير واجتمع بالوزير مؤيد الدين ، ضد لقبه ، وبابن الدرسوس نديم الخليفة وأكابر الدولة . وكانوا قادرين على مسكه ، ولكنهم خانوا الله ورسوله ودين الإسلام قاتلهم الله . ثم خرج بعد ما أتقن عمله معهم .. " أما المؤرخ تقى الدين المقريزى ، فيذكر أن هولاكو أرسل جواسيسه إلى الوزير . أنظر : السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٠٠ .

٢٠ - عن سقوط الخلافة العباسية أنظر :

المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٠٩ - ص ٤١٠ ؛ إبن أيبك الدواداري ، كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ٣٤ - ص ٣٧ ؛ أحمد مختار العبادى ، قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام ، (بيروت ١٩٦٩م) ، ص ١٤٧ - ص ١٥٠ ؛

Claude Cahen , " The Mongols ", p . 717 .

٢١ - ابن أيبك ، كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ٥٦ - ص ٥٨ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٢٢ - ص ٤٢٣ .

Mustafa M.Ziada , " The Mamluk Sultans , Vol . II , pp . 744 - 745 ;

العبادى ، قيام دولة المماليك الأولى ، ص ١٥٢ .

٢٢ - Ziada , Op . cit . , p . 745 .

٢٣ - العبادى ، قيام دولة المماليك الأولى ، ص ١٥٦ - ص ١٥٨ .

٢٤ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٠٦ ، ص ٤١٧ .

٢٥ - أورد هذا النص المقريزى (السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٢٧ - ص ٤٢٨) . وقد أورد أبن أيبك الدوادار (كنز الدر ، جـ ٨ ، ص ٤٧ - ص ٤٨) نصا آخر يبدأ بعبارة : " بسم إله السماء الواجب حقه ، الذى مّلكنا أرضه وسلطنا على خلقه ، الذى يعلم به الملك المظفر صاحب مصر وأعمالها ... " وهو يختلف قليلا فى بنائه عن النص الذى أورده المقريزى على الرغم من تطابق معظم الكلمات والعبارات الواردة فى النصين . وقد أورد القلقشندى (صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، جـ ٨ ، ص ٦٣ - ص ٦٤) نصا ثالثا رأينا أن نثبته فى المتن لأن القلقشندى كان بحكم عمله فى ديوان الإنشاء قادرا على الإطلاع على الوثائق المحفوظة بهذا الديوان . بيد أنه ينبغى أن نلاحظ أن نص المقريزى متطابق تماما مع هذا النص سوى فى بيتين من الشعر أوردهما المقريزى وابن أيبك لم يردا فى نص القلقشندى .

٢٦ - عن تفاصيل ذلك أنظر :

محيى الدين بن عبد الظاهر ، الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر (تحقيق عبد العزيز الخويطر ، الرياض د . ت) ، ص ٥٧ - ص ٦٣ ؛ ابن أيبك الدوادار ، كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ٤٩ .

٢٧ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤١٦ - ص ٤١٧ .

٢٨ - نفسه ، ص ٤٢٩ .

٢٩ - عن تفاصيل معركة عين جالوت أنظر :

المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٢٩ - ص ٤٣١ ؛ ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٦٣ - ص ٦٦؛ ابن أيبك الدوادار ، كنز الدُرر ، جـ ٨ ، ص ٤٩ - ص ٦١ ؛ العبادى ، قيام دولة المماليك الأولى ، ص ١٦٤ - ص ١٦٨ .

٣٠ - جمال الدين الشيال ، تاريخ مصر الإسلامية ، جـ ٢ ، ص ١٧١ - ص ١٧٢ .

٣١ - ذكر القلقشندى (صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٢١٧) أن نيابة السلطنة فى حلب نيابة جليلة فى المرتبة الثانية بعد نيابة دمشق . كما ذكر أن هناك أيضا نيابة القلعة بحلب وليس لنائب السلطنة على القلعة ونائبها حكم ، وعادة ما يكون نائب القلعة أمير طبلخاناه ، وخصص لحراستها أربعون شخصا .

٣٢ - يذكر ابن أيبك الدوادار (كنز الدُرر ، جـ ٨ ، ص ٦١ - ص ٦٢) أن عددا من الأمراء شاركوا فى قتل السلطان . ويذكر المقريزى (السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٣٥) نفس الرواية . أما ابن عبد الظاهر (الروض الزاهر ، ص ٦٧ - ص ٦٨) فيذكر أن بيبرس فعلها منفردا ويورد الحكاية باختصار غامض . وكان مقتل السلطان سيف الدين قطز فى ١٥ ذى القعدة سنة ٦٥٨ هـ (٢٢ أكتوبر ١٢٦٠ م) .

الفصل الثانى

بيبرس وتأسيس الدولة المملوكية

بيبرس - جهوده الداخلية (حركات التمرد : علم الدين سنجر فى دمشق ، والكورانى فى القاهرة) إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة ومغزاه - الواجهة الدينية (أهل العمامة ، حماية الحرمين الشريفين ، الاهتمام بالقدس) - جهوده الخارجية (الأيوبيون - التتر - العلاقات مع الإمبراطورية البيزنطية وصقلية والأسبان) - الحرب ضد الصليبيين ببلاد الشام - الحرب ضد التتر - ما بعد بيبرس .

يُعتبر السلطان الظاهر بيبرس بحق هو المؤسس الفعلى لدولة سلاطين المماليك التى ظلت تقوم بدور القوة المدافعة عن الحضارة العربية الإسلامية على مدى مايزيد على القرنين ونصف من الزمان . وإذا كان السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى هو مؤسس الدولة الأيوبية ، فان مبررات وجود هذه الدولة جاءت من خلال حقيقة أن صلاح الدين بدأ تاريخه السياسى بتوحيد الجبهة العربية الإسلامية لتنفيذ المشروع العربى الإسلامى للقضاء على الوجود الصليبى على تراب الأرض العربية . وقد كان خلفاء صلاح الدين ، بشكل عام ، قد فقدوا كل مبررات وجودهم السياسى حين تخلو عن هذا الدور الذى أضفى الشرعية على دولتهم . من ناحية أخرى ، يعُتبر بيبرس مؤسس الدولة المملوكية لأنه بدأ تاريخه السياسى ، أيضا ، بالعمل على توحيد الجبهة الداخلية فى المنطقة العربية . وإذا كانت معركة المنصورة وفارسكور ضد الصليبيين ، ثم معركة عين جالوت بعد عشر سنوات ضد المغول ، قد أثبتتا قدرة فرسان المماليك فى الدفاع عن دار الإسلام ، فان ذلك وحده لم يكن كافياً لإضفاء الشرعية على دولتهم . ومن ثم فان جهود السلطان الظاهر بيبرس فى توحيد المنطقة العربية هى التى جعلت دولته تحظى باحترام القوى العالمية المعاصرة على المستوى الخارجي ، كما جعلته شخصياً يحتل مكانة بارزة فى وجدان المعاصرين بحيث نسج الخيال الشعبى " سيرة الظاهر بيبرس " ، وفيها حَمّلُوه كل رموزهم وآخلاقياتهم ؛ بل جعلوه عربياً مسلماً فى المولد والنشأة [١].

فمن هوالسلطان الظاهر بيبرس ؟

على الرغم من أن " بيبرس " الفارس والأمير والسلطان ، كان شخصية ملء العين والوجدان ، فان بيبرس الطفل والصبى يتوه بين ضبابية الغموض وأستار الحكايات الأسطورية. ذلك أنه كان من آحاد الناس ، وُلد لأن فقيرا بذات مساء أراد أن يطفىء نار أيامه القاسية فى حضن فقيرة . ولم يكن المؤرخون والتاريخ الرسمى فى تلك الأيام يهتم بالناس الفقراء أو العامة والبسطاء . إذ كان معظم المؤرخين فى معية السلاطين والملوك والحكام ؛ وكان التاريخ يسعى وراء أخبارهم ؛ مؤامراتهم ودسائسهم ، معاهداتهم وحروبهم ، أفراحهم وأتراحهم . أما آحاد الناس والبسطاء فلم يكن المؤرخون يهتمون بهم فى غالب الأحوال . كان الناس ، ومايزالون ، يصنعون التاريخ ويسرقه الحكام .

ومن ثم ، كان من الطبيعى أن يهمل التاريخ شأن مولد طفل فقير يختطفه تجار الرقيق من حضن أمه ليباع فى أسواق النخاسة ، ولكنه حين يكبر ينتزع لنفسه دوراً يجعله محور اهتمام التاريخ والمؤرخين .

وليست مشكلة غموض سيرة البطل التاريخى فى حياته الباكرة قاصرة على السلطان الظاهر بيبرس ، وإنما يشاركه فيها الكثيرون ممن خرجوا من طيات المجهول ؛ ليعتلوا العروش ويقودوا الجيوش . وربما يكون هذا سبباً كافياً لتفسير ذلك التضارب بين روايات المؤرخين حول نشأة بيبرس (٢).

والراجح أنه تركى من قبائل التتر القفجاق فى مناطق الإستبس بوسط آسيا . وربما كانت طفولته الباكرة فى تلك الأنحاء ، ثم خطفه تجار الرقيق وانتقل من تاجر إلى آخر حتى وصل إلى حماة ببلاد الشام حيث أراد صاحبها المنصور الأيوبى شراءه ؛ ولكن أمه حذرته من بيبرس بقولها : " لا يكون بينك وبينه معاملة ، فان شراً فى عينيه لائحاً " (٣). فعدل عن شرائه واشتراه الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار ؛ ولهذا نُسب إليه بيبرس وعُرف بلقب البندقدارى.

ثم انتقل بيبرس إلى خدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب الذى لم يلبث أن منحه حريته مما أعطاه الفرصة كاملة لإثبات شجاعته وفروسيته . ثم انتقل إلى خدمة ابنه تورانشاه بعد وفاته، ثم صار من زعماء البحرية بعد مصرع تورانشاه . وتقلبت أحوال بيبرس ففر إلى بلاد الشام بعد مقتل فارس الدين أقطاى ، ثم عاد ليشارك فى القتال ضد التتر ، وساهم فى انتصار عين جالوت . وفى طريق العودة اغتال قطز وأعلن نفسه سلطاناً كما أوضحنا من قبل .

كان طبيعيا ، بعد أن تولى بيبرس عرش السلطنة فى قلعة الجبل بالقاهرة ، أن يبدأ فى تنظيم أحوال دولته ؛ داخلياً وخارجياً . كانت أولى خطوات بيبرس فى هذا الصدد إلغاء كافة الضرائب التى كان سلفه سيف الدين قطز قد فرضها لتمويل حربه ضد التتر (٤). وكانت تلك الضرائب بواقع دينار على كل فرد فى مصر ، كما استولى على ثلث إيراد الزكاة ، وثلث قيمة التركات التى مات عنها أصحابها من غير المماليك . وكان صدى هذا الإجراء طيبا فى نفوس المصريين الذين زينوا الطرقات والأسواق ابتهاجا بذلك .

بيد أن حكم السلطان الجديد كان لابد وأن يتأثر بالمفاهيم السياسية التى نمت ورسخت فى غمار الظروف التى صاحبت قيام دولة سلاطين المماليك التى شهدت فى السنوات العشر الأولى من عمرها خمسة من السلاطين يتعاقبون فى إيقاع سريع راح ثلاثة منهم ضحايا الإغتيال ونجا السلطان الأيوبى الطفل الأشرف موسى (الذى شارك المعز أيبك العرش فترة من الوقت) لصغر سنه ، كما نجا المنصور على ابن أيبك لصغر سنه أيضا .

كان مبدأ " الحكم لمن غلب " هو الذى جاء بالسلطان الظاهر بيبرس إلى العرش ، وكان يحرك الطامعين فى العرش ؛ ومن ثم كان على بيبرس أن يعانى من هذا المبدأ أيضا فى بداية سلطنته .

فعندما تولى بيبرس العرش نشبت ثورتان داخليتان فى وقت واحد تقريبا . ففى أواخر سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م نشبت ثورة فى دمشق قادها الأمير سنجر الحلبى أحد أمراء المماليك ، ونائب دمشق الذى استاء كثيرا من اغتيال قطز ورفض الاعتراف بسلطنة بيبرس . ولم يكتف هذا الأمير المتمرد بالعصيان ، بل بادر باعلان نفسه ملكاً على دمشق فى ذى الحجة سنة ٦٥٨هـ ، واتخذ لنفسه لقب الملك المجاهد ، وركب بشعار السلطنه ، وضُربت السكة باسمه ، ثم حصّن قلعة دمشق استعداداً للقتال ، وأرسل يستعين ببقايا الأيوبيين ولكنهم رفضوا مساعدته .

لجأ بيبرس إلى استخدام المال لكى ينفض أنصار سنجر الحلبى من حوله ، ثم أرسل جيشاً قضى على التمرد وعاد بالأمير المتمرد إلى القاهرة مكبلاً فى الحديد (٥). وقد تم القضاء على هذه الحركة فى مطلع سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م .

ولم تكن تلك هى محاولة التمرد الوحيدة على سلطنة الظاهر بيبرس ، فقد حاول شمس الدين البُرْلى الاستقلال بحلب (٦)، ولكن الفشل كان من نصيبه ، ولما أرسل يطلب عفو السلطان الظاهر بيبرس كان كريماً معه . وفى القاهرة حاول بعض أمراء المماليك الإطاحة بالسلطان سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م . وعلى الرغم من أنه تمكن من وأد هذه المؤامرة فى مهدها، فانه كان كريما معهم أيضا (٧).

ثم كان على بيبرس أن يواجه تمرد قوى أخرى كانت تنكر على المماليك أى حق فى ولاية العرش ؛ إذ حدث تمرد بقيادة رجل شيعى إسمه الكورانى " ... أظهر الورع والتقوى والزهد " ، وسكن قبة جبل المقطم المتاخم للقاهرة ، وجمع حوله بقايا الجنود السود الذين كانوا موالين للشيعة ، وبقايا الشيعة . وأخذ يحرضهم على الإطاحة بحكم بيبرس وإقامة حكم شيعى . وفى أواخر سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م انسابوا فى شوارع القاهرة وهم يصيحون " يا آل على " ، وفتحوا حوانيت السيوفيين فى بين القصرين بالقاهرة واستولوا على مابها من أسلحة ، كما استولوا على عدد من الخيول من اسطبلات المدينة . وهنا لم يكن بيبرس حليماً مثلما كان مع المتمردين من أمراء المماليك ؛ إذ أنه صلب الكورانى والمتمردين على باب زويلة من أبواب مدينة القاهرة (٨).

كان القضاء على المشكلات والأخطار التى أثارتها حركات التمرد الداخلة الخطوة الأولى والهامة فى سياسة بيبرس لتوطيد سلطنته فى الداخل ، بيد أن هذه الأخطار كانت هينة بالقدر الذى لم يكلفه من الجهد إلا قليلا . وبقى عليه أن يضفى على حكمه رداء الشرعية ، ورأى الحل السعيد فى إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة ، والحصول على تفويض من الخليفة بالحكم . وإذا كان إحياء الخلافة يأتى من جانب الدولة صاحبة الفضل فى وقف الخطر التترى ، وصاحبة القوة اللازمة لمواجهة الخطر الصليبى ؛ فان تأييد الناس لهذه الدولة سيكون بلا حدود . وكانت تلك مناورة سياسية ذكية من بيبرس ؛ إذ جعل الدولة المملوكية تبدو صاحبة الفضل على العالم الإسلامى باحيائها الخلافة العباسية .

وعلى الرغم من أن بيبرس لم يكن أول من فكر فى مشروع إحياء الخلافة العباسية (٩)، فانه أول من نجح فى تحقيق هذا المشروع . والتاريخ تصنعه الأفعال لا النيات . وكان قطز قد فكر فى إحياء الخلافة العباسية سنة ٦٥٨ هـ عندما أرسل يستدعى واحداً من سلالة

العباسيين هو أبو العباس أحمد ، بعد انتصار عين جالوت ، وجاء الأمير العباسى بالفعل إلى دمشق وبايعه قطز بالخلافة ؛ ولكن مصرع قطز حال دون إعادة كرسى الخلافة إلى القاهرة .

وحين جلس بيبرس على عرش السلطنة استدعى أميراً عباسياً آخر هو أبو القاسم أحمد بن الخليفة الظاهر محمد بن الناصر لدين الله أحمد بن المستضىء بالله (١٠)، وعلى مشارف القاهرة خرج السلطان الظاهر بيبرس للقاء أبى القاسم أحمد فى شهر رجب سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م ، ومعه الوزير بهاء الدين بن حنا ، وقاضى القضاة ، والعلماء والشهود والأعيان والمؤذنون ، كما خرج اليهود بتوراتهم والنصارى بأناجيلهم ومعهم الشموع الموقدة (١١). وبعد عدة أيام عقد السلطان الظاهر بيبرس مجلساً عاماً فى قاعة العواميد بالقلعة حضره القضاة والعلماء ورجال الدولة وكبار التجار ووجوه الناس . وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام من بين الحاضرين . وبعد أن شهد الشهود بنسب الأمير بويع خليفة واتخذ لقب المستنصر بالله(١٢) . وعندما تمت مبايعة الخليفة العباسى الجديد قام هو بدوره بتفويض السلطان الظاهر بيبرس حكم البلاد الإسلامية ، " ... وما ينضاف إليها ، وما سيفتحه الله عليه من بلاد الكفار ... " كما حصل على لقب " قسيم أمير الدين " الذى لم يحصل عليه أحد قبله (١٣). وكان المعنى الواضح لهذا أن بيبرس قد كسب شرعية واضحة لحكمه ولدولته ولنفسه .

هكذا نالت دولة سلاطين المماليك البعد الدينى الذى يؤكد شرعيتها فى عيون المعاصرين . لقد كان البعد العسكرى هو الذى أفرز هذه الدولة باعتبارها القوة القادرة على حماية العالم الإسلامى ، بيد أن هذا البعد لم يكن كافياً وحده ؛ بدليل تلك المصاعب التى واجهت المماليك منذ " شجر الدر " ، وحتى بيبرس ، من جانب الرعايا والقوى السياسية الأخرى .

على أية حال ، كان إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة خطوة هامة جعلت من الظاهر بيبرس حاكما شرعياً يستمد سلطانه ونفوذه من تفويض الخليفة العباسى فى القاهرة . وقد أدرك بيبرس خطورة التفويض الذى أعطاه الخليفة له ، وأراد أن يؤكد ذلك لسائر أمراء المملكة فجمعهم فى اجتماع عام بضاحية المطرية القريبة من القاهرة ؛ لكى يسمعوا جميعا تفويض الخليفة السلطان بحكم " ... الديار المصرية والبلاد الشامية والدياربكرية والحجازية واليمنية والفراتية ، وما يتجدد من الفتوحات غوراً ونجداً .... " ،

وهكذا ، حقق بيبرس هدفه بالحصول على السند الشرعى لحكمه ، وحصل على ماهو أكثر

من ذلك : حكم المنطقة العربية بأسرها . وتعين عليه أن يحول هذه الولاية التى تضمنها تقليد العباسى فى القاهرة إلى حقيقة . وبعبارة أخرى كان عليه أن ينقل سلطته الذى فرضها هذا المرسوم على هذه البلاد كلها من سطور الورق الذى كتبت عليه إلى أرض الواقع ... ولم تكن تلك مسألة سهلة .

عندما حقق بيبرس هدفه باضفاء الصيغة الشرعية على حكمه ، بدأ يخطط للتخلص من الخليفة أبى القاسم أحمد (المستنصر الثانى) ، بيد أنه كان حريصاً على عدم القضاء على الخلافة نفسها . إذ أدرك بيبرس ، بدهائه السياسى ، أن قيام الخلافة العباسية فى القاهرة بشكل حقيقى سوف يحوله إلى مجرد تابع للخليفة . لقد كان يريد الخلافة إسما وواجهة تكسبه الشرعية . وهكذا أرسل الخليفة مع قوة عسكرية صغيرة لقتال المغول . وبالفعل أباد المغول جيش الخليفة العباسى الضئيل وقتلوه هو نفسه (١٤). ولأن بيبرس ، الخبير بالتتر وأساليبهم فى القتال ، أرسل هذا الجيش الهزيل مع الخليفة ، فاننا نرجح أن السلطان أرسل الخليفة فى مهمة بلاعودة ... إلى الموت .

أرسل بيبرس يستدعى أميراً عباسياً آخر لتولى الخلافة ، وتمت مبايعته باسم الخليفة الحاكم بأمر الله العباسى (١٥). وقلّص بيبرس نفوذ الخليفة الجديد وسلطاته على نحو جعله أشبه بمن يخضعون لأحكام تحديد الإقامة ، على حد تعبيرنا المعاصر . فلم يكن مسموحاً للخليفة العباسى فى القاهرة أن يتصل بأحد المسئولين فى الدولة ، أو غيرهم ، دون إذن من السلطان نفسه . وبذلك أرسى بيبرس أحد أهم الأسس السياسية التى قامت عليها دولة سلاطين المماليك ؛ أى الاستعانة بالخلافة العباسية واجهة دينية وشرعية دون أن يكون للخليفة سوى الدعاء على المنابر فى صلاة الجمعة . وكانت الخلافة العباسية خلافة صورية " ... ليس له منها أمر ولا نهى ، وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين " على حد تعبير المؤرخ تقى الدين المقريزى (١٦).

لم تكسب الخلافة العباسية من إحيائها فى القاهرة شيئا ؛ إذ هانت مكانة الخلفاء الذين تعين عليهم أن يسعوا إلى حفلات تنصيب السلاطين وولاية العهد ، كما كان عليهم أن يزينوا مجالس السلطان حين يستقبل وفود الدول المعاصرة وسفراءها . ولم يتدخل الخلفاء فى شئون السلطنة ، كما أن سلاطين المماليك لم يأمنوا لهم أبداً فأبقوهم بمنازلهم فى وضع أقرب ما يكون إلى السجن .

أما الفائدة الحقيقية فقد عادت على السلاطين وعاصمتهم القاهرة ؛ فقد صاروا هم حُماة الخلافة ، ومن ثم حقٌ لهم أن يدعوا لأنفسهم مكانة سامية في العالم الإسلامى . وكان ذلك تكريساً لحقيقة توازن القوى فى تلك الفترة من تاريخ العالم الإسلامى ؛ وتجسد هذا أيضا فى أنهم استأثروا بالحق فى لقب " السلطان " . يقول ابن شاهين الظاهرى : " ... ولايطلق لفظ سلطان إلاّ لصاحب مصر نصره الله ، فانه الآن أعلى الملوك وأشرفهم لرتبة سيد الأولين والآخرين ، وتشرفه من أمير المؤمنين بتفويض السلطنه له على الوجه الشرعى لعقد الأئمة الأربعة ... " .

هكذا ، صارت القاهرة بمثابة المعقل والحصن للحضارة العربية الإسلامية منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادى / السابع الهجرى ، وقصدها الفنانون والعلماء والفقهاء ، كما جاء الصناع ورجال السياسة والباحثين عن الأمن والاستقرار من شتى أرجاء دنيا العرب والمسلمين؛ ونتجت عن ذلك بالضرورة حركة علمية نشطة . وإلى جانب القاهرة نشطت دمشق وبيت المقدس وغيرها من مدن بلاد الشام والمدن المصرية وزاد سكانها ، وانتعش اقتصادها ، وعمرت مدارسها .

ولكن إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة لم يكن كافياً من وجهة نظر بيبرس لتأكيد زعامة دولته على الخلافة ، إذ كان البعد الدينى للدولة الناشئة مايزال بحاجة إلى عناصر جديدة لاستكماله . والحقيقة التى تفرض نفسها باستمرار على تاريخ المنطقة العربية مؤداها ، أن كل دولة أرادت أن تبنى لنفسها القوة والزعامة كان لابد لها من أن تبسط سلطانها على البحر الأحمر والحجاز ؛ حيث يوجد الحرمان الشريفان فى مكة والمدينة . ولم يكن بيبرس ليشذ عن هذا المنطق الذى يفرضه التاريخ وتحتمه الجغرافيا .

بدأ بيبرس خطته بالقيام بعدة إصلاحات بالحرم النبوى الشريف ، وأرسل الكسوة إلى الكعبة (١٧). وفى سنة ٦٦٧ هـ / ١٢٦٩ م قام بأداء فريضة الحج (١٨). وانتهز الفرصة لكى يجعل الخطبة فى الحجاز للخليفة العباسى ثم سلطان مصر من بعده (١٩). وهكذا إزداد البعد الدينى وضوحاً فى دولة سلاطين المماليك . ومن ناحية أخرى قام بيبرس بترميم قبة الصخرة فى المسجد الأقصى ، كما جدد بناء مسجد الخليل عليه السلام (٢٠).

وفى سبيل تأكيد البعد الدينى لدولته ، قام السلطان الظاهر بيبرس بالتقرب إلى العلماء

والقضاة والفقهاء ، الذين كانوا طليعة المثقفين وقادة الرأى العام آنذاك . فقد كان القرآن الكريم والحديث النبوى والعلوم المرتبطة بها ركيزة التعليم والثقافة فى ظل الحضارة العربية الإسلامية إلى جانب العلوم الأخرى التى عرفت باسم العلوم العقلية . ومن ثم كان " أهل العمامة " فى ذلك العصر يمثلون عقل الأمة ووجدانها . كما كانوا يحتلون مكانة سامية لدى الحكام والمحكومين . وقد أعاد بيبرس للجامع الأزهر ، أول مساجد القاهرة ، مكانته عندما نزل ليصلي الجمعة فيه فى ١٨ ربيع الأول سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م بعدما أمر بترميمه وعمارته ؛ وبذلك عادت الخطبة إلى الجامع الأزهر بعد أن كانت قد انقطعت فيه مدة تناهز مائة سنة (٢١).

كذلك قام الظاهر بيبرس ببناء المدارس والمساجد مثل " المدرسة الظاهرية " التى بناها بالقاهرة ورتب دروس أهل العلم بها فى صفر سنة ٦٦٢ هـ وحضر السلطان حفل افتتاحها (٢٢) كما بنى مسجدا بالقاهرة حمل اسمه (٢٣) كما زار كبار الصوفية مثل الشيخ القبارى والشيخ الشاطبى بالاسكندرية ، وقرب إليه واحداً من الدراويش هو الشيخ خضر الذى كانت له زاوية بميدان قراقوش بالحسينية (٢٤). وبذلك مكّن بيبرس لدولته فى الداخل ، وحاز مكانة واحتراماً وهيبة كفلت له أن ينصرف باهتمامه إلى مواجهة الأخطار الخارجية .

وإذا كان بيبرس قد تسامح مع أمراء المماليك الذين خرجوا عليه وأعلنوا التمرد والعصيان ضده فى بداية حكمه ، فقد انتهج سياسة مخالفة تماماً إزاء غيرهم من القوى التى كانت تشكل خطراً حقيقياً على المماليك وسلطنتهم الوليدة .

كانت أول هذه القوى تتمثل فى بقايا الملوك الأيوبيين الذين كانوا مايزالون يحكمون فى بلاد الشام . وعلى الرغم من أن المنصور صاحب حماة ، والأشرف موسى صاحب حمص قد أعلنا ولاءهما للسلطان الظاهر بيبرس ، كما أن الملك الصالح صاحب الموصل وصل إلى القاهرة فى شعبان سنة ٦٥٩ هـ ، ولحق به أخوه الملك المجاهد صاحب الجزيرة، ولقيهما السلطان بحفاوة بالغة ثم كتب تقليداً للملك الصالح ركن الدين اسماعيل بالموصل وولاياتها ، ثم ولى الملك المجاهد سيف الدين اسحق ببلاد الجزيرة وأعمالها ، وكتب لأخيهما الملك المظفر بولاية سنجار وأعمالها (٢٥)- نقول إنه على الرغم من ذلك ، فان الملك المغيث عمر بن العادل بن الكامل الأيوبى ، صاحب الكرك الذى كان يرى فى المماليك مجرد دخلاء اغتصبوا العرش الأيوبى فى

مصر ويجب القضاء عليهم ، ظل يحلم باليوم الذى ينتزع فيه مصر من الظاهر بيبرس . وبدأ يشن غاراته على المناطق الخاضعة لسلطان مصر ؛ بل إنه راسل هولاكو وحرضه على غزو مصر. وخرج بيبرس بجيش قوى من مصر سنة ١٢٦٢ م / ٦٦١ هـ بهدف القضاء على خطر هذا الملك الأيوبى ، ولكن أم المغيث عمر أسرعت لتقابل بيبرس عند غزه وتطلب منه الأمان لابنها ، وأحسن السلطان إليها . ثم خرج الملك المغيث من الكرك و " ... خدعه السلطان أعظم خديعة ... " حتى قبض عليه وفضح مراسلاته مع العدو أمام من حضر من الملوك والأمراء ، وقاضى القضاة والشهود والأجناد ورسل الفرنج[٢٦] ثم أرسله إلى مصر حيث سجن بقلعة الجبل وأطلق حواشيه ، وبعث بحريمه إلى مصر " وأطلق لهم الرواتب " [٢٧] وفى السنة نفسها استولى بيبرس على حصن الكرك ؛ وبذلك تم القضاء على المقاومة الأيوبية بشكل نهائى .

على هذا النحو تحددت أبعاد السياسة المملوكية التى اتخذت مسارين أساسين : أحدهما عسكرى يعتمد على قوة الجيش المملوكى لفرض الأمر الواقع ، وثانيهما دينى يستند على قوة دينية عناصرها الخلافة العباسية فى القاهرة ، وأهل العمامة ، والمنشآت الدينية . لقد امتزجت الوحشية بالتقوى فى عصر سلاطين المماليك بشكل مثير ؛ إذ اشتهر أولئك المقاتلون الأفذاذ بقسوتهم فى التعامل مع خصومهم ولكنهم ، أيضا ، خلفوا تراثاً رائعاً من المنشآت ذات الوظيفة الدينية / الاجتماعية ما تزال قائمة فى مدن مصر والشام تحكى عن عظمة ذلك العصر المظلوم . وهو ما نعتبره انعكاسا للبعد الدينى والبعد العسكرى فى سياسة هذه الدولة التى ظلت تقود العالم الإسلامى على مدى أكثر من قرنين ونصف قرن من الزمان .

لقد كان المبرر الوحيد لقيام دولة سلاطين المماليك واستمرارها ، هو قيامها بدور القوة المدافعة عن دار الإسلام . لقد ولدت هذه الدولة من رحم الصراع ضد الفرنج الصليبيين الذين كانوا مايزالون يحتلون بعض أجزاء من الأرض العربية فى بلاد الشام ، وتأكد وجودها من خلال ذلك النصر المدوى الذى أحرزته ضد الفيالق المغولية فى عين جالوت . وعلى الرغم من كافة الجهود المضنية التى بذلها السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى على الصعيد السياسى والدينى والاجتماعى لتوطيد سلطته فى الداخل ، فان بقاء هذه الدولة التى كان يجلس على عرشها ظل رهيناً بأدائها للدور التاريخى المنوط بها ؛ أى بالقضاء على الأخطار الخارجية وحماية العالم الإسلامى .

وإذا كان الخطر المغولي هو الأعلى صوتاً والأكثر ضجيجاً في صفحات المدونات التاريخية، فقد كان الخطر الصليبي هو الأعمق أثراً والأكثر خطورة . وإذا كنا نقول إن السلطان الظاهر بيبرس البندقداري هو المؤسس الحقيقي لهذه الدولة فذلك لأنه فهم الدور التاريخي المنوط بها ، وظلّ طوال حياته يعمل على تحقيق المشروع الإسلامي الكبير ، وهو طرد الصليبيين من أرض المسلمين . وقد قال عنه أحد الشعراء المعاصرين : -(٢٨)

يومــاً بمصر ويومـــاً بالحجاز وبالشام يوماً ويوماً في قرى حلب

وعلى الرغم من ركاكة هذا البيت فانه يلخص حياة السلطان الظاهر بيبرس الذى أحبه المصريون وجعلوه بطلاً شعبياً ، وهو الأمر الذى اعترف به المؤرخون الرسميون أيضاً . بيد أن المصريين جعلوا بيبرس واحداً منهم ؛ شرب من ماء النيل وترعرع على أرض الكنانة وشب في رعاية رموزها الدينية - على نحو ما تخبرنا السيرة الشعبية للظاهر بيبرس (٢٩).

وقد تميز بيبرس بحصافة وبعد نظر سياسي جعله جديراً بالمكانة التى احتلها في صفحات التارخ وفي قلوب أبناء مصر والمنطقة العربية . فقد كان يمهّد لكل عملية من عملياته العسكرية باستمرار من خلال المعاهدات والإتفاقيات الدولية التى كان يعقدها مع القوى الدولية المعاصرة . وعندما قرر أن يبدأ الجهاد ضد الفرنج الصليبيين سعى إلى التحالف مع الإمبراطورية البيزنطية التى كانت قد صارت عدواً تقليدياً للمستوطنات الصليبية في الشرق العربى ، لاسيما بعد تجربة الأسر المريرة التى عانتها بيزنطة منذ استيلاء الحملة الصليبية الرابعة عليها سنة ١٢٠٤ م (٣٠). ولذلك تحالف مع ميخائيل باليولوجوس الثامن سنة ١٢٦٢م ، وأرسل إليه سفارة على رأسها الأمير فارس الدين آقوش المسعودى ، وتضم عدداً من الأساقفة المسيحيين من أتباع المذهب الملكانى (الروم الأثوذكس) الذى كان مذهب الإمبراطورية البيزنطية أيضا . وفي القسطنطينية رحب بهم الإمبراطور البيزنطى وأكرمهم ، كما أطلع الأمير آقوش على مسجد القسطنطينية الذى جدده لكي يصلى فيه المسلمون من التجار وغيرهم من الوافدين على العاصمة البيزنطية أو المقيمين بها (٣١).

ولما كانت المحالفات مع القوى الأوربية المعاصرة مهمة بالنسبة لسياسة بيبرس الخارجية ، لضمان حياد هذه القوى في الصراع الوشيك ضد الكيان الصليبى ، فقد عقد الظاهر بيبرس معاهدة مع الإمبراطور مانفرد ، ابن الإمبراطور فردريك الثانى وإمبراطور الإمبراطورية

الرومانية المقدسة وصقلية ونابولى ، كذلك كانت له علاقات ودية مع ألفونسو العاشر ملك قشتالة الأسبانى بحيث عرض بيبرس الزواج من ابنة هذا الملك ، ولكن طلبه لم يتحقق . وقد استخدم بيبرس كل إمكانياته الدبلوماسية لكى ينفرد بأمراء المستوطنات الصليبية فى بلاد الشام وفلسطين .

كانت تلك هى جهود بيبرس الدبلوماسية فى الغرب ؛ أما فى الشرق فقد بسط يد التحالف والصداقة إلى بركة خان ، زعيم القبيلة الذهبية من قبائل المغول ، الذى كان أول من اعتنق الإسلام من أبناء جنكيز خان . وكانت بلاد هذا الخان المسلم تمتد من تركستان شرقا حتى شمال البحر الأسود غرباً ؛ وهى بلاد القفجاق وعاصمتها مدينة سراى . وقد تبودلت الرسل والسفارات بين بيبرس وبركه فيما بين سنتى ٦٥٩ هـ و ٦٦١ هـ / ١٢٦١ م - ١٢٦٣ م . كما تزوج بيبرس من ابنته لكى يزيد من روابط الصداقة والود بينه وبين الخان المغولى بركة خان ، وأمر بالدعاء له على منابر القاهرة والقدس والحرمين الشريفين بمكة والمدينة (٣٣) . وبينما كانت تحالفات بيبرس على الجبهة الأوربية موجهة ضد الصليبيين ، كانت معاهداته ومحالفاته على الجبهة الشرقية موجهة ضد مغول فارس الخاضعين لهولاكو وبنيه .

هكذا كشف السلطان الظاهر بيبرس عن إدراكه لحقيقة الدور التاريخى المنوط بالدولة التى اعتلى عرشها ، وأدرك أن دولته تواجه خطراً مزدوجاً يمكن أن يؤدى إلى حلف بين اثنين من ألد أعدائه وأعداء المنطقة العربية الإسلامية وهم المغول فى فارس والصليبيون فى فلسطين وبلاد الشام . وقد سارت خطط بيبرس باتجاه القضاء على كل من هذين الخطرين على حدة . ولم يكن ممكناً للسلطان الظاهر بيبرس أن يحقق هدفه بدون أن يكون لديه الجيش القادر على إحراز النصر . فقد عمد إلى ضم القبائل العربية القاطنة على حدود العراق إلى جيشه لتكون بمثابة قوات مساعدة ، أو حرس الحدود ، وغمرهم بالأموال والمساعدات والهدايا ، فشنوا هجمات عنيفة ناجحة على قوات هولاكو ووصلت قواتهم إلى أبواب مدينة بغداد التى كان المغول يحكمونها آنذاك (٣٤) . كما أعاد تحصين القلاع التى تحمى مناطق الحدود مع دولة مغول فارس ، وشحنها بالذخيرة والأقوات ، وتمركزت بها أعداد كافية من الجنود . وأقام سلسلة من نقاط المراقبة عُرفت باسم " المناثر " لرصد نشاط العدو فى تلك المناطق الحدودية ، وكان تبادل المعلومات بين نقاط المراقبة هذه يتم عن طريق الإشارات الضوئية بالنيران ، أو إشارات الدخان (٣٥) .

وفي مصر أعاد الظاهر بيبرس بناء حصن الجزيرة التى كان الملك الصالح نجم الدين أيوب قد بناه لمماليكه ، ثم هدمه الملك المعز أيبك " ... لا لغرض ، ولا لمصلحة ، وأباح رخامها وأصنافها للناس ... " على حد تعبير ابن عبد الظاهر (٣٦). ولما كان ميناء دمياط قد تعرض للاحتلال الصليبى أثناء الحملة الصليبية الخامسة والحملة الصليبية السابعة ، فقد رأى بيبرس ردم مصب فرع دمياط وتضييقه بالحجارة ووضع سلسلة عظيمة لمنع دخول السفن الكبيرة فى هذا الفرع (٣٧).

من ناحية أخرى ، اهتم بيبرس بالتنظيم الإدارى الداخلى ؛ سواء من حيث تنظيم الإدارة المالية ، أو الشئون السياسية الداخلية ، أو تنظيم القضاء . كما اهتم بوضع نظام فعال للمعلومات من خلال نظام البريد المتكامل الذى جعل مركزه قلعة الجبل بالقاهرة ، واعتمد على الخيل ومحطاتها وعلى الحمام الزاجل (٣٨). قد كان هذا التنظيم البريدى على درجة عالية من الكفاءة والفاعلية بحيث كانت الرسالة تصل من القاهرة إلى دمشق فى ثلاثة أيام فقط . وكانت النتائج الإيجابية لهذا البريد المتكامل أن توفرت للسلطان الظاهر بيبرس معلومات سريعة عن أحوال مملكته التى امتدت من الفرات إلى النوبة ، وهو الأمر الذى انعكست نتائجه فى تحركات السلطان الكثيرة والسريعة فى أنحاء دولته على نحو ما أخبرتنا المصادر المعاصرة، ولا شك فى أن الأخبار العسكرية كانت أهم ما يصل السلطان عن طريق نظام البريد.

كذلك عمل بيبرس على إنشاء أسطول قوى لضمان النجاح لعملياته العسكرية البرية من ناحية ، ولحماية شواطىء البلاد من غارات الصليبيين المحتملة . وقد جاء فى التقليد الشريف الذى أعطاه الخليفة العباسى بالقاهرة ، المستنصر بالله ، للسلطان الظاهر بيبرس ، وفوضه فى حكم البلاد ، ما نصه " ... وكذلك الأسطول الذى ترى خيله كالأهله ، وركائبه سائقة بغير سائق مستقلة ، وهو أخو الجيش السليمانى ، فان ذاك غدت الرياح له حاملة ، وهذا تكفلت بحمله المياه السائلة ، وإذا لحظها الطرف جارية فى البحر كانت كالأعلام ، وإذا شبهها قال : هذه ليال تقلع بالأيام ... " هذه العبارات المسجوعة تكشف عن توجه سياسة بيبرس منذ البداية للاهتمام بالأسطول .

وعلى أية حال ، فان بيبرس يعتبر المؤسس الحقيقى للأسطول المملوكى ؛ فقد أولى اهتماماً

كبيراً بالأسطول ودور صناعة السفن المصرية فى الفسطاط وجزيرة الروضة فى نيل القاهرة ، وفى الاسكندرية ودمياط . وكان يشرف بنفسه على بناء السفن العسكرية لأسطوله ، بل كان هو وأمراؤه يساعدون فى بنائها وتجهيزها وربما يستقبل بعض السفراء فى دار صناعة السفن وهو مشغول بتجهيز سفن أسطوله الحربى (٣٩).

كان الجيش يحتاج إلى رجال مثلما يحتاج إلى أسلحة وعتاد ، وقد حرص بيبرس على الإكثار من شراء المماليك من بنى جنسه القفجاق ، إذ " ... مالت الجنسية إلى الجنسية " على حد تعبير المؤرخ أبى العباس القلقشندى . وربما كانت العلاقات الودية الوطيدة بين بيبرس وبركة خان ، حاكم القفجاق ، هى التى يسرت سبيل الحصول على المماليك القفجاق من ناحية، كما أن الهجرات المغولية الكثيرة إلى مصر كانت مورداً إضافياً من ناحية أخرى . كذلك كانت علاقاته الودية مع الإمبراطور البيزنطى تسهل مرور السفن التى تحمل أولئك المماليك . ولما كانت بلاد القفجاق بلاداً رعوية شحيحة الموارد ؛ فقد كان أهلها من الرعاة الرحل الذين يمضون الصيف فى منطقة والشتاء فى منطقة غيرها ، وكانت وطأة الفقر والحاجة تجعلهم يبيعون أبنا ءهم وبناتهم مقابل مبلغ من المال أو كمية من الغلال . ومن ناحية أخرى ، كان أولئك الرعاة الفقراء محاربين جسورين ؛ فكانوا يغيرون على جيرانهم من الجراكسة والروس والمجر واللان ويسبون أعداداً منهم يبيعونهم فى أسواق الرقيق العالمية .

على أية حال ، استطاع السلطان الظاهر بيبرس تكوين جيش قوى بلغت عدته أربعين ألف فارس ، وهو رقم ضخم بمقاييس ذلك الزمان ؛ لاسيما إذا عرفنا أن الفارس المدرع كان له تأثير نفسى على المشاه فى ميدان القتال يشابه تأثير الدبابة فى زماننا ، وقد تكون الجيش المملوكى من عدة أقسام على النحو التالى :(٤٠)

المماليك السلطانية : كانوا يعسكرون بالقاهرة ويصحبون السلطان فى حروبه وأسفاره وكانوا يؤلفون القوة الرئيسية فى جيش سلاطين المماليك . وعادة ما كانت المماليك السلطانية تتألف من مماليك السلطان الذين اشتراهم ، وتتكاثر أعدادهم حين ينضم إليهم مماليك أسلافه من السلاطين ، أو من يقعون تحت طائلة غضب السلطان فيصادر ممتلكاتهم ويضم مماليكهم إلى المماليك السلطانية . بيد أن العلاقة بين السلطان والمماليك الذين اشتراهم وأشرف على تربيتهم كانت أقوى ، بطبيعة الحال ، من العلاقة بينه وبين غيرهم من المماليك . من ناحية

أخرى ، كان السلاطين يولون عناية كبيرة لتربية مماليكهم وتدريبهم ؛ لأنهم كانوا بمثابة الحرس السلطانى الخاص . كما كان السلطان يختار لهم أعلى الوظائف قدرا وأكبرها إقطاعاً سواء فى البلاط أو الجهاز الحكومى (٤١) .

جيوش الأمراء : كانت تشكل الجزء الثانى من الجيش المملوكى العام . إذ كانت للأمراء الكبار وولاة الأقاليم جيوش صغيرة تتراوح أعدادها ما بين ثلاثمئة وثمانمائة مملوك . وغالبا ما كانت جيوش أمراء المماليك تتمركز خارج العاصمة (٤٢) .

أجناد الحلقة : هذا القسم الثالث من أقسام الجيش المصرى فى عصر سلاطين المماليك كان يتألف من المقاتلين الأحرار من أبناء المماليك ، الذين عرفوا فى مصطلح ذلك العصر باسم " أولاد الناس " ، والأعراب والتركمان ، وبعض المصريين الذين انضموا للجيش . والجدير بالذكر أن أجناد الحلقة فقدوا أية أهمية عسكرية فى الشطر الأخير من عصر سلاطين المماليك ؛ بل إن الكثيرين منهم تعرضوا لقطع إقطاعهم أو " جامكيتهم " (أى رواتبهم الشهرية) فى أواخر ذلك العصر (٤٣) . وقد كان أجناد الحلقة بمثابة قوات الحرس الوطنى فى عصرنا الحالى ، كما كانوا أحيانا يقومون بدور قوات الاحتياط التى يتم تجنيدها واستدعاؤها للمعارك الكبرى .

هكذا ، أتم السلطان الظاهر بيبرس بناء الجيش والأسطول ، وتحصين مناطق الحدود ، وتنظيم وسائل الاتصال ونقل المعلومات من خلال نظام البريد ، وبقى أن يبدأ العمل العسكرى ضد الصليبيين والمغول .

اتسمت سياسة بيبرس تجاه الصليبيين بالعنف والشدة . ويقول المؤرخ تقى الدين المقريزى : " لما خلا بال السلطان من هم الملك المغيث (صاحب الكرك) ، توجه بكليته إلى الفرنج..."(٤٠) ولم يكن ممكناً لبيبرس أن ينتهج سياسة المهادنة تجاه الفرنج الصليبيين وإلا فقدت دولته مبرر وجودها ؛ فقد كان الصليبيون هم العدو الأشد خطراً على العالم العربى الإسلامى ، كما أنهم ساعدوا المغول أحيانا ضد المسلمين وإذا كانوا قد ترددوا أحيانا ، ولم ينحازوا تماماً للقوات المغولية فذلك لأن قواهم قد وهنت من ناحية ، ولأن محاولات الغرب الأوربى للتحالف مع المغول قد فشلت من ناحية أخرى . بيد أن هذا لم يمنع بعض الصليبيين من إنزال بعض القوات المغولية فى حصونهم ، ولكنهم ما لبثوا أن وجدوا أنفسهم خاضعين ، فى حصونهم ، لإرادة الخان المغولى (٤٥) .

في سنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٥م بدأت عمليات الظاهر بيبرس العسكرية ضد الصليبيين ؛ ففي رابع ربيع الآخر من هذه السنة توجه إلى بلاد الشام ، وهاجم قيسارية وحاصرها حتى تم فتحها عنوة في ٨ جمادى الأولى ، ثم استولى على أرسوف في رجب من السنة نفسها (٤٦) . وكانت تلك مجرد بداية لغارات بيبرس وحملاته ضد الصليبيين ، فمنذ تلك السنة بدأ هجوم دولة سلاطين المماليك ضد الصليبيين ، ولم ينته إلا بالقضاء عليهم تماما بعد حوالي ثلاثين سنة في عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون . وكثيرا ما لجأ بيبرس إلى عقد المعاهدات والاتفاقيات مع بعض القوى الصليبية كي يضمن النجاح لعملياته العسكرية ضد البعض الآخر؛ بيد أنه كثيرا ماكان ينقض هذه المعاهدات والاتفاقيات.

وفي العام التالي مباشرة استولى على قلعة صفد ، معقل فرسان الداوية ، وكان بيبرس يقود جيوشه بنفسه في هذه العمليات . وفي أثناء القتال ضد صفد كان يقوم بالأعمال البدنية لاستثارة حماسة جنوده ؛ إذ كان يجر الأخشاب " .. مع البقر " لبناء المجانيق اللازمة للحصار(٤٧) . وعندما تم الاستيلاء على صفد أمر السلطان باعدام حاميتها من فرسان الداوية الذين ارتكبوا الكثير من المذابح والفظائع في حق المسلمين (٤٨) ، وعاد بيبرس إلى القاهرة في أخريات عام ١٢٦٦ م ؛ لكنه مالبث أن غادر العاصمة بعد أربعة شهور فحسب لكي يواصل القتال ضد الفرنج الذين باتوا يرتجفون هلعاً وخوفاً كلما سمعوا بقدوم الظاهر بيبرس بجيشه إلى بلاد الشام . وفي هذه المرة سارعت رسلهم للقاء السلطان في غزة ، ومعهم الهدايا وعدد من أسرى المسلمين ، في محاولة لاسترضائه ثم رحل إلى دمشق ليعود بسرعة إلى صفد من أجل تقوية دفاعاتها . ووصل رسل الفرنج إلى السلطان " ... وهو على صفد ، وشاهدوا من أمرها واهتمام السلطان بها ... وأمر السلطان العساكر بالركوب خفية للغارة ، وركب السلطان . وكان الفرنج قد أطمأنوا بارسال رسلهم إليه ، فما أحسوا إلا بالعساكر قد وصلت إليهم..."(٤٩) .

هكذا بغت بيبرس الفرنج أمام عكا ، بعد أن تخفى جنوده في زي فرسان الداوية والاسبتارية الصليبيين . ونتج عن هذا الهجوم توقيع بعض معاهدات الهدنة مع بعض زعماء الفرنج مثل أمير صور ، وأمير بيروت ، وفرسان الاستبارية في كل من حصن الأكراد ، وحصن المرقب . وفي العام التالي ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨ م غادر بيبرس القاهرة مرة أخرى لقتال الفرنج

حيث تمكن من الاستيلاء على مدينة يافا بفلسطين ، ثم استولى على حصن منيع آخر هو حصن الشقيف أرنون (٥٠) ، الذى أسلم قياده لبيبرس بعد حصار استمر طوال فترة لاتقل عن شهرين.

كانت سياسة بيبرس تجاه الصليبيين فى فلسطين وبلاد الشام تقوم على محاولة الإفادة من منازعاتهم وخلافاتهم الداخلية ؛ ولذا فانه كان يهادن بعض أمرائهم دون البعض الآخر حتى تتوفر له حرية الحركة ضدهم جميعاً . وفى البداية ، ركز الظاهر بيبرس جهوده العسكرية ضد الفرنج ومستوطناتهم وحصونهم على سواحل بلاد الشام الشمالية والجنوبية . وبعد مناورة كبيرة قامت بها جيوش هذا السلطان الداهية ، والقائد العسكرى الفذ ، فوجىء الفرنج الصليبيون بالقوات المصرية تفرض حصارها على مدينة أنطاكية الحصينة تعاونها الجيوش الشامية .

كانت هذه المدينة تحتل مكانة خاصة لدى الصليبيين بسبب مناعة حصونها ، وبسبب تحكمها فى الطرق الواقعة فى مناطق شمال الشام . وقد فشل البيزنطيون فى انتزاعها من الصليبيين الذين استولوا عليها فى خضم أحداث الحملة الصليبية الأولى . وربما يكون من المهم هنا أن نشير إلى أن قوات الفرنج لم تتمكن من أخذ المدينة الحصينة فى الحملة الأولى سنة ١٠٩٨ م بالقوة العسكرية ، وإنما فتح أحد الخونة من حراس أبوابها - بعد أن جنده بوهيموند - أبواب واحد من أبراج المدينة للقوات الفرنجية قبل فجر يوم اقتحامها .

على أية حال ، تمكنت الجيوش المصرية والشامية ، بقيادة الظاهر بيبرس ، من اقتحام المدينة سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨ م (٥١). وفرت حاميتها إلى القلعة حيث طلب الصليبيون الأمان من السلطان ، واستولى المسلمون على المدينة التى ظلت رهن الأسر الصليبى منذ الحملة الصليبية الأولى ؛ أى على مدى أكثر من مائة وخمسين سنة . ويبدو من كلام المصادر التاريخية أن الغنائم كانت وفيرة جدا ، إذ يذكر المقريزى أن غنائم المسلمين فى أنطاكية بلغت من الكثرة أن " ... قُسمت النقود بالطاسات ... " وكان الأسرى كثيرون لدرجة أنه " ... لم يبقْ غلام إلاّ وله غلام ... وبيع الصغير باثنى عشر درهما ، والجارية بخمسة دراهم..." (٥٢).

وعلى صعيد المواجهة بين المسلمين والفرنج كان سقوط أنطاكية بأيدى قوات مصر والشام بقيادة السلطان الظاهر بيبرس أعظم فتح حققه المسلمون على حساب المستوطنين الفرنج منذ

استرداد صلاح الدين الأيوبى لبيت المقدس سنة ١١٨٧م . وهكذا أكد بيبرس جدارته وجدارة دولته بالدور التاريخى الذى تعلق بهما ؛ فقد نجحت دولة سلاطين المماليك فى أول اختبار لجدارتها بدور القوة المدافعة عن العالم الإسلامى . لقد كان فرح المسلمين عظيما باسترداد أنطاكية من أسر الفرنج ، وكتبت البشائر إلى بلاد الشام ومصر بهذا الفتح ، وتلقاه سكان هذه البلاد بالأفراح والزينات التى أقاموها فى الشوارع والأسواق . كانت أنطاكية التى استولى عليها الفرنج سنة ١٠٩٨ م ، واستردها المسلمون سنة ١٢٦٨ م ، هى المسمار الذى دقه المسلمون فى نعش الوجود الصليبى على الأرض العربية . كذلك كان سقوط أنطاكية بمثابة إعلان جديد لحركة الجهاد الكبرى ، التى كانت المنازعات الأيوبية الداخلية قد تسببت فى توقفها ، ثم جاءت دولة سلاطين المماليك بقيادة السلطان الظاهر بيبرس لتعاود القيام بها . وهى الحركة التى لم تنته سوى ١٢٩١ م عندما نجحت القوات المصرية تحت قيادة السلطان الأشرف خليل بن قلاون فى القضاء على بقايا الفرنج الذين كانوا قد تجمعوا فى عكا .

أما الفرنج ، فقد جاءت أنباء سقوط أنطاكية بأيدى المسلمين بمثابة الكارثة على رؤوسهم . ونظراً للوحدة التى تمتعت بها الجبهة العربية الإسلامية آنذاك ، والتى جعلت الجهود الإسلامية بقيادة بيبرس تتسم بالجسارة والإقدام ، فقد كان من الطبيعى أن يشعر الفرنج بالضعف والخوف فى مواجهة المسلمين . ومن ثم ، سارع بعض حكام المستوطنات الصليبية إلى تقديم فروض الطاعة والولاء لسلطان المملوكى فى محاولة واضحة لاسترضائه . إذ أن حاكم عكا أرسل يطلب عقد هدنة مع السلطان بيبرس مقابل أن يتنازل عن نصف أملاك التاج الصليبى فى عكا (٥٣). وعلى الرغم من أن الملك الصليبى لم يُقر هذه المعاهدة بشكل نهائى ، فإن سكون الحال بسببها أطلق يد السلطان بيبرس ضد بعض القوى الصليبية الأخرى ؛ فهاجم إمارة طرابلس الصليبية ؛ فاستولى على كافة المنافذ المؤدية إلى مدينة طرابلس نفسها . ولكن الأنباء التى جاءت بخروج حملة صليبية جديدة من فرنسا جعلت الملك يعود مسرعاً إلى القاهرة لكى يستعد لمواجهة الفرنج الذين أحرز النصر عليهم فى المنصورة وفارسكور قبل عشرين عاماً. بيد أن الحملة توجهت إلى تونس حيث مات زعيمها لويس التاسع الذى كان المصريون قد أسروه فى مدينة المنصورة من قبل (٥٤).

وهكذا عاد بيبرس ، مرة أخرى ، إلى بلاد الشام بعد أن انتهت حملة لويس التاسع على

تونس بالفشل الذريع . وفى سنة ١٢٧١ م.كانت قوات بيبرس تقاتل إمارة طرابلس الصليبية من جديد ، وإزاء تطور الأحوال السياسية بوصول الأمير إدوارد الإنجليزى إلى عكا على رأس قوة صليبية جديدة قوامها ثلاثمائة فارس وثلاثمائة سفينة ، غير القوات التى كانت قد سبقته إلى بلاد الشام ، شدد بيبرس هجومه على طرابلس حتى طلب أميرها الصليبى عقد هدنة مع السلطان ، وتم الاتفاق على ذلك (٥٥) . بين السلطان الظاهر بيبرس والأمير بوهيموند السادس أمير طرابلس . وتذكر المصادر التاريخية أن بيبرس سخر من جبن الأمير الصليبى وأمره أن يدفع نفقات الحملة التى جردها ، ورفض بوهيموند مما كاد أن يؤدى إلى فشل مفاوضات الهدنة(٥٦) .

بعدها ، لم تعد بيد الفرنج فى بلاد الشام أية قلاع أو حصون فى الداخل . ثم أرسل بيبرس حملة بحرية على قبرص ولكنها فشلت بسبب سوء أحوال البحر (٥٧).

واذا كانت حملة الأمير إدوارد الإنجليزى تعتبر آخر حملة صليبية يقودها أمير أوربى صوب فلسطين(٥٨) ، فان اتفاقية بيبرس مع أمير طرابلس كانت خاتمة لجهوده الكبيرة ضد الفرنج الصليبيين ، ففى سنة ٦٧٣ هـ / ١٢٧٥ م تم عقد هدنة عامة مع الصليبيين الذين سعوا إلى هذه الهدنة وألحوا فى طلبها (٥٩). وبعد ذلك كانت المعارك التى خاضها بيبرس ضد الفرنج فى بلاد الشام وفلسطين ذات طابع محلى محدود مما جعلها قليلة الأثر والأهمية فى الصراع المستمر بين المسلمين وأعدائهم الفرنج .

ولنتحدث الآن بشىء من التفاصيل عن الحملة البحرية التى جردها السلطان بيبرس ضد قبرص ، والتى أشرنا إليها باختصار . فقد أدرك بيبرس مدى أهمية قبرص بالنسبة للصليبيين فى جبهة أخرى غير بلاد الشام . ففى سنة ١٢٦٩م كان هيو الثالث لوزينيان قد صار ، عن طريق المصاهرة ، ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية فى عكا (٦٠). إذ كان هيو الثالث هذا يرى نفسه جديراً بزعامة الصليبيين ؛ ومن ثم قرر أن يضع هذه الزعامة موضع التنفيذ . ففى سنة ١٢٦٥م ، عندما كان مايزال وصياً على عرش المملكة ، أرسل قوة كبيرة لمساندة الصليبيين بالشام فى مواجهة هجمات جيوش السلطان الظاهر بيبرس ؛ ولكن هذه القوة التى قدرها المؤرخ تقى الدين المقريزى بألف وخمسمائة فارس لم تتمكن من فعل شىء لنجدة قيسارية وحيفا وأرسوف التى استولى عليها الجيش المصرى ، كما أوضحنا من قبل . ومن

ناحية أخرى ظلت السفن القبرصية تقوم بأعمال القرصنة ضد سفن المسلمين على نحو هدد حركة التجارة والسفر فى البحر المتوسط بشكل خطير .

وبعد أن جمع هيو الثالث لوزينان بين عرش قبرص وعرش مملكة بيت المقدس اللاتينية سنة ١٢٦٩ م ، تصاعد نشاطه العدوانى ضد المسلمين تصاعداً خطيراً . ولم تكن قوات بيبرس فى تلك السنة على استعداد للقيام بأى عمل عسكرى ضد هذا الملك ، فاكتفى بأن وجّه نقداً مريراً لساسة هيو الغادرة ، وهدد زعماء الفرنج فى الشام بتأديب هيو بما يستحق .

فى سنة ١٢٧٠م شن الأسطول المصرى غارة على سواحل قبرص . وكانت القوات المشتركة فى هذه الغارة مكونة من سبع عشرة سفينة بقيادة ابن حسّون ، وعلى الرغم من أن السفن الإسلامية قد عمدت إلى الخداع عندما طلاها قائدها بالقار ورسم عليها الصلبان لتضليل أهل قبرص ، فان عاصفة شديدة دمرت إحدى عشرة سفينة من الأسطول ، وتم أسر من كان على متنها من الجنود والملاحين والقادة على حين عادت السفن الست الباقيات ، بقيادة ابن حسون، إلى الموانىء المصرية (٦١).

وعندما علم هيو بنبأ الغارة البحرية الفاشلة أرسل رسالة شامتة إلى السلطان بيبرس . وجاء فى رد بيبرس على ملك قبرص وبيت المقدس " ... وما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديد وخشب ، والاستيلاء على الحصون المنيعة هو العجب ... وما النصر بالهواء مليح ، وإنما النصر بالسيف هو المليح ... ونحن نُنشى فى يوم واحد عدة قطايع [سفن] ، ولا ينشأ لكم من حصن قطعه ... وكل ما أعطى مقذافاً قذف ، وما كل من أعطى السيف أحسن الضرب به أو عرف ... " (٦٢) ومع ذلك فان بيبرس تمكن من تهريب قادة حملته البحرية التى حطمتها العاصفة من داخل سجن قلعة عكا حيث كان الملك الصليبى قد أمر يسجنهم .

كانت جبهة القتال الثانية التى تولى اللسلطان بيبرس قيادة جيوش مصر والشام فيها هى جبهة الحرب ضد المغول . وعلى الرغم من أننا نعتقد أن المغول الوثنيين لم يكونوا خطراً حقيقياً على العالم الإسلامى فى المدى الطويل ، بسبب وثنيتهم وبداوتهم التى لم تكن لتصمد أمام الدين الإسلامى والحضارة العربية الإسلامية ، فان وحشيتهم وروحهم العسكرية كانت بالفعل خطراً داهما على المسلمين فى حينها . ومن ناحية ثانية كان الغزو والحرب محور الحياة المغولية منذ جنكيز خان ، كما أن هزيمتهم فى عين جالوت لم تنهٔ خطرهم على حدود دولة سلاطين

المماليك الناشئة . والأمر الثالث يتمثل فى حقيقة مؤداها أن سلاطين المماليك ، منذ عهد السلطان الظاهر بيبرس ، قد باتوا مسئولين عن حماية العالم الإسلامى : ألم يأخذ بيبرس تفويضاً من الخليفة العباسى فى القاهرة بحكم بلاد المسلمين ؟ ومن ثم صارت دولته هى المسئولة عن حماية هذه البلاد ؟ هذه المسئولية هى التى جعلت بيبرس يهتم بمحاربة المغول الذين كان الحال قد استقر بهم فى بلاد فارس والعراق .

من ناحية أخرى ، كان هناك خطر محتمل يخشاه بيبرس . ذلك أن محاولات كانت قد جرت بالفعل للتحالف بين المغول والصليبيين . فقد أرسل أبغا بن هولاكو (١٢٦٥ - ١٢٨٢م) سفراءه إلى البابا كليمنت الرابع سنة ١٢٦٧ م ، وإلى الملك جيمس الأول ملك أراجون بعدها بسنتين وإلى مجمع ليون سنة ١٢٧٤ م يقترح القيام بحملات مشتركة ضد سلطنة المماليك عدوهم المشترك . كما أن البابا نيكولاس الرابع التقط الفكرة وخاطب المغول فى شأن التحالف ، بيد أن الأمر لم يتعد حدود تبادل السفارات والمفاوضات (٦٣).

ولمجابهة هذا الخطر الماثل قام بيبرس بالتحالف مع بركة خان زعيم قبيلة الذهبية كما أشرنا من قبل ، وتزوج إبنة هذا الزعيم المغولى المسلم لتقوية أواصر التحالف بينهما هذا الحلف المملوكى / المغولى آتى ثماره عندما أخذ بركة خان يحارب بقية المغول الوثنين . وفى سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ م وردت رسالة من بركة خان إلى السلطان الظاهر بيبرس جاء فيها طلب المساعدة ضد هولاكو " ... وأننى قد قمت أنا وأخوتى الأربعة لحربه من سائر الجهات ، لإقامة منار الإسلام ، وإعادة مواطن الهدى إلى ما كانت عليه من العمارة ، وذكر الله والآذان والقراءة والصلاة وأخذ ثأر الأئمة والأمة ... " (٦٤). وقد ردّ بيبرس على رسالة بركة خان بسفارة تحمل خطابات الود والهدايا الثمينة وقد حكى سفراء بيبرس ، عند عودتهم إلى مصر ، أنهم شاهدوا فى بلاط بركة خان إماماً ومؤذناً خاصاً لكل أمير ، أو أميرة ، فى بلاط بركة خان ، وأنهم شاهدوا الأطفال يحفظون القرآن ببلاد القفجاق (٦٥).

كان هذا التحالف بمثابة خط الدفاع الأول لدولة سلاطين المماليك ضد هجمات مغول فارس الوثنيين ؛ ولهذا السبب اتسمت هجمات مغول فارس ضد بلاد الشام بالسرعة والرعونة كما افتقرت إلى الشمول والعنف الذى ميز الهجمات المغولية التى سبقت معركة عين جالوت .

فى سنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٥ م أغار مغول فارس على قلعة البيرة الهامة الواقعة على ضفاف

نهر الفرات ، وحاصرت قوات المغول حاميتها بغية الاستيلاء عليها ؛ فجهز السلطان من فوره الأمير بدر الدين الخازندار على البريد ليخرج أربعة آلاف فارس من بلاد الشام . وركب السلطان بيبرس بنفسه متوجهاً إلى القلعة (٦٦) . ولكن رسالة وردت إليه لتخبره بفرار المغول عندما شاهدوا القوات التى أرسلها . وعلى الرغم من ذلك ، أمر بيبرس بتدعيم التحصينات فى هذه القلعة الهامة بحيث تصمد للحصار حتى لو امتد عشر سنوات . وعندما أرسل الأمراء يصفون ما تكبدوه من مشقة لتحصين قلعة البيرة ، كان هو يعمل فى هدم أسوار قيسارية التى استولى عليها من الصليبيين كما ذكرنا من قبل ، فبعث إليهم برسالة تقول "... إنا بحمد الله ما تخصصنا عنكم براحة ولادعة ، ولا أنتم فى ضيق ونحن فى سعة . ما هنا إلا من هو مباشر الحروب الليل والنهار ، وناقل الأحجار ومرابط الكفار . وقد تساوينا فى هذه الأمور ، وما ثم ما تضيق به الصدور " (٦٧).

وفى السنة نفسها مات هولاكو زعيم مغول فارس ، ولكن وفاته لم توقف تيار المشاعر العدائية المتبادل بين سلطنة المماليك فى مصر والشام وبين مغول فارس . ذلك أن ابن هولاكو وخليفته المدعو أبغا كان حريصا على دعم صلاته بالقوى المسيحية ، سواء فى الدولة البيزنطية أو البابوية ودول غرب أوربا ، بقصد تطويق العالم الإسلامى عامة ، ومحاربة دولة سلاطين المماليك على نحو خاص . وفى عهده كثرت السفارات بين المغول والبابوية التى رأت فى المغول أداة تمكنها من تحقيق مآربها وأهدافها التى فشلت الحملات الصليبية فى تحقيقها ، كما شهدت بلاطات ملوك الغرب الأوربى سفراء المغول بملابس الغريبة وملامحهم الصارمة . وكانت أنباء هذه السفارات والاتصالات ، التى كانت مملكة أرمينيا الصغرى طرفاً فيها ، تصل إلى السلطان بيبرس فيأخذ حذره ويُعد نفسه لمواجهة هذه المخاطر مجتمعة أو فرادى .

وقد حاول أبغا بن هولاكو نفسه أن يعقد صلحاً أو هدنة مع بيبرس مرتين ، ولكن بيبرس رفض (٦٨). ثم استأنف أبغا سياسته العدوانية تجاه دولة سلاطين المماليك مرة ثانية ؛ ففى سنة ١٢٦٩ م اتفق المغول مع الصليبيين وشنّت قوات أبغا هجوماً على المناطق القريبة من حلب ، وحين أسرعت القوات المصرية تحت قيادة السلطان إلى بلاد الشام انهزم المغول وارتدوا عن هذه المناطق . وفى سنة ١٢٧١ م عاودت القوات المغولية الهجوم ضد المسلمين فى بلاد الشام ، ولكن الهزيمة كانت من نصيب المغول فى هذه المنطقة القريبة من حران على الرغم من

أن الصليبيين حاولوا تخفيف العبء عن حلفائهم المغول بالهجوم على بعض المناطق العربية ولكن الهزيمة كانت من نصيبهم أيضاً (٦٩).

فى تلك الأثناء كانت أحوال الصليبيين متدهورة إلى أدنى حد ، وقد رد المسلمون على فعلة الفرنج بمهاجمة عكا ، وسارع الفرنج إلى طلب الهدنة ووافق بيبرس على طلبهم بعقد هدنة لمدة عشر سنوات وعشرة شهور وعشرة أيام - كما أوضحنا من قبل - لكى يحرم المغول من حليفهم الصليبى . ولذلك بعث أبغا بن هولاكو رسله يحملون عرضاً جديداً بالصلح . وبعد مفاوضات ومناوشات عسكرية لاستعراض القوة بحيث يتم التأثير على شروط الصلح ، فشلت هذه المحاولة (٧٠) وفى سنة ٥٧١ هـ / ١٢٧٣ م هاجم التتار البيرة والرحبة ؛ فخرج السلطان للقائهم حتى وصل الفرات عند مخاضة تُعرف باسم " مخاضة الحمام " وجرت معركة عنيفة انكسر بعدها جيش التتار شر كسرة (٧١).

أدت هزيمة المغول على هذا النحو المشين إلى موقف سياسى وعسكرى جديد ؛ فقد أخذ أبغا يبحث لنفسه عن حليف جديد ، ووجد ضالته فى سلاجقة الروم بآسيا الصغرى . وهكذا انتقل الصراع الإسلامى / المغولى إلى جبهة جديدة فى الشمال حيث قامت مملكة سلاجقة الروم التى كانت تابعة للمغول وتحت حمايتهم منذ أيام هولاكو ، والحاكم فيها هو الوزير معين الدين سليمان البرواناه (أى الحاجب) .

فى سنة ٦٧٥ هـ / ١٢٧٧ م وفدت على السلطان الظاهر بيبرس وهو بدمشق عدة من أمراء سلاجقة الروم مغاضبين للبرواناه ، وأكرمهم السلطان . ثم شرع السلطان فى تجهيز جيشه للإستيلاء على مملكة سلاجقة الروم . وورد الخبر على بيبرس بأن عساكر التتار ومقدمهم تتاوون ، وعسكر السلاجقة ومقدمهم معين الدين البرواناه . ودارت معركة عنيفة قرب أبلستين ، وهرب البرواناه بجنوده ، وهُزِم التتار شر هزيمة (٧٢). ثم دخل بيبرس إلى قيسارية عاصمة سلاجقة الروم وجلس على عرشها حيث استقبله الناس بحفاوة بالغة . ولما علم أبغا بالكارثة أسرع إلى الأناضول حيث شاهد جثث الآلاف من جنوده طريحة فى أرض المعركة ، ولم يتمالك نفسه وبكى بمرارة . ثم أمر بنهب تلك البلاد وقتل عدداً كبيراً من سكانها المسلمين لأنهم رحبوا بالسلطان بيبرس الذى قضى على جيشه ، كما قتل وزير البرواناه استجابة لرغبة نساء جنوده القتلى .

كانت هذه هى آخر أعمال السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى .. فبعد هذه الأحداث بوقت قصير توفى السلطان وهو فى قمة حياته الحافلة بالنشاط السياسى والعسكرى، فى الثامن والعشرين من شهر المحرم سنة ٦٧٦ هـ / ٣٠ يونيو ١٢٧٧ م ، بعد أن تجاوز الخمسين من عمره بعد فترة حكم طالت إلى سبع عشرة سنة وشهرين واثنى عشر يوماً. وكانت وفاته بدمشق فدفن قرب داريا ببلاد الشام حسب وصيته .

هكذا جاءت نهاية بطل من أبطال تاريخ المسلمين ، كان ملء العين والقلب ، أحبه الناس ولهجوا بسيرته ، وأضافوا إليها الكثير من خيالهم لأنه كان يسير على طريق تحقيق أمانى الأمة ومحاربة أعدائها . وقد لخص المقريزى موقف المعاصرين من السلطان الظاهر بيبرس بعبارة بليغة ؛ إذ يقول : " .... وبالجملة ، فقد كان من خير ملوك الإسلام "(٧٣) كما رثاه محيى الدين بن عبد الظاهر الذى كتب سيرته تحت عنوان " الروض الزاهر فى سيرة الملك الناصر " بقصيدة طويلة جاء فيها :(٧٤)

لهفى على الملك الذى كانت به	الدنيا تطيب فكل قفر منزل
الظاهر السلطان من كانت له	منن على كل الورى وتطول
لهفى على تلك العزائم كيف قد	غفلت وكانت قبل ذا لا تغفل
سهم أصاب ومارَئى من قبله	سهم له فى كل قلب مقتل

ولا شك فى أن اهتمامنا بهذا السلطان الفذ له ما يبرره ؛ فقد تمكن باصلاحاته الإدارية وحكمته السياسية أن ينتزع لنفسه الدور الأساسى فى بناء دولة سلاطين المماليك . فقد مرت قبله سنوات عشر تقلبت فيها أحوال الدولة الناشئة التى كان نفوذها قاصراً على مصر ينازعها فيها الأيوبيون . ومات بعد سبع عشرة سنة فاذا سلطان دولة المماليك ممتد على كل المنطقة العربية ، وصوتها مسموع فى كافة أنحاء العالم المعروف آنذاك . لقد رسم أبعاد السياسة الداخلية والخارجية لدولة سلاطين المماليك ؛ وهى السياسة التى سار عليها خلفاؤه حتى تم القضاء على خطر المغول من ناحية ، واستئصال شأفة الوجود الصليبى على الأرض العربية من ناحية أخرى كما سنرى فى الصفحات القادمة .

لهذا أحبه المصريون وأهل الشام ، واشتهرت سيرته فى مجالسهم ومسامراتهم دون سائر

السلاطين ؛ فصاغ الوجدان الشعبى سيرة رائعة لهذا السلطان أحلوه فيها منزلة هامة ورائعة وجعلوا كافة شخصيات تلك الفترة التريخية ، وما سبقها ، شخوصاً ثانوية فى خدمة البطل الظاهر بيبرس (٧٥) لقد صوَّر الوجدان الشعبى الظاهر بيبرس فى هذه السيرة الشعبية كأنه عصر بأكمله ، وليس مجرد إنسان فرد . وهكذا الشعوب ... تمنح حبها وتمجيدها بلاد حدود لمن أعطى وبذل فى سبيل تحقيق أهدافها ومصالحها بلا حدود .

بعد بيبرس ، تولى العرش ابنه " بركة خان " ؛ بيد أن هذه الولاية لم تكن عن إيمان من جانب أمراء المماليك بمبدأ وراثة الحكم . إذ أن نشأتهم العسكرية من ناحية ، والظروف التى ولدت فى غمارها دولتهم من ناحية أخرى ، جعلت المبدأ السياسى الذى يؤمن به الجميع هو "الحكم لمن غلب " . ومن ثم ، لم تكن ولاية الملك السعيد بركة خان ابن السلطان الظاهر بيبرس أكثر من مرحلة انتقالية ريثما يتم حسم الصراع لصالح أحد أمراء المماليك الكبار .

وكان السلطان الظاهر بيبرس قد سعى فى حياته لتوريث السلطنة لابنه الملك السعيد بركة(٧٦) ، وفى سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٤ م ، ركب بيبرس وابنه بشعار السلطنة فى احتفال كبير حضره الأمراء والقضاة والفقهاء . وفى سنة ٦٧٣ هـ / ١٢٧٥ م زوج بيبرس ابنه الملك السعيد بركة من ابنة الأمير سيف الدين قلاون لكى يضمن له ولاء هذا الأمير وبقية المماليك بالشكل الذى يؤمن له عرش سلطنة المماليك .

على أية حال تولى ابنه عرش السلطنة ، بعد وفاته ، تحت إسم " السلطان الملك السعيد ناصر الدين بركة خان " فى شهر ربيع الأول سنة ٦٧٦ هـ . وخُطب له فى جميع الجوامع بالديار المصرية (٧٧) ومن خلال الوصية التى تركها بيبرس لابنه قبل وفاته ندرك أنه لم يكن واثقاً من أن أمر وراثة العرش سوف يتم فى سهولة . فقد أوصاه بالعنف ضد كل من يحاول أن يقف فى طريقه ، أو يعارض سلطته ، إذ قال فى وصيته : " ... إنك صبى ، وهؤلاء الأمراء الكبار يرونك بعين الصبى ، فمن بلغك عنه أنه يشوش عليك ملكك ، وتحققت ذلك ، فاضرب عنقه فى وقته ، ولاتعتقله ، ولا تستشر أحداً ، وأفعل ما أمرتك به وإلا ضاعت مصلحتك ".

كان عمر الملك السعيد بركة خان ، عندما اعتلى عرش السلطنة سبعة عشر عاماً . ولكن ابن السلطان بيبرس كان على النقيض من أبيه ؛ إذ كان مستهترا يميل إلى اللهو الشراب .

وتغير السلطان الصبى على أمراء المماليك فنفرت منه قلوب الأمراء لاسيما الصالحية رفاق أبيه (٧٨)؛ مثل الأمير سيف الدين قلاون والأمير شمس الدين سنقر الأشرف ، والأمير علم الدين سنجر الحلبى وأقرانهم لأنهم كانوا يأنفون من سلطنة الملك الظاهر بيبرس عليهم " ... ويرون أنهم أحق منه بالملك ... " فصار ابنه الملك السعيد يحط من أقدارهم ، وقبض على عدد من كبارهم . ويقول المقريزى " ... واستغرق السلطان فى لذاته ، وبسط يده بعطاء الأموال الكثيرة لخاصكيته ، وخرج عن طريقة أبيه ... " (٧٩).

ثم تطورت الأمور بالشكل الذى أدى إلى حصار السلطان فى قعة الجبل بالقاهرة لمدة أسبوع ، وأصر الأمراء المتمردون على أن يخلع السلطان نفسه ، فأذعن لطلبهم وحلف له الأمراء . وكانت مدة ملكه سنتين وشهرين وثمانية أيام (٨٠).

ورفض الأمير سيف الدين قلاون عرش السلطنة حين عُرض عليه خشية من مماليك السلطان بيبرس الذين كانوا يشكلون غالبية فرسان الجيش المصرى آنذاك ، وتظاهر بالزهد وقال : " أنا لم أخلع الملك السعيد شرها فى السلطنة وحرصاً على المملكة ، ولكن حفاظاً للنظام ، وأنفة لجيوش الإسلام أن يتقدم عليها الأصاغر ، والأولى ألا يخرج الأمر من ذرية الملك الظاهر " . ومن ثم اختير الإبن الثانى لبيبرس ، وهو بدر الدين سلامش ، الذى كان فى السابعة من عمره فقط . وكان صغر سن السلطان الطفل هو الستار المناسب لتحركات الأمير سيف الدين قلاون صوب العرش . فبدأ يعيد ترتيب الساحة السياسية ، وتخلص من أعدائه الفعليين والمحتملين بالسجن . وتقاسم عرش دولة سلاطين المماليك مع السلطان الطفل ، ثم ما لبث أن عزله لينفرد بالحكم تحت دعوى أن حكم البلاد لايستقيم إلا برجل كامل (٨١).

هكذا كان حكم بدر الدين سلامش ، الذى استمر مائة يوم ، مجرد توطئة لحكم السلطان سيف الدين قلاون الذى جاء تأكيدا جديدا لمبدأ " الحكم لمن غلب " . ولم يكن من المنتظر أن يخلص الحكم ، بطريق الوراثة ، لأبناء الظاهر بيبرس الذى انتزع الحكم بجسارته العسكرية وحنكته السياسية . وهكذا مضت دولة سلاطين المماليك على طريق الحكم العسكرى القائم على القوة ، وكان عليها فى الوقت نفسه أن تواصل الاضطلاع بدورها التاريخى فى التصدى للفرنج والمغول تحت زعامة السلطان المنصور سيف الدين قلاون وابنه الأشرف خليل .

حواشي الفصل الثاني :

١ - قاسم عبده قاسم ، بين التاريخ والفولكلور ، (عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية ، ١٩٩٣ م) ، ص ١٢١ - ص ١٥٤ . حيث توجد دراسة متكاملة عن " الشخصيات التاريخية في سيرة الظاهر بيبرس ».

٢ - أغفل محيى الدين بن عبد الظاهر ، صاحب سيرة السلطان الظاهر بيبرس المسماة " الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر " الحقائق الخاصة بطفولة السلطان . أنظر مقدمة الدكتور عبد العزيز الخويطر الذى نشر هذه السيرة ، ص ٣٢ . وقد ذكر ابن أيبك الدواداري (كنز الدُرر ، جـ ٨ ، ص ٦١) قصة يُفهم منها أن أصله كان من الرقيق الذين باعهم التجار في حلب . أما المقريزى (السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٣٦) فقد ذكر أنه كان تركي الجنس واشتراه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وترقى في خدمته واستفاد من أخلاقه ، ثم خدم إبنه توران شاه إلى أن قتل ، ثم خرج من مصر بعد مقتل فارس الدين أقطاى .

٣ - ابن أيبك ، كنز الدُرر ، جـ ٨ ، ص ٦١ .

٤ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٣٨ - ص ٤٣٩ .

٥ - عن تفاصيل هذا التمرد أنظر : ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٩٤ - ص ٩٥ ؛ ابن أيبك الدواداري ، كنز الدرر ،جـ ٨ ، ص ٦٣ - ص ٦٤ ؛ ص ٦٩ - ص ٧٠ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٣٨ - ص ٤٣٩ ، ص ٤٤٤ - ص ٤٤٥ .

٦ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٦٥ - ص ٤٦٦ ، ص ٤٧١ ، ص ٤٧٦ .

٧ - ابن أيبك الدواداري ، كنز الدُرر ، جـ ٨ ، ص ٧٠ .

٨ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٤٠ ؛ العبادى ، قيام دولة المماليك الأولى ، ص ١٧٨ - ص ١٧٩ .

٩ - عن محاولات نقل الخلافة العباسية إلى مصر منذ أيام أحمد بن طولون حتى السلطان سيف الدين قطز ، أنظر : العبادى ، قيام دولة المماليك الأولى ، ص ١٨٠ - ص ١٨١ .

١٠ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٤٨ .

١١ - ابن أيبك ، كنز الدُرر ، جـ ٨ ، ص ٧٢ - ص ٧٣ .

١٢ - كانت مبايعة الخليفة العباسي المستنصر بالله يوم الإثنين ١٣ رجب ٦٥٩هـ / يونيو ١٢٦١م المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٤٨ - ص ٤٤٩ ؛ ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٩٩ - ص ١١٠.

١٣ - السيوطى ، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (القاهرة ١٢٩٩ هـ) ، جـ ١ ، ص ٨٧ ؛ ابن أيبك الدواداري ، كنز الدُرر ، جـ ٨ ، ص ٧٢ - ص ٧٩ ؛ النويرى ، نهـــاية الأرب في فنون الأدب ، (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة) ، جـ ٢٨ ، ق ١٨ ، المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٤٨ - ص ٤٥٧ ؛ السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص ٣٢٨ - ص ٣٢٩ ؛ أنظر أيضا
Ziada , " The Mamluk Sultans " , p . 747 . :

١٤ - يذكر المقريزى (السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٦٢ - ص ٤٦٣) أن السلطان كان قد عزم على أن يبعث مع الخليفة عشرة آلاف فارس حتى يستقر ببغداد " ... فخلا أحدهم بالسلطان وأشار عليه ألا يفعل ، فان الخليفة إذا استقر أمره ببغداد نازعك وأخرجك من مصر . فرجع إليه الوسواس ، ولم يبعث مع الخليفة سوى ثلاثمائة فارس " .

١٥ - ابن أيبك ، كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ٩٤ - ص ٩٥ .

١٦ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٥٤٠ .

١٧ - ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٨٩ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٥١٢ .

١٨ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٥٨٠ - ص ٥٨١ .

١٩ - النويرى ، نهاية الأرب فى فنون الأدب ، (جـ ٣٠ ، تحقيق محمد عبد الهادى شعيرة ، دار الكتب المصرية ١٩٩٠ م) ، ص ١٦٦ . وقد ذكر النويرى أنه " بقى كأحد الناس بغير حاجب ، ثم غسل الكعبة ، وبقى فى وسط البيت ، ومن رمى له إحرامه غسله بما ينصب من الماء فى الكعبة ورميه إلى صاحبه ، ثم جلس على باب الكعبة وأخذ بأيدى الناس ليطلع بهم إلى الكعبة ... " .

أنظر أيضا : العينى ، عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان (تحقيق محمد محمد أمين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨) ، جـ ٢ ، ص ٤٦ - ص ٤٧ .

٢٠ - كان ترميم قبة الصخرة سنة ٦٦٠ هجرية على أيدى صناع من دمشق ، كما أعاد أوقاف مسجد الخليل عليه السلام ، وأضاف إلى أوقافه قرية أذنه . أنظر : ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٨٩ - ص٩٠ .

٢١ - العينى ، عقد الجمان ، جـ ٢ ، ص ٦ .

٢٢ - النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٣٠ ، ص ٩٣ - ص ٩٤ .

٢٣ - نفسه ، ص ١٣٣ - ص ١٣٤ .

٢٤ - ابن أيبك الدواداري ، الدرة الزكية فى أخبار الدولة التركية ، ص ١٢٣ .

٢٥ - النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٣٠ ، ص ٢٦ - ص ٢٧ .

٢٦ - النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٣٠ ، ص ٧٩ - ص ٨١ .

٢٧ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٨٢ .

٢٨ - هو سيف الدولة المهمندار (أى المسئول عن استقبال الرسل والعربان والوافدين على السلطان) ؛ أنظر : المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٦٣٧ - ٦٣٨ .

٢٩ - سيرة الظاهر بيبرس ، خمسة مجلدات ، طبعة عبد الحميد أحمد حنفى (القاهرة د . ت) وهى تقع فى خمسين جزءاً ألحق بها سجل بسلاطين المماليك وسلاطين الدولة العثمانية وحكام أسرة محمد على حتى الثورة العرابية وماتلاها .

٣٠ - عن الحملة الصليبية الرابعة أنظر :

Villehardouin , The conquest of Constantinople , in : Joinville and Villeherdouin , Chronicles of the Crusades , (translated with an introduction by : M . R . B . shaw , Penguin Books , 1975) , pp - 29 - 160 ; Mayer , H . E . The Crusades (translated by Gillingham , Oxford , 1972) , pp . 183 - 193 , Edgar H . McNeal and Robert Lee Wolff , " The Fourth Crusades " , in Setton (ed.) , Hist , of the Crusades , Vol . II , pp . 155 - 186 .

٣١ - الأسقف الكبير (البطريق) هو الرشيد الكحال . أنظر : العينى ، عقد الجمان ، جـ ١ ص ٣٣٢ ؛ ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١٢٩ ؛ أحمد مختار العبادى ، قيام دولة المماليك الأولى ، ص ٢٠٢ - ص ٢٠٣ .

٣٢ - العبادى ، المرجع السابق ، ص ٢٠٢ - ص ٢٠٥ .

٣٣ - ابن أيبك الدواداري ، الدرة الذكية ، ص ٩٩ ، ص ١٦٧ ؛ ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١٣٩ - ص ١٤٠ ، ص ٢١٤ - ص ٢١٨ ؛ المقريزي ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٧٤ - ص ٤٧٥ ، ص ٤٧٧، ص ٤٧٩ - ص ٤٨٠ ، ٤٩٥ .

٣٤ - يذكر المقريزي (السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٧٦) في حوادث سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م مانصه : " وفيها وفد على السلطان بُعيْد كسرة المستنصر شيوخ عبادة وخفاجة ، من هيت والأنبار إلى الحلة والكوفة ... فأنعم السلطان عليهم وكانوا له عينا على التتار " .

٣٥ - أحمد مختار العبادي ، قيام دولة المماليك الأولى ، ص ٢٠٩ - ص ٢١١ .

٣٦ - ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٩٠ .

٣٧ - المقريزي ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٤١ .

٣٨ - في سنة ٦٦٠هـ أعاد تعيين القاضي تاج الدين بن بنت الأعز على القضاء بمصر ، كما أمره أن يتخذ نواباً من المذاهب الثلاثة الأخرى ، الحنفي والملكي والحنبلي لأنه كان من الشافعية . أنظر :

العيني ، عقد الجمان ، جـ ١ ، ص ٣٣٢ - ص ٣٣٣ . وعن تنظيم البريد أنظر :

القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، (طبعة دار الكتب المصرية) ، جـ ١٤ ، ص ٣٧٣ - ص ٣٨٣ ؛ أحمد مختار العباري ، قيام دولة المماليك الأولى ، ص ٢١١ - ص ٢١٣ . أنظر أيضا : ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٩٥ ؛ إذ يقول عن تنظيم البريد " ... وهذه همة عالية فانه يرتب بذلك أمور الشام والقلاع وأكثر ممالكه في كل جمعة مرتين ، ويُقطع ويِقطع ، ويولي ويعزل في جميع الشام وحلب . وهو في مصر لاتخفي عليه أخبار الشام وحلب ، وغير اك من بلاد الفرنجة ... " .

٣٩ - المقريزي ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٥٧٧ ، ص ٥٩٥ .

٤٠ - عن هذا الموضوع بالتفصيل أنظر :

محمود نديم أحمد ، الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري ، (الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٨٣) ، ص ٦٧ - ص ١٣٣ .

٤١ - قاسم عبده قاسم ، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي - عصر سلاطين المماليك ، (طبعة دار الشروق ١٩٩٤) ، ص ١٣ - ص ١٤ .

٤٢ - ذكر المقريزي ، (السلوك ، جـ ١ ، ص ٥١٩) أن رسل الملك بركة خان شاهدوا عرض الجيش المصري سنة ٦٦٢ هجَرية . وهالتهم كثرة العساكر ، فسألوا هل هي عساكر مصر والشام ، فقيل لهم : " هذا عسكر مصر فقط ، غير من في الثغورمثل اسكندرية ودمياط ورشيد وقوص ، والمجرَّدين والذين سافروا في إقطاعاتهم فكثر تعجبهم من ذلك " .

٤٣ - ابن الصيرفي ، إنباء الهصر بأنباء العصر ، صفحات ٢٣ - ٢٤ ، ٣٣ - ٣٤ ، ٤٣ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، جـ ٣ (طبعة محمد مصطفى) صفحات ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٣٧ .

٤٤ - المقريزي ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٨٣ .

٤٥ - أحمد مختار العبادي ، قيام دولة المماليك الأولى ، ص ٢٢٢ .

٤٦ - ابن أيبك الدواداري ، الدرة الزكية ، ص ١٠٧ ؛ العيني ، عقد الجمان ، جـ ١ ،ص٣٩٦-ص ٣٩٨

٤٧ - ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٥٤ - ص ٢٦٣ .

٤٨ – يقول ابن عبد الظاهر ، كاتب سيرة الظاهر بيبرس : " ... وأحضرت خيالة الديوية والاسبتار ، وجميع من أخرج من صفد من الفرنج ، فضربت رقابهم على تل قريب صفد ، فى مكان كانوا يضربون فيه رقاب المسلمين ، ولم يسلم منهم غير نفرين : أحدهما الرسول بحكم أن السلطان كان شرب قمزا فى النقب وخرج إليه هذا الرسول فسقاه منه فعفى السلطان عنه ، وأسلم على يده ... " .

أنظر : الروض الزاهر ، ص ٢٦٠ – ص ٢٦٥ .

٤٩ – المصدر نفسه ، ص ٢٨١ – ص ٢٨٢ .

٥٠ – العينى ، عقد الجمان ، جـ ٢ ، ص ١٩ – ص ٢١ ؛ ابن أيبك الدوادارى ، الدرة المزكية ، ص ١٢٤ – ص ١٢٦ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٥٦٤ – ص ٥٦٦ .

٥١ – المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٥٦٧ – ص ٥٦٨ .

٥٢ – المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٥٦٨ .

٥٣ – ذكر ابن عبد الظاهر (الروض الزاهر ، ص ٣٣١ – ص ٣٣) مانصه :

" ... وحصل الإتفاق بين السلطان وبين هذا الملك على شيء يسير ، وهو مدينة عكا وبلادها ، وهى إحدى وثلاثون ضيعة ، وتقرر أن تكون صيدا للفرنج ، ولها ثلاث ضياع ، وبقية بلادها مناصفة ، وبلاد الكرمل تكون مناصفة ، وعثليث يكون لها خمس قرى والباقى مناصفة ، والقرين عشر قرايا ، والباقى للسلطان ، وبلاد صيدا ، الوطاة للفرج والجبليات للسلطان ، واتفق الصلح على مملكة قبرص ... " .

٥٤ – Joseph R . Strayer , " The Crusades of Louis IX " , in Setton A History of the Crusades , Vol . II , pp . 509 - 518 .

٥٥ – كتبت الهدنة لمدة عشر سنين : انظر : ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٣٨٣ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٥٩٢ – ص ٥٩٣ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٣٠ ، ص ٣٣١ – ص ٣٣٢ .

٥٦ – S . Runciman , " The Crusader States 1243 - 1291 " , in : Setton , A Hist . of the Crusades , Vol . II . , pp . 580 - 582 .

٥٧ – المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٥٩٣ – ص ٥٩٤ .

٥٨ – S . Runciman , op . cit . , pp . 582 - 583 .

٥٩ – النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٣٠ ، ص ٣٤٣ – ٣٤٤ .

٦٠ – Elizabeth Chopin Furber , " The Kingdom of Cyprus 1191 - 1291 " , in : Setton (ed.) , A Hist . of the Crusades , Vol . II , pp . 613 - 616 .

٦١ – ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٣٨٧ – ص ٣٨٨ .

٦٢ – المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٥٩٤ . أنظر هامش ٣ فى نفس الصفحة حيث أورد الدكتور محمد مصطفى زياده نص رسالة بيبرس . أنظر أيضا : العينى ، عقد الجمان ، جـ ٢ ، ص ٧٤ – ص ٧٦ .

٦٣ – Clùde Cahen , " The Mongols and the Near East " , in : Setton : A Hist of the Crusades , Vol . II , pp . 722 - 723 .

٦٤ – ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ١٧٠ – ص ١٧١ .

٦٥ - العينى ، عقد الجمان ، جـ ١ (عصر سلاطين المماليك) ، ص ٣٦٠ - ص ٣٦٣ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٣٠ ، ص ١٠٥ - ص ١٠٦ ؛ ابن أيبك الدوادارى ، كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ٩٧ - ص ١٠١ .

٦٦ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٥٢٣ - ٥٢٥ .

٦٧ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٥٢٤ - ص ٥٢٥ .

٦٨ - نفسه ، جـ ١ ، ص ٥٤ .

٦٩ - ٦٩ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٥٨٤ - ص ٥٨٥ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٣ ، ص ١٨٧ - ص ١٨٩ .

٧٠ - ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٤٠٤ .

٧١ - نفسه ، ص ٤٠٥ - ص ٤١١ ؛ ابن أيبك الدوادارى ، كنز الدُرر ، جـ ٨ ، ص ١٦٩ - ص ١٧١ .

٧٢ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٦٢٧ - ص ٦٣٠ .

٧٣ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٦٤١ . وقد أورد بيتا قاله أحد الأدباء فى بيبرس :

يوما بمصر ويوما بالحجاز   وبالشام يوما ويوما فى قرى حلب

وقال شاعر آخر :

تدبر الملك من مصر إلى يمن   إلى العراق وأرض الروم والنوبى

٧٤ - العينى ، عقد الجمان ، جـ ٢ ، ص ١٨٤ .

٧٥ - أنظر : سيرة الظاهر بيبرس التى سبقت الإشارة إليها .

٧٦ - فى شوال سنة ٦٦٢ هـ وردت الأخبار بقدوم جماعة من التتار المستأمنين ، وجماعة من الأتراك وأهل بغداد ، قاصدين باب السلطان الظاهر بيبرس . وقد خاف السلطان من أن تكون فى الأمر مكيدة ، فخرج بفرسانه للقائهم . وأشار بعض الأمراء بسلطنة الملك السعيد ، ابن السلطان ، ليكون بالديار المصرية . أنظر :

ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص ٢٠٣ - ص ٢٠٩ .

٧٧ - العينى ، عقد الجمان ، جـ ٢ ، ص ١٨٥ .

٧٨ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٦٤٥ .

٧٩ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٦٥١ .

٨٠ - ابن أيبك الدوادارى ، كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ٢٢٨ - ص ٢٢٩ .

٨١ - العينى ، عقد الجمان ، جـ ٢ ، ص ٢٢٥ - ص ٢٢٦ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٣٠ ، ص ٤٠٠ .

الفصل الثالث

حكم أسرة قلاون ونهاية الوجود الصليبى

سيف الدين قلاون الألفى - متاعب البداية (ثورة سنقر الأشقر نائب الشام - القتال ضد المغول - العلاقات مع بقايا الفرنج - استرداد طرابلس - الأشرف خليل والقضاء النهائى على الصليبيين فى عكا - العلاقات مع النوبة - الناصر محمد بن قلاون - أبناء قلاون وأحفاده - بيت قلاون : هل كان حكما وراثيا ؟

تولى السلطان سيف الدين قلاون عرش سلطنة المماليك فى سنة ٦٧٨ هـ ١٢٧٩م . وهو السابع من سلاطين المماليك بالديار المصرية حسبما يذكر النويرى [١] . وهو من القفجاق من قبيلة أوغلى ، وتلقب بالملك المنصور . وكان مملوك الأمير علاء الدين آقستفر الساقى العادلى اشتراه بألف دينار فعُرف بالألفى . وكان واحداً من كبار المماليك البحرية زامل بيبرس فى القتال ضد قوات الحملة الصليبية السابعة فى المنصورة وفارسكور كما رافقه أثناء الهرب إلى بلاد الشام بعد مصرع الأمير فارس الدين أقطاى [٢]. ثم عاد ليقاتل المغول معه فى عين جالوت ، ثم تولى بيبرس عرش السلطنة وعمل قلاون فى خدمته ، ثم زوج ابنته لابنه الأكبر الملك السعيد بركة خان ، وتولى الوصاية على ابنه الأصغر بدر الدين سُلامش ، حتى إذا ما أيقن أن الأمور تجرى على هواه انفرد بالسلطة .

وما إن تولى عرش السلطنة حتى عاد مبدأ " الحكم لمن غلب " يطل بوجهه البغيض على الساحة السياسية ، ويفرض نفسه على الأحداث . إذ كان كبار الأمراء من المماليك البحرية يرون أنهم أحق بعرش سلطنة المماليك من سيف الدين قلاون لأن تاريخهم العسكرى لم يكن أقل تألقا من تاريخ قلاون نفسه . ومن ناحية أخرى ، غضب المماليك الظاهرية لأنه خلع بدر الدين سلامش - ابن أستاذهم الظاهر بيبرس - كما قبض على عدد منهم وأبعد البعض الآخر عن مناصبهم .

على أن أخطر عدو واجه قلاون فى تلك المرحلة كان هو سنقر الأشقر ، نائب دمشق ، الذى رفض أن يعترف بسلطنة قلاون ، ورفض أن يحلف له ، ثم جمع الأمراء وأوهمهم أن السلطان

قد قتل ، ودعاهم إلى طاعته ، وتلقب بالملك الكامل [٣] وانضم إليه ولدان من أبناء السلطان بيبرس ؛ هما خضر وسلامش . وحاول قلاون أن يستميله بالملاطفة واللين ، ولكن سنقر تمادى فى عصيانه وحاول التحالف مع مغول فارس والعراق [٤] بعد أن هجره جنوده فى أول معركة ضد الجيش المصرى ونجا هو بأعجوبة ، على حين انضم عسكر الشام إلى عسكر مصر الذين حاصروا دمشق ثم فتحت بالأمان ولم يكن ضحايا هذا التمرد أكثر من إثنى عشر فارساً من الجانبين [٥]. وعاد سنقر إلى القاهرة فى وقت لاحق ، وبذلك خضعت بلاد الشام لحكم المنصور سيف الدين قلاون بشكل نهائى .

بعد القضاء على الفتنة التى أثارها سنقر الأشقر ببلاد الشام ، تفرغ قلاون لمواجهة خطر المغول والصليبيين ، واستكمال المهمة التى كان بيبرس قد اضطلع بها من قبل . وكان قلاون قد عقد هدنة مع الصليبيين تبدأ سنة ١٢٨١م مدتها عشر سنوات لكى يتفرغ لترتيب أوضاع البلاد الداخلية من جهة ، وإخماد حركة العصيان التى أشعلها سنقر الأشقر من جهة أخرى [٦].

أما بالنسبة للمغول فى فارس والعراق ، فقد انتهزوا فرصة الاضطراب الداخلى التى أعقبت وفاة السلطان الظاهر بيبرس وبدأوا يشنون هجماتهم ضد الأراضى الخاضعة لحكم سلاطين المماليك فى بلاد الشام . ولم يكن السلطان المنصور قلاون أقل إدراكا لحقائق الموقف السياسى فى المنطقة العربية من سلفه الكبير ؛ ولذلك سار على منهجه فى عقد المعاهدات مع مغول القفجاق المسلمين ، والإمبراطورية البيزنطية ، وصقلية وجنوة وقشتالة .

وعندما هدأت الأحوال فى الداخل ، استغل المنصور قلاون فرصة الهدنة التى عقدها مع الصليبيين ، وبدأ يخرج إلى بلاد الشام لقتال المغول الذين أغاروا على بلاد الشام بنفس الوحشية التى تميزت بها هجماتهم زمن هولاكو . وفى سنة ١٢٨٠م خرج المنصور قلاون للقاء المغول ولكنهم فروا بغنائمهم . وفى العام التالى اصطدم الجيش المملوكى بالمغول فى مرج حمص ودارت معركة رهيبة سنة ٦٨٠ هـ [٧]. ولقى المغول هزيمة منكرة ، وفر منكوتمر قائد الجيش المغولى إلى بغداد . وبعد ذلك بقليل تولى حكم مغول فارسى تكودار شقيق آبغا بن هولاكو الذى مات سنة ٦٨١ هـ . وقد اعتنق تكودار بن هولاكو الإسلام وأظهر شعائره ببلاد التتار وتسمى أحمد سلطان تكودار .

في عهد أحمد تكودار بدأت العلاقات تتحسن بين دولة سلاطين المماليك ودولة مغول فارس ؛ إذ أن الدين الإسلامي جمع بين الدولتين . ولعل هذا يؤكد ما سبق أن ذهبنا إليه من أن المغول لم يكونوا خطراً حقيقياً على العالم الإسلامي في المدى البعيد ؛ لأنهم لم يلبثوا أن ذابوا في هذا العالم وصاروا جزءاً عضويا منه بعد أقل من جيل واحد . فمنذ معركة عين جالوت سنة ١٢٦٠م ، وحتى وفاة أبغا بن هولاكو سنة ١٢٨٢م ، مرت إثنتان وعشرون سنة فقط ما أهونها في حياة الشعوب والأمم . في هذه الفترة تبدل الحال غير الحال ، وصار التتر الوثنيون المدمرون مسلمين متحمسين يدافعون عن دار الإسلام ويساهمون في بناء حضارته . وقد بدأ أحمد تكودار يعلن عن رغبته في علاقات المودة والصداقة مع المنصور سيف الدين قلاون ، سلطان مصر الشام والحجاز ، وأرسل إليه رسالة جاء في كلماتها " ... فقد ظهر بفضل الله تعالى في دولتنا النور المبين ، وإن كان لما سبق من الأسباب ، فمن يتحرى الآن طريق الصواب ، فان له عندنا لزلفى وحُسْن مآب . وقد رفعنا الحجاب ... لترضى الله والرسول ... وتستريح من اختلاف الكلمة هذه الأمة ... " (٩) وقد ردَّ المنصور قلاون برسالة تفيض وداً ورقة ، وأعلن استعداده للتعاون مع مغول فارس لما فيه خير الإسلام والمسلمين (١٠).

إلا أن أرغون بن آبغا خرج على عمه تكودار المسمى أحمد سلطان ، ويقول المؤرخ تقى الدين المقريزى " ... وكانت المُغل قد تغيرت على تكودار ، لكونه دخل في الإسلام وإلزامه لهم بالإسلام ... " وانتهى الأمر بقتل أحمد سلطان تكودار سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٤م وولى مكانه ابن أخيه أرغون بن آبغا (١١). بيد أن غازان (١٢٩٥ - ١٣٠٤م) ، صار حاكما مسلماً وتبعه كل خلفائه من بعده .

فقد انتهى حكم أرغون سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩٢م ، وملك بعده أخوه كيختوبن أبغا بن هولاكو ، ثم قتل سنة ٦٩٣هـ / ١٢٩٥م ، وتولى الحكم من بعده ابن أخيه بيدوين رغاى بن هولاكو . ولكن غازان بن أرغون بن آبغا بن هولاكو ، الذى كان والياً على خراسان تمرد عليه وهزمه واستولى على العرش في سنة ٦٩٣هـ ، ثم أسلم على يد الشيخ صدر الدين بن حمويه الجوينى (١٢) ، وبعدها ظل التتار على الإسلام ، وإن كانت علاقتهم بسلاطين المماليك قد تراوحت بين العداوة والصداقة ...

على الجبهة الصليبية ، ذكرنا أن السلطان المنصور سيف الدين قلاون كان قد عقد هدنة

مدتها عشر سنوات مع الصليبيين فى عكا ، وهدنة أخرى مماثلة مع بوهيموند السابع أمير طرابلس ؛ بيد أن هذا السلطان لم يلبث أن نقض المعاهدة التى سعى بنفسه لعقدها عندما واتته الفرصة . فقد كان يرى فى الفرنج عدواً احتل أرض الإسلام ، كما كان يرى فى بقائهم على هذه الأرض نوعاً من الإغتصاب والعدوان المستمر الذى لا ينبغى السكوت عنه سواء كانت هناك قيود معاهدة ، أو هدنة ، أو لم تكن . وكانت بقايا الوجود الصليبى تتركز فى إمارة طرابلس التى يحكمها أمراء النورمان ، وبقايا ملكة بيت المقدس اللاتينية التى اتخذت من عكا عاصمة لها كما كان هناك حصن المرقب بأيدى فرسان الإسبتارية ، وطرسوس بأيدى فرسان الداوية .

هكذا ، كان اللون الصليبى على الخريطة العربية الإسلامية قد تقلص إلى حد بعيد ، وكان التاريخ يدخر لأسرة قلاون شرف القضاء النهائى على الوجود الصليبى فوق الأرض العربية . ولم يكد السلطان المنصور قلاون ينتهى من متاعبه مع المغول بوفاة أبغا حتى بادر بالعمل ضد الصليبيين . كان هدفه الأول هو حصن المرقب الذى كان بأيدى الإسبتارية ، والذى كان يحمى الحدود الشمالية لكونتية طرابلس الصليبية . وكان هجوم الجيش المملوكى على هذا الحصن مباغتاً وسريعاً بحيث أن الحامية استسلمت ورحلت عن الحصن (مايو ١٢٨٥م / ربيع الأول ٦٨٤ هـ) (١٣) بعد حصار دام ثمانية وثمانين يوما .

بعد سقوط هذا الحصن وتوابعه سارع أمراء الصليبيين إلى طلب السلام من سلطنة المماليك فى مصر والشام ؛ إذ طلب بوهيموند السابع ، أمير طرابلس الذى باتت حدوده الشمالية تحت تهديد الجيش المملوكى ، مسالمة المنصور قلاون ، وكذلك فعلت مرجريت أميرة صور التى نالت الصلح بشروط مهينة . وكذلك فعل بقية الصليبيين (١٤).

كانت الشواهد تدل على أن الكيان الصليبى فى الشام قد دخل مرحلة الاحتضار ، ولم يكن ممكناً أن تأتى النجدة من أوربا لمساندة الفرنج فى المنطقة العربية نظراً لإنشغال ملوك أوربا وأمرائها بمنازعاتهم ومشكلاتهم الداخلية . وفى سنة ٦٨٦هـ / ١٢٨٧م أرسل السلطان المنصور قلاون جيشا استولى على ميناء اللاذقية الذى كان آخر ما تبقى من إمارة أنطاكية الصليبية التى حررها الظاهر بيبرس من قبل .

بعد ذلك بسنتين خرج السلطان بنفسه على رأس جيش ضخم فرض حصاراً على طرابلس ، ثم استولى عليها [١٥] . بعد أربعة وثلاثين يوماً ، وقُتل من الفرنج فى هذه المعركة التى انتهت بتدمير تحصينات المدينة التى كان سورها عريضا بحيث يسير عليه ثلاثة فرسان بالخيل[١٦] . وكانت سقوط هذه المدينة فى شهر ربيع الآخر سنة ٦٨٨ هـ / إبريل ١٢٨٩ م . وبسقوط طرابلس سقطت المدن الأخرى المجاورة ؛ مثل بيروت وجبلة ، على حين أعلنت جبيل خضوعها للسلطان المنصور قلاون . وانحصر الصليبيون فى عكا وصيدا وعثليث وصور ، بعد أن كانت مستوطناتهم قد امتدت لتشمل كل فلسطين والساحل اللبنانى ووصلت إلى الحدود المصرية كما امتدت إلى خليج العقبة .

فى السنة التالية ؛ أى سنة ٦٨٩ هـ / ١٢٩٠م جاء بعض الصليبيين الإيطاليين إلى ميناء عكا ، وعبروا عن حماستهم الصليبية بطريقتهم الهمجية المعتادة ؛ فهاجموا المسلمين وقتلوا عددا من التجار المسلمين الذين كانوا قد اعتادوا دخول هذه المنطقة الخاضعة للصليبيين لأغراض تجارية منذ زمن بعيد . وهكذا كانت حماقة الصليبيين الجدد الوافدين من إيطاليا سببا فى انهيار فترة السلام القلق بين بقايا الكيان الصليبى وسلطنة المماليك القوية . وكان على الصليبيين أن يسددوا كافة ديونهم وان يدفعوا الثمن فادحا هذه المرة . وقد رفض المنصور قلاون الأعذار التى ساقها الفرنج حول هذه الاعتداءات ، وقرر القضاء على عكا ومن فيها ، وكتب إلى البلاد الشامية باعداد التجهيزات لحصار عكا [١٧] . وخرج المنصور بنفسه على رأس جيشه لقتال عكا ، ولكنه توفى فى ذى القعدة من سنة ٦٨٩ هـ / نوفمبر ١٢٩٠م[١٨]. وكان على الحملة أن تتوقف إلى حين ؛ وهكذا تأجل الفصل النهائى فى قصة العدوان الصليبى قليلاً .

تولى الحكم السلطان الأشرف خليل بن قلاون فى ٧ ذى الحجة سنة ٦٨٩ هـ [١٩]. وقد جلس على عرش السلطنة دون أن تمر البلاد بالاضطرابات المعتادة التى كانت تحدث بين ولاية سلطان راحل وولاية سلطان جديد . ومن ثم تفرغ السلطان الجديد لاستكمال المهمة التى كان أبوه قد عزم على تنفيذها ... أى القضاء على فلول الفرنج فى عكا [٢٠] . وبعد تجهيزات دقيقة تحرك الجيش الإسلامى من مصر فى ربيع الأول سنة ٦٩٠ هـ / مارس ١٢٩١م ووصل عند أسوارها بعد مسيرة شهر تقريبا ، وهناك وصلت معدات الحصار من دمشق ، وكان عددها

إثنين وتسعين منجنيقاً استغرق نصبها أربعة أيام . وفى الوقت نفسه جاءت جموع الفرنج إلى عكا عن طريق البحر للمساعدة فى مقاومة الحصار . وفى داخل المدينة المحاصرة أيقن الفرنج أن نهايتهم قد حانت ، وأخذت المنظمات العسكرية الرهبانية تستدعى كل ما يمكن من فرسانها فى أوربا . كما أرسل إدوارد الأول مجموعة من الفرسان الإنجليز ، وجاءت قوات من قبرص ... بيد أن هذا كله لم يجد نفعاً أمام قوة جيش الأشرف خليل بن قلاون الذى اقتحم المدينة فى يوم الجمعة ١٧ جمادى الأولى سنة ٦٩٠ هـ ، وقبل أن ينتصف نهار ذلك اليوم كانت الأعلام الإسلامية تخفق فوق أسوار عكا . " ... وهرب الفرنج فى البحر ، وهلك منهم خلق كثير فى الازدحام ... " (٢١). كانت مدة حصار عكا أربعة وأربعين يوما ، ثم سقطت بعد أن ظلت فى أسر الفرنج الصليبيين على مدى تاريخ الوجود الصليبى تقريبا ، باستثناء سنوات قليلة أثناء الحملة الثالثة .

بعد عكا ، سقطت بقية المعاقل والمدن الصليبية ببلاد الشام تباعاً . وبذلك خلصت بلاد الشام للسيادة العربية الإسلامية مرة أخرى . ودالت دولت الفرنج بعد أن استمرت فى الوجود مائتى سنة تقريباً . بيد أن القضاء على بقايا المستوطنات الغربية الفرنجية فى المنطقة العربية سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م ، لم يكن يمثل النهاية الحقيقية لقصة " الحركة الصليبية " . فقد لجأت فلول الهاربين إلى قبرص ورودس ليحاولوا بعث الحياة فى جسد الحركة الصليبية الميت طوال القرنين التاليين ، كما أن البابوية وأنصارها لم يكفوا عن صياغة مشروعات " صليبية " جديدة بهدف السيطرة على المنطقة العربية ، والتحكم فى طرق التجارة العالمية ومحطاتها . ومن ناحية أخرى ، استمرت دولة سلاطين المماليك تؤدى دورها التاريخى فى هذه المواجهة الطويلة المضية على الرغم من أن المواجهة لم تعد تتطلب حشد الموارد كلها فى صالح الجهد الحربى كما كان طوال فترة الوجود الصليبى بالمنطقة العربية .

وإذا كانت دولة سلاطين المماليك قد تصدت للخطر المغولى حتى ذاب فى العالم الإسلامى وبات المغول جزءاً عضوياً من الكيان الإسلامى الكبير ، وإذا كان التاريخ قد جعل لهذه الدولة، أيضا ، شرف القضاء على الخطر الصليبى فى أواخر القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ؛ فقد كان نشاط سلاطين المماليك على حدود مصر الجنوبية ، أى مع مملكة النوبة ، تأكيداً للدور التاريخى لهذه الدولة التى تحملت عبء الدفاع عن العالم الإسلامى فى هذه الفترة من تاريخه .

والمعروف أن الفتح الإسلامي لمصر ، على يد عمرو بن العاص ، قد امتد إلى الجنوب فى محاولة لفتح مملكة دنقلة المسيحية التي كانت تمتد إلى الجنوب من أسوان . ولكن محاولة عقبة بن نافع الفهرى ، ثم محاولة عبد الله بن سعد بن أبى السرح لغزو النوبة لم تسفر سوى عن عقد معاهدة عرفت باسم " معاهدة البقط " وهى اتفاقية للتبادل الإقتصادى ؛ بيد أنها لم تحقق أية سيطرة سياسية أو عسكرية حقيقية لمصر على بلاد النوبة . ثم جرت محاولة لغزوها فى زمن هشام بن عبد الملك بن مروان ، ثم غزاها يزيد بن أبى صفره ، ثم غزاها أبو منصور تكين التركين ، ثم غزاها كافور الإخشيدى ، وكان آخر من غزاها شاهان شاه بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٦ هـ .

ومنذ ذلك التاريخ ، وحتى عصر سلاطين المماليك ، ظلت العلاقات بين مصر والنوبة قائمة على أساس تلك المعاهدة ، وظلت تتراوح بين الشد والجذب أحياناً . ولم تخرج عن هذا الإطار حتى قيام دولة سلاطين المماليك بطابعها العسكرى وحماستها الدينية ، التى كانت مبرر وجودها التاريخى فى حقيقة الأمر . ومنذ ذلك الحين بدأت العلاقات مع النوبة تأخذ اتجاها جديداً ؛ إذ كان من المنطقى أن تمتد الحماسة الدينية التى صاحبت الإنتصارات التى حققتها جيوش مصر والشام ضد المغول والفرنج الصليبيين لتصيب كافة القوى غير الإسلامية على حدود دولة سلاطين المماليك . وكانت مملكة النوبة المسيحية على حدود مصر الجنوبية ، آنذاك، واحدة من تلك القوى التى طالتها الحماسة الدينية فى عصر سلاطين المماليك .

وقد تطوع النوبيون بتقديم المبرر للسلطان الظاهر بيبرس لمهاجمتهم . فقد انتهز داود ملك النوبة فرصة إنشغال الجيش ضد المغول والفرنج والأرمن فشن هجوماً عيفاً ضد المناطق الجنوبية فى مصر . وفى سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٢م حضر إلى القاهرة ابن أخت ملك النوبة ، واسمه "مشكد " ، أو " شكنده " (٢٢) طلباً لمساعدة السلطان الظاهر بيبرس ضد الملك الذى اغتصب حقه فى العرش ، وأرسل بيبرس حملة ضخمة بقيادة الأمير آقسنقر الفارقانى والأمير عز الدين الأفرم إلى النوبة ومعهم الأمير النوبى المطالب بعرش النوبة "... وأمرهم إن فتحوا البلاد يسلموها له على أن يكون لشكنده النصف والربع من البلاد ، والربع يكون خالصاً للسلطان ... " ووصل الجيش إلى دنقلة فى شوال من تلك السنة . وانتهت المعركة بسرعة بهزيمة ملك النوبة بعد قتل الكثيرين من جنوده ، وأسر عدد كبير من النوبيين وأضطر داود إلى الهرب .

وكانت أهم نتائج هذه الحملة أن صارت النوبة خاضعة لدولة سلاطين المماليك بحيث تعين على ملكها أن يرسل جزية سنوية إلى القاهرة . وهكذا ، حققت حملة السلطان الظاهر بيبرس مالم تستطع أية حملة مصرية أن تحقق منذ أيام عمرو بن العاص (٢٣). وقد لقى شكنده مصرعه على يد واحد من الفداوية الباطنية .

وبعد بيبرس سارت العلاقات المصرية النوبية شوطا أبعد نحو السيطرة المصرية الكاملة . فقد اهتم المنصور قلاون بتأمين حدود مصر الجنوبية ضد غارات النوبيين ، كما أن علاقته بالنوبة كانت متواءمة مع سياسة دول سلاطين المماليك بشكل عام تجاه القوى السياسية فى البحر الأحمر الذى كان شرياناً حيويا للتجارة المصرية ، كما كان طريقاً هاماً لتجارة العبور التى كانت من موارد الدخل الهامة لدولة سلاطين المماليك .

فى سنة ٦٨٦ هـ / ١٢٨٧م ، أرسل السلطان المنصور قلاون حملة لغزو النوبة تحت قيادة الأمير علم الدين سنجر المسرورى المعروف بالخياط والأمير عز الدين الكورانى . وكانت حملة كبيرة انضمت إليها قوات والى قوص وعربان الصعيد . وعندما وصلت القوات إلى بلاد النوبة تقهقرت قوات ملكها " سمامون " وهى تخلى البلاد أمام الجيش المملوكى حتى وصل إلى دنقلة وهناك دارت معركة أسفرت عن هزيمة الملك وتولى مكانه ابن أخته وعادت الحملة بعد أن قررت جزية سنوية على ملك النوبة الجديد ومعها الكثير من الغنائم والأسلاب (٢٤). وعاد سمامون إلى الظهور من مخبئه مرة أخرى بعد عودة القوات إلى القاهرة ، وطرد قائد الحامية المملوكية .

وفى سنة ٦٨٨ هـ سارت حملة جديدة ضد النوبة بقيادة الأمير عز الدين الأفرم ومع الجيش سار على صفحة نهر النيل حوالى خمسمائة مركب تحمل السلاح والزاد . ولما وصل الجيش إلى أسوان مات ملك النوبة الجديد وتم تجهيز أحد أقاربه من القاهرة ليتولى عرش النوبة . ولقى الجيش المملوكى مودة وترحيباً من النوبيين حتى جزر ميكائيل وأما جنوب النوبة حتى دنقلة (دمقلة) فقد أخلاها سكانها لدرجة أنهم لم يجدوا بالمدينة نفسها سوى شيخ واحد عجوز . وظلت الحملة تطارد سمامون حتى منطقة الجنادل ؛ وهناك فارقه الأمراء والأساقفة والقساوسة. وطلبوا الأمان من قائد الجيش المملوكى ليعودوا إلى دنقلة . ثم عادت القوات إلى القاهرة بعدما تركوا حامية صغيرة بقيادة بيبرس العزى .

بيد أن سمامون عاود الظهور واستعاد سيطرته على مملكته وأمرائه ورجال الكنيسة ، وزحف على دار الملك وأخرج بيبرس العزى والحامية إلى قوص . وقبض على الملك الذى جلس على العرش بدلاً منه وقتله شر قتلة ، ثم بعث إلى السلطان المنصور قلاون يسأله العفو ، وأرسل إليه هدية وتعهد بأن يدفع ما كان ملوك النوبة قبله يؤدونه إلى حكام مصر(٢٦) . وقبل السلطان عرض الملك النوبى ؛ إذ كان يستعد لقتال الصليبيين فى عكا ولم يكن لديه الوقت أو الجيش الذى يمكن أن يخصصه لقتال الملك النوبى المراوغ ...

وبعد ذلك ، استمر ملوك النوبة بصفة عامة على ولائهم لمصر طوال عصر السلطان الناصر محمد بن قلاون ، الذى تولى عرش السلطنة ثلاث مرات . ولم تحدث أحداث تعكر صفو هذه العلاقة . بيد أن سلاطين المماليك بدأوا يفكرون فى أن يكون ملوك النوبة من النوبيين الذين تربوا فى مصر واعتنقوا الإسلام ونشأوا نشأة عربية إسلامية خالصة . وقد أدى هذا الاتجاه إلى تغير هام وجذرى فى العلاقات المصرية النوبية .

وبتولى كنز الدولة حكم بلاد النوبة أخذت البلاد تصطبغ منذ القرن الرابع عشر الميلادى بالصبغة العربية الإسلامية . وقد هاجرت بعض القبائل العربية إلى بلاد النوبة واستقرت بها مما سارع بعملية التحول العربى الإسلامى فى النوبة . وإذ صارت هذه المنطقة منذ ذلك الحين ، فصاعداً ، منطقة عربية إسلامية وتخلت عن الديانة المسيحية صارت جزءا عضويا يرتبط بالكل المصرى تجرى عليه كافة التطورات التاريخية التى شكلت تاريخ مصر كلها منذ تلك الفترة حتى أيامنا الحالية .

ولنعد الآن لمتابعة تاريخ أسرة قلاون فى حكم سلطنة المماليك ..

فقد سبق أن أوضحنا أن المماليك لم يؤمنوا بمبدأ وراثة العرش نظرا للطبيعة العسكرية التى ميزت تلك الدولة منذ نشأتها حتى نهاية وجودها بعد حوالى مائتين وسبعين سنة . وأوردنا عدة أمثلة توضيح إيمان الفرسان المماليك وأمرائهم بمبدأ " الحكم لمن غلب " ؛ إذ كانوا يؤمنون جميعاً بالمساواة فى الجدارة بعرش البلاد لأنهم جميعا نشأوا سوياً فى ظل ظروف واحدة جعلتهم يرون أنهم متساوون فى الأحقية بعرش البلاد الذى يفوز به أقواهم وأقدرهم على الإيقاع بالآخرين . لقد كانت المفاهيم السياسية لدولة سلاطين المماليك نتاجاً لظروف قيام

تلك الدولة من ناحية ، وحقيقة أنهم لم يكونوا أحراراً فى الأصل ، وإنما " مسَّهم الرق " من ناحية أخرى . ويمكن بلورة هذه المفاهيم التى كانت الأساس الذى قامت عليه النظرية السياسية والشرعية السياسية لتلك الدولة فى الحقيقة القائلة بأن أمراء المماليك اعتقدوا أن عرش البلاد حق لكل منهم ؛ بشرط أن يمتلك القوة والقدرة على انتزاعه من الآخرين . وقد تأكدت هذه الحقيقة منذ البداية ؛ سواء فى مصرع عز الدين أيبك وشجر الدر ، أو فى اغتيال بيبرس لقطز وهو عائد بنصره الكبير على المغول فى " عين جالوت " ثم جلوسه على العرش بدلاً منه . كما تأكدت مرة أخرى عندما انتزع المنصور قلاون عرش السلطنة من أبناء الظاهر بيبرس ، وإن كان ذلك قد تم بصورة أقل دموية مما سبق .

وعلى الرغم من ذلك فقد شهدت دولة سلاطين المماليك قيام أسرة حاكمة على مدى أجيال ثلاثة ؛ وهى أسرة قلاون الذى حكم هو وأولاده وأحفاده مدة تزيد على قرن من الزمان . فهل كانت أسرة قلاون أسرة وراثية بالفعل ؟ وهل يعنى هذا أن المماليك قد غيروا مفاهيمهم السياسية وآمنوا بمبدأ وراثة الحكم ؟ ! .

يرى بعض الباحثين أنه لايمكن تفسير هذه الظاهرة السياسية فى تاريخ دولة سلاطين المماليك فى ضوء إيمان المليك بمبدأ وراثة العرش ، وإنما هى مجرد ظروف وملابسات أحاطت بسلاطين تلك الأسرة التى حكمت مصر والشام والحجاز بصورة متقطعة منذ سنة ٦٧٨ هـ / ١٢٧٩م حتى سنة ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م .

وفى رأينا أن حكم أسرة قلاون ، بالذات ، يمكن أن يكون دليلا على عدم إيمان المماليك بمبدأ وراثة الحكم . إذ أن استمرار هذه الأسرة ، التى لم يبرز منها سلاطين أقوياء ، باستثناء مؤسسها السلطان المنصور قلاون وابنه الأشرف خليل ، الذى اغتاله كبار الأمراء ، ثم ابنه الناصر محمد الذى تولى السلطة ثلاث مرات خلع فى إثنتين منها بسبب تعاظم نفوذ كبار الأمراء - نقول إن استمرار هذه الأسرة فى الحكم كان فى أحيان كثيرة نتيجة لأن الصراع بين الأمراء الكبار لم يجد شخصية قوية تحسمه لصالحها . وفى بعض الأحيان كانت التوازنات السياسية بين الأمراء المتنافسين تفرض بقاء السلطان - من أبناء قلاون أو أحفاده - على الرغم من ضعفه وعدم أهليته ، وعلى الرغم من وقوعه تحت السيطرة المطلقة للأمراء . لقد تولى المنصور قلاون نفسه العرش بعد عزل ابن السلطان الظاهر بيبرس ، وخلفه ابنه الأشرف

خليل على الرغم من أن أبيه امتنع عن توقيع ولاية العهد له ، ثم مات خليل نفسه صريع مؤامرة دبرها ضده كبار الأمراء (٢٧).

كذلك فان أخاه وخليفته الناصر محمد بن قلاون تولى حكم السلطنة ثلاث مرات وعُزل مرتين لكي يجلس على العرش في كل مرة منها أحد الأمراء المتآمرين ضده . فقد استمرت سلطنته الأولى سنة واحدة ، فقد جلس على عرش السلطنة في شهر المحرم سنة ٦٩٣ هـ ، وكان عمره آنذاك تسع سنوات فقط (٢٨) . واتفق الأمراء الكبار على أن يكون الأمير زين الدين كتبغا المنصوري نائب السلطنة ، والأمير علم الدين سنجر الشجاعي وزير الدولة ومدبِّرها والأمير ركن الدين بيبرس المنصوري الدوادار . وهكذا تم توزيع المناصب على كبار الأمراء ، على حين قنع السلطان الطفل - أو أقنع - بمجرد اللقب السلطاني المجرد من كل مظاهر السلطة والنفوذ. ولم يلبث الصراع أن اندلع بين كبار الأمراء مرة أخرى للفوز بعرش السلطنة .

فقد زادت سطوة الشجاعي " ... فاشتدت مهابة الناس له وقويت نفسه ... " وسولت له نفسه أن يستبد بالسلطنة وبدأ يعد العدة للتخلص من كتبغا . وبدأت الاضطرابات والمؤامرات والفتن حتى انتهى الأمر بحصار القلعة تربصا بالشجاعي الذى قتله المماليك في القلعة وأرسلوا برأسه إلى المماليك السلطانية الذين يحاصرون القلعة (٢٩).

وبعد قتل الشجاعي استبد كتبغا بالسلطة وقال للأمراء " قد انحرف ناموس المملكة ، والحرمة لا تتم بسلطنة الناصر لصغر سنه " (٣٠) وخلع الناصر محمد من السلطنة بعد أن استمر في السلطنة سنة واحدة تنقص ثلاثة أيام ، لم يكن له أثناءها أمر ولا نهى .

تولى كتبغا تحت إسم السلطان العادل زين الدين كتبغا في المحرم سنة ٦٩٤ هـ ، وحجب السلطان الطفل وأمه في بعض القاعات ، " وعامله بما لايليق " . ولم يحدث في مدى السنتين اللتين حكم فيهما أمر هام سوى قصور النيل عن حد الوفاء ونقص مياه الفيضان مما أدى إلى اشتداد الغلاء وانتشار الوباء في أنحاء مصر ، ومات عدد كبير ضحايا لتلك الشدة . كما جاءت إلى مصر هجرة مغولية كبيرة نتيجة للظروف السياسية المعاكسة في بلادهم . وقد كانوا مايزالون على وثنيتهم مما جعل الناس تنفر منهمْ ، وكانوا من ضمن أسباب خلع هذا السلطان الذى لم يجلس على العرش سوى عامين (٣٢).

فى أثناء عودة العادل كتبغا من بلاد الشام إلى مصر اتفق الأمراء على خلعه ، وهرب كتبغا حتى وصل دمشق ؛ وبذلك اعتلى العرش طامع آخر هو حسام الدين لاجين الذى اتخذ لنفسه اسم السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصورى ، وكان أصله من مماليك الملك المنصور على بن المعز أيبك ، ثم اشتراه المنصور قلاون (٣٣). على أية حال انتهت سلطنة لاجين بقتله ليعود السلطان الناصر محمد بن قلاون إلى عرش دولة سلاطين المماليك مرة ثانية، وظل فى الحكم على مدى أكثر من عشر سنوات (٦٩٨ هـ / ٧٠٨ هـ) . وكان اختياره هذه المرة أيضا يرجع لسبب واضح هو أن أحداً من كبار الأمراء المتنازعين حول العرش لم يستطع أن يحسم النزاع والتنافس لصالحه . وقد انتهت سلطنة الناصر محمد الثانية بهروبه إلى الكرك ، فى الأردن الحالية ، بعد أن أعلن أنه يريد الذهاب إلى الحجاز فى رحلة حج ، لأنه كان قد ضاق ذرعاً بتحكم بيبرس وسلار فى أمور الحكم فخرج سنة ٧٠٨ هـ " ... وخرج العامة وتباكوا حوله ..." . وعندما استقر فى حصن الكرك أبلغ الأمراء أنه لاينوى الحج وأنه اختار الإقامة فى الكرك وترك السلطنة " ... ليستريح خاطره ... "(٣٤) وفى شهر شوال من تلك السنة جلس بيبرس على العرش واتخذ لنفسه لقب المظفر ، وتمت ولايته للعرش فى جو من القلق الذى نجم عن تأهب فرق المماليك المتنافسة للقتال ضد بعضهم البعض .

وقد تشاءم الناس بسلطنة بيبرس الجاشنكير بسبب قصور مياه النيل . ومن ناحية أخرى لم يطمئن السلطان المغتصب إلى قوة عرشه واعتراه القلق والخوف من السلطان الناصر محمد الذى لم يهدأ فى منفاه الإختيارى بالكرك ، كما بدأ المماليك يعيدون حساباتهم عندما بلغتهم أنباء حركة السلطان من الكرك وأخذت الفتنة تطل بوجهها البغيض وبدأت دلائل الحرب تفرض نفسها علىَ الحياة فى مصر وبلاد الشام ، وضعف موقف بيبرس الجاشنكير إلى أدنى درجة بعد أن بدأت جموع الجنود يتسللون للانضمام إلى الملك الناصر . وعندما حاول الهرب تجمهر الناس حوله ، " ... وهم يصيحون عليه ، ورماه بعضهم بالحجارة ... " وأقيمت الخطبة فى القاهرة يوم الجمعة ١٩ رمضان سنة ٧٠٩ هـ باسم السلطان الناصر محمد بن قلاون ، فكانت سلطنة المظفر بيبرس الجاشنكير عشرة أشهر وأربعة وعشرين يوما (٣٥).

وهرب بيبرس الجاشنكير وعاد الناصر محمد بن قلاون لكى يجلس على عرش سلطنة المماليك للمرة الثالثة . وفى هذه المرة طالت سلطنة الناصر محمد على مدى إحدى

وثلاثين سنة (١٣٠٩ - ١٣٣٠ م) ، ولم يحدث طوال ذلك العصر أن جلس على العرش سلطان على مدى هذه السنوات الطوال . وهو الأمر الذى أضفى على عصر السلطان محمد بن قلاون طابعاً فريداً فى ذلك العصر الزاخر بالأحداث ، كما كانت شخصية هذا السلطان الذى اعتلى عرش السلطنة مرات ثلاث أنسب الشخصيات لقيادة هذه الدولة العسكرية التى كانت تمور بالحركة والحيوية . وربما كان هذا هو السبب فى بقاء أسرة قلاون . لقد أحبه المصريون ووقفوا بجانبه ضد بيبرس الجاشنكير ، كما رأينا فى السطور السابقة ، فقد رأوا فى الناصر محمد بن قلاون وأبنائه ضماناً كافياً للاستقرار والرخاء .

على أية حال ، فان هذا لايعنى أن مبدأ وراثة العرش قد استقر ، أو أن المماليك قد أخذوا به ؛ بل إن فترة حكم أولاد الناصر محمد وأحفاده تقوم دليلاً على أن المماليك لم يؤمنوا بمبدأ الوراثة فى تداول السلطة . فقد تعاقب على عرش سلطنة المماليك ثمانية من أبنائه على مدى إحدى وعشرين سنة (١٣٤٠ - ١٣٦١ م) . مما يكشف عن مدى الإضطراب عدم الاستقرار السياسى ، كما أن حكم الكثيرين منهم انتهى بالقتل ، أو السجن ، على أيدى الأمراء الذين كانوا هم أصحاب السلطة الفعلية فى البلاد آنذاك . وكان أشهرهم السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاون ، الذى تولى العرش مرتين ، وانتهت سلطنته الثانية بالقتل . فقد تولى الحكم بعد عزل أخيه المظفر حاجى ، الذى حكم سنة واحدة وثلاثة أشهر وإثنى عشر يوما (٣٦) وحكم من شهر رمضان ٧٤٨ هـ لمدة ثلاث سنين وتسعة أشهر وأربعة عشر يوماً " .... منها مدة الحجر عليه ثلاث سنين ، ومدة استبداده تسعة أشهر ... "(٣٧) وتولى بعده أخوه الملك الصالح صلاح الدين صالح بن الناصر محمد بن قلاون الذى حكم ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام ثم خلع من السلطنة ليعود الناصر حسن إلى العرش مرة ثانية بعد أن كان محبوساً طوال هذه المدة . واستمرت سلطنته الثانية ست سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام انتهت على نحو مأساوى مروع إذ قبض عليه الأمير يلبغا واختفى دون أن يعثر له على أثر ولم يعرف قبره . وكانت نهايته فى شهر جمادى الأولى سنة ٧٦٢ هـ (٣٨).

بعدها بدأ عصر أحفاد الناصر محمد بن قلاون الذى شهد المزيد من سيطرة أمراء المماليك على السلاطين الذين باتوا مجموعة من الدمى التى يحركها الأمراء . وقد استمر حكمهم منذ سنة ٧٦٢ هـ حتى سنة ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢م . وكان آخرهم الملك الصالح حاجى الذى كان طفلاً

خلعه الأمير الكبير برقوق وأدخله إلى دور الحريم لكى ينهى بذلك حكم أسرة قلاون الذى كان فى غالبه بيد كبار أمراء المماليك ولم يكن لهم سوى لقب السلطنة ولاشىء سواه .

وهنا لايمكن القول بأن استمرار وجود لقب السلطنة فى ذرية السلطان المنصور قلاون كان يعنى القبول بمبدأ الحق الوراثى فى الحكم لأبناء هذه الأسرة ؛ ولكن الصحيح ، فى تصورنا ، هو أن الأمراء الكبار الذين كان بينهم نوع من توازن القوى السياسية والعسكرية رأوا فى أولئك السلاطين الأطفال ستاراً مناسباً يمكنهم من تنفيذ كل رغباتهم ... حتى الدنيئة منها . فقد كان أكبر أولئك السلاطين من أحفاد الناصر محمد سناً هو السلطان المنصور صلاح الدين محمد (١٣٦١ - ١٣٦٣ م) ، الذى كان يبلغ من العمر أربعة عشر عاماً فقط . أما الثلاثة الآخرون ، فكانت أعمارهم تتروح بين ست سنوات وإحدى عشرة سنة . وقد كان من السهل أن يتلاعب بهم الأمراء الذين زاد نفوذهم وتحكمهم بمصالح البلاد والعباد .

ومن ناحية أخرى ، كان من السهل على الأمراء الكبار أن يفسدوا السلاطين الأطفال . ومن هذه القمم السياسية الفاسدة تسرب الفساد إلى المجتمع بحيث باتت مظاهر الفساد السياسى والاجتماعى سمة ظاهرة من سمات هذه المرحلة من حكم سلاطين المماليك فى مصر والشام .

بيد أن أهم نتائج حكم السلاطين الأطفال تمثلت فى احتدام الصراع بين طوائف المماليك المختلفة . ذلك أن عدم وجود سلطان قوى وقادر على عرش السلطنة جعل مقدراتها نهباً لأطماع أمراء المماليك المتصارعين على السلطة والنفوذ . ولما كان كل أمير من هؤلاء يمتلك جيشه الخاص ؛ أى أنه كان " سلطانا مختصرا " على حد تعبير المصادر التاريخية المعاصرة ، فقد كان طبيعياً أن تصطدم مصالح الأمراء وطموحاتهم ببعضها البعض . وكانت الترجمة العملية لهذا الصراع هى حروب الشوارع وحوادث العنف الدامية بين طوائف المماليك بحيث باتت بمثابة النغمة الدالة فى الحياة القاهرية خاصة ، وفى شتى أرجاء مصر والشام بشكل عام

وفى تصورنا أن نجاح المماليك فى القضاء على خطر الفرنج الصليبيين وطردهم من المنطقة العربية سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م ، ثم تلاشى الخطر المغولى تدريجيا بسبب اعتناقهم الإسلام، قد سلب دولة سلاطين المماليك وظيفتها التاريخية الأساسية باعتبارها دولة عسكرية جاءت

إفرازاً سياسيا / عسكريا للتحدى الذى فرضه الخطر الذى تعرضت له المنطقة العربية منذ أخريات القرن الحادى عشر الميلادى حتى أخريات القرن الثالث عشر الميلادى . وحينما ساد السلام فشلت الدولة المملوكية ، التى بزغت من طيات القتال وتمت صياغتها على أساس عسكرى بحت ، فى التكيف مع متطلبات الحياة السلمية . كما كان من الطبيعى أن تفشل المؤسسات العسكرية فى إدارة المجتمع المدنى . وبدأت بذرة الفناء الكامنة تفعل فعلها عندما تفرغ الأمراء المماليك لإدارة الصراع الداخلى والتنافس والتناحر فيما بينهم . وزاد من وطأة هذا النزاع عدم وجود سلطان قوى من طراز بيبرس وقلاون والناصر محمد بحيث يجعل أولئك القادة العسكريين يحترمون إرادته وينصاعون لأوامره .

وقد ساهمت عوامل أخرى فى زيادة منحنى التدهور فى دولة سلطنة المماليك آنذاك . ففى عصر أولاد الناصر محمد بن قلاون شهدت البلاد كارثة طبيعية لا نظير لها . فقد جاء عام ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م لتشهد مصر والشام ذلك الوباء المرعب الذى اجتاح أرجاء البلاد المعروفة فى ذلك الحين من أقصاها إلى أدناها مكتسحاً فى طريقه كل بقاع الأرض من آسيا حتى أوربا ؛ إذ انتقلت العدوى من آسيا مع قوافل التجارة العالمية لتصيب المنطقة العربية وآسيا الصغرى ثم تنتقل إلى أوربا . هذا الوباء الكاسح عرفه المؤرخون المسلمون باسم " الفناء الكبير " وعرفه المؤرخون الأوربيون فى العصور الوسطى باسم " الموت الأسود " . وقد جاء نتيجة انتشار بعض الأمراض ذات الطبيعة الوبائية من الهند وأواسط آسيا إلى عالم البحر المتوسط وأوربا مرورا بالهضبة الإيرانية والمنطقة العربية . وقد حفلت المصدر التاريخية العربية بالكتابات التى سطرتها أقلام المؤرخون المسلمين ، بكرم شديد ، فى وصف أهوال ذلك "الفناء الكبيرة "(٣٩) . وكان من أعراض هذا المرض الوبائى أن يبصق المرء دماً ثم يصيح ويموت . وقد أخذ يحل بالبلاد فى خريف سنة ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧م ثم اشتدت وطأته مع بداية العام التالى ، وظل ينشب مخالبه فى البلاد حوالى عامين . وتراوح عدد ضحاياه ما بين عشرة آلاف وعشرين ألف نسمة يومياً . " وعملت الدكك والتوابيت لتغسيل الموتى للسبيل بغير أجرة ... " ، ثم زادت أعداد الضحايا حتى صار الناس يحملونهم على السلالم وألواح الخشب والأبواب وما إلى ذلك . وتفرغ بعض الناس لتغسيل الموتى ، كما تفرغ البعض الآخر للصلاة على ضحايا الوباء الذين كانوا يدفنون جملة فى حفرة واحدة .

وقد شمل هذا الوباء جميع الكائنات الحية ، حسب روايات المؤرخين ، فقد امتد أثره إلى "... حيتأن البحر ، وطير السماء ، ووحش البر ... " كذلك فسدت الزراعات بسبب تواجد الديدان ، وتسممت الأسماك فى النهر والترع والبحيرات وكان طبيعيا أن ينشغل الناس بهذا الوباء عن سائر اهتمامهم وألا يكون بمقدروهم مزاولة أعمالهم اليومية . فلم تجد الأرض من يزرعها ، كما أن المحاصيل التى نضجت لم تجد من يحصدها لكثرة الموتى بين الفلاحين . وتوقفت أعمال الصيد ؛ إذ كان الصيادون يخرجون بمراكبهم للصيد ، فيموت بعضهم أثناء الرحلة ويموت الباقون بعد العودة . واختفت البضائع ، وانكمشت الأسواق ، وركدت الحياة تماما وتعطلت أحوال الناس . ولم يجد الولاة والقضاه عملاً إذ كف الناس عن مقاضاة بعضهم، كما أن المؤسسات التجارية ، مثل القياسر والخانات والوكالات وفنادق التجار الأجانب ، كانت خاوية لا تجد من يسكنها أو ينزل بها . وزهد الناس فى أموالهم وبذلوها للفقراء ....

وكان المشهد الكئيب ، بملامحه المعتمة ، متكرراً فى كل أنحاء البلاد تقريبا . كما قضى الوباء على الكثيرين من " أجناد الحلقة " الذين كانوا بمثابة جنود الحرس الوطنى فى مصطلحنا المعاصر ، كما كانوا أشبه بقوات الاحتياط فى الجيش آنذاك ، وخلت الطباق (الثكنات العسكرية) فى القلعة من المماليك لموتهم ...

هذا الوباء الرهيب قضى على حوالى ثلثى عدد السكان فى مصر ، وأقفرت المدن والقرى ، وخلت القاهرة من سكانها ، وهرب السلطان ومن استطاع اللحاق به من أبناء الطبقة الحاكمة والأعيان إلى سرياقوس حيث ظنوا أنهم آمنون من خطر الموت . وصارت الأملاك تنتقل بطريق الوراثة بين أكثر من خمسة أو ستة أشخاص فى اليوم الواحد بسبب سرعة توالى أحداث الموت. كما استولى كثيرون من عامة الناس على الإقطاعيات التى كانت مخصصة لجنود الجيش المملوكى .

ونظراً لموت هذا العدد الكبير من الناس انخفضت الأسعار بدرجة كبيرة . ولم تجد الغلال من يطحنها ، بل إن كتب العلم رخصت لدرجة أنه كان ينادى عليها بالأحمال " ... ويباع الحمل منها بأرخص ثمن ... " كما تدنت أسعار الذهب والفضة .

وفى عام ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ بدأت حدة الوباء تتناقص ، ولم يلبث أن ارتفع بشكل نهائى.

بيد أن آثاره ونتائجه ظلت قائمة بعد ذلك بفترة طويلة . وفى هذه السنة نفسها حاولت الدولة حصر الأملاك التى مات أصحابها فى غمار أحداث الوباء ، فوجد المسئولين أعدادا هائلة من المنازل والفنادق والخانات التى مات أصحابها ووارثوها بحيث لم تعد ملكاً لأحد . ويقول المؤرخ تقى الدين المقريزى إنه كانت توجد بالحارة الواحدة أكثر من عشرين دارا خالية لا يُعرف أصحابها .

كانت النتائج والآثار السلبية لذلك الوباء ، وسلسلة المجاعات والأوبئة التى أعقبته ، خطيرة للغاية على البناء السياسى والعسكرى لدولة سلاطين المماليك مثلما كانت بالغة الخطورة بالنسبة للبناء السكانى والوضع الاجتماعى والاقتصادى للبلاد . فمن الناحية الاجتماعية والسكانية ، تجلت هذه التأثيرات السلبية فى تدهور أعداد السكان بشكل رهيب. وظهر هذا بوضوح فى انخفاض أعداد القرى وتقلص مساحات المدن ، واختفاء عدد كبير من الأسواق [٤٠]، وفى الريف تقلصت أعداد القرى نتيجة موت عدد كبير من الفلاحين من ناحية، وهروب كثيرين غيرهم إلى المدن من ناحية أخرى ، فضلا عن الفرار من أعباء الزراعة غير المجدية وظلم الحكام من ناحية ثالثة [٤١].

وقد انتجت أحداث الوباء فى المجال الثقافى بعض الآثار السلبية الخطيرة على النظام القيمى والأخلاقى ، كما أنتجت ، من ناحية أخرى ، نوعاً من الشعر الشعبى الساخر الذى اشتهر به المصريون فى مواجهة كوارث الطبيعة والحكام على مر العصور ؛ فقد قال أحد الشعراء :

يا طالباً للموت قُم واغتنم هذا أوان الموت مــا فاتا

قد رخص الموت على أهله ومات من لا عمره ماتا

أما النتائج والآثار الاقتصادية " للفناء الكبير " ، فكان بعضها فوريا ومباشراً ، على حين كان بعضها الآخر على شكل تيار تحتى أخذ يقوض أركان الدولة على مدى سنوات طويلة . إذ تدهور الإنتاج الزراعى وشحت الأقوات وارتفعت الأسعار ، كما انخفض الإنتاج الصناعى كماً وكيفاً بشكل واضح بالشكل الذى أدى إلى تقليص النشاط التجارى الداخلى وانكماش الأسواق . كما انهار النظام النقدى وفقد الدينار الذهبى والدرهم الفضى المملوكى قوتهما فى

أسواق التجارة العالمية والداخلية على السواء ، وبدأت عملات المدن التجارية الإيطالية تفرض سيطرتها على السوق المحلية نفسها (٤٢).

هكذا كان " الفناء الكبير " كارثة أضيفت إلى مصائب البلاد فى عصر أولاد السلطان الناصر محمد بن قلاون الذى شهد سيطرة الأمراء الكبار على مقاليد الحكم ومنافساتهم الدامية . وإذا كان عصر أولاد الناصر قد شهد كارثة طبيعية أضافت إلى متاعب البلاد والعباد جديداً . فقد شهد عصر الأحفاد من السلاطين الأطفال كارثة عسكرية برهنت على تدهور الهيبة العسكرية لدولة سلاطين المماليك عندما تفرغ الحكام والأمراء لممارسة لعبتهم المفضلة فى التآمر والنزاع .

هذه الكارثة العسكرية هى الحملة العسكرية الصليبية التى قادها ملك قبرص الصليبى بطرس لوزينان لنهب الاسكندرية وتدميرها سنة ٧٦٧ هـ / ١٣٦٥ م . فالواقع أن طرد الفرنج الصليبيين على أيدى القوات الإسلامية بقيادة السلطان الأشرف خليل بن قلاون سنة ١٢٩١م لم يكن نهاية للصراع الإسلامى / الصليبى فقد ظلت فلول القوى الصليبية فى قبرص وردوس وأوربا أسيرة لوهم العودة إلى المنطقة العربية مرة أخرى . ومن ثم استمر الصراع طوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر على شكل غارات ومناوشات قليلة الأهمية . وكانت حملة بطرس لوزينان المفاجئة على الاسكندرية ، بما صاحبها من مظاهر الغدر الصليبية المألوفة ، بمثابة تذكرة بالدور التاريخى لدولة سلاطين المماليك فى التصدى للصليبيين . وكانت بمثابة المسمار الكبير فى نهاية دولة بنى قلاون ونهاية العبث الذى ميز السنوات الأخيرة من دولة المماليك الأولى (البحرية) ، وقيام الدولة الثانية (البرجية) لمواصلة ذلك الدور العسكرى مجددا .

كان القضاء على الكيان الفرنجى الصليبى ببلاد الشام ضربة قاصمة حلت بالغرب الأوربى على الرغم من أنه كان منصرفاً عن مملكة بيت المقدس اللاتينية ، فى المراحل الأخيرة من وجودها ، بمشكلات التحول والتطور السياسية والاجتماعية الداخلية (٤٣). وعلى الرغم من حقيقة أن الملوك والحكام فى الغرب الأوربى كانوا مهمومين بمشكلاتهم السياسية داخل أوربا نفسها ، فقد كانت شعوب الغرب الأوربى الكاثوليكى ، والبابوية معهم ، مازالت ترى فى مملكة بيت المقدس اللاتينية أرض الأحلام . إذ كان الناس يحملون مشاعر عاطفية جارفة تجاه الكيان اللاتينى الكاثوليكى على أرض المنطقة العربية . كما كانت البابوية ترى فى الفكرة

الصليبية أداة قوية من أدوات السياسة الداخلية والخارجية على حد سواء . وعلى الرغم من كل المساعدات التى حاول البابوات والمتحمسون من الأوربيين إرسالها إلى الفرنج الصلبيين فى فلسطين ، فقد كانت الوحدة العربية الإسلامية التى قادها سلاطين المماليك ، منذ الظاهر بيبرس والمنصور قلاون وابنه الأشرف خليل ، خير ضمان للنصر الإسلامى النهائى . وبات الغرب الأوربى مقتنعا بأن طريق العودة إلى فلسطين يمر عبر مصر ؛ وأنه لابد من هزيمة مصر وإخضاعها ، أو إضعافها على أقل تقدير ، حتى يمكن لأى مشروع صليبى جديد أن ينجح فى العودة إلى فلسطين .

من ناحية أخرى ، كانت التجارة تمثل مورداً هاماً من موارد الدخل والثروة لدولة سلاطين المماليك . وقد حاولت البابوية فرض الحصار الإقتصادى على مصر ؛ فأصدرت عدة مراسيم تحرم على التجار الأوربيين التبادل التجارى مع مصر أو غيرها من البلاد العربية الإسلامية . بيد أن إغراء الربح بالنسبة لأولئك التجار كان أكبر من إغراء الغفران الصليبى الذى تعدهم به البابوية التى لايحترمونها كثيراً . لقد رفض التجار الأوربيون ، والإيطاليون منهم بصفة خاصة ، أن يضحوا بمصالحهم التجارية فى سبيل أهداف السياسة البابوية ، وظلت سفنهم وبعثاتهم التجارية وقناصلهم من معالم حوض البحر المتوسط الشرقى ، وتواجدوا فى الموانى المصرية والشامية .

وصارت قبرص مركزاً للقرصنة الصليبية تحت قيادة آل لوزينان ، وأخذت تهدد سفن التجارة الإسلامية وتحاول قطع خطوطها من ناحية ، كما صارت مركزاً لمراقبة الشواطىء المصرية والشامية ، وشن الغارات السريعة المفاجئة عليها بين الحين والآخر من ناحية ثانية . ومنذ استولى ريتشارد الأول ملك إنجلترا (قلب الأسد) على جزيرة قبرص فى أخريات القرن الثانى عشر فى خضم أحداث الحملة الصليبية الثالثة ، ظلت الجزيرة تلعب دوراً هاماً فى الصراع الإسلامى الصليبى . إذ كانت بمثابة مركز التجمع والتموين للحملات الصليبية البحرية ولاسيما الحملة الصليبية السابعة بقيادة الملك الفرنسى لويس التاسع ٦٤٦هـ/١٢٤٩م-٦٤٨هـ/١٢٥٠م(٤٤) وبعد طرد الصليبيين من بلاد الشام نهائيا فى ١٢٩١م ، صارت قبرص قاعدة الشراذم الصليبية وفلولهم الهاربة من فلسطين ، كما باتت محط آمال البابوية وأنصارها فى إحياء المشروع الصليبى . وبدأ ملوك قبرص من آل لوزينان

يقدمون المشروعات الصليبية ضد مصر ، ثم جعلوا من الجزيرة مركزاً لتحقيق هذه الأهداف التى لم تكن توازنات القوى السياسية والعسكرية تسمح بتحقيقها ، ومن ثم اتسمت عملياتهم بالغدر والسرعة ولم تتعد حدود القرصنة والنهب .

وجاءت الغارة التى شنها بطرس لوزينان على الاسكندرية سنة ٧٦٧ هـ / ١٣٦٥ م متوافقة مع هذه السياسة . إذ مهد بطرس لغارته بجولة زار فيها المقر البابوى وبلاطات ملوك الغرب الأوربى وجمع قدراً كبيراً من المساعدات بهدف ضمان النجاح . وكانت جزيرة قبرص مركز التجمع الصليبى ، كما اجتمعت بعض قواتهم فى رودس ، ولكنهم حتى ذلك الحين لم يكونوا قد حددوا هدف الحملة . وبعد مشاورات ومجادلات قرر الزعماء أن تكون مدينة الاسكندرية هدف هذه الغارة ...

على الجبهة الأخرى ، كان التوقيت مناسباً ؛ إذ كان السلطان الجالس على عرش سلطنة المماليك طفلاً فى الثانية عشر من عمره هو السلطان الأشرف شعبان حفيد الناصر محمد بن قلاون ، وحوله مجموعة من الأمراء المتنازعين على رأسهم الوصى على العرش الأمير يلبغا الخاصكى الذى عرف بظلمه وغطرسته وكراهية الناس له (٤٥). وفى ظل هذه الظروف لم يكن غريباً أن تلعب الخيانة دورها . إذ تذكر المصادر التاريخية أن أحد الموظفين بمدينة الإسكندرية، وهو شمس الدين بن غراب ، قد سهل للعدو دخول المدينة (٤٦) وقد اتهم هذا الرجل بأنه كان جاسوساً لبطرس لوزينان ملك قبرص .

على أية حال ، فوجىء أهالى المدينة بالجنود الصليبيين داخل المدينة أثناء صلاة الجمعة الثانى والعشرين من شهر محرم سنة ٧٦٧ هـ / ١٠ أكتوبر ١٣٦٥م ، بعد أن ظلوا يدافعون عن مدينتهم عدة أيام . وقام الصليبيون بتدمير شامل للمدينة ومبانيها ، ونهبوا كل ما وقعت عليه عيونهم . وحدث فى أثناء ذلك أن سيدة مسيحية مصرية عجوزاً ، إبنه قسيس وكانت حارسة كنيسة مجاورة لمنزلها أضطرت إلى دفع كل ما تملك للصليبيين حتى لا يهدموا الكنيسة . كذلك ارتكب الصليبيون أعمالهم الوحشية من أسوأ طراز ، وبطريقة أعادت إلى الأذهان أفعال أسلافهم الفرنج . وامتلأت الطرقات بالجثث ، وتحولت المدينة إلى مشهد مجسد من مشاهد الرعب . وقضى الصليبيون أياماً ثلاثة فى الاسكندرية كانت شديدة الوطأة على المدينة وسكانها . وعندما أحس بطرس لوزينان بقرب وصول الجيش المملوكى المجرد من

القاهرة سارع بالفرار هو وجنوده بعد أن أخذوا معهم عدداً كبيرا من الأسرى منهم " ... المسلم والمسلمة ، واليهودى واليهودية ، والنصرانى والنصرانية ... " ويبدو أن غنائمهم التى نهبوها كانت من الكثرة بحيث أضطر الصليبيون إلى إلقاء بعضها فى البحر تخفيفا للحمولة (٤٧).

كانت تلك غارة من غارات القرصنة ، وذكر المؤرخون أن ملك قبرص تصرف كما يتصرف اللصوص ؛ إذ أنه لم يستمر فى احتلال الاسكندرية ولم يبق لمواجهة الجيش المصرى . حقيقة أنه خرّب المدينة ولكنه " ... دخلها لصاً وخرج منها لصاً ... " .

كانت تلك الغارة بمثابة المسمار الأخير فى نعش دولة سلاطين المماليك الأولى وإيذانا بنهاية ذلك النمط من الحكم المتهافت للسلاطين الأطفال من أحفاد الناصر محمد بن قلاون . فبعد سبعة عشر عاماً من هذه الغارة التى كشفت عن تناقص الهيبة العسكرية للدولة التى طردت الصليبيين من بلاد الشام سقطت دولة بنى قلاون ، وقامت دولة جديدة هى دولة المماليك الثانية .

والحقيقة أنها لم تكن دولة جديدة تماماً ، وإنما كانت استمراراً لحكم سلاطين المماليك ؛ ولكن ما نقصده بالدولة الجديدة هنا هو أنها كانت نهاية للخط القلاونى فى الحكم ، والصيغة السياسية التى ميزت عصر أبناء وأحفاد الناصر محمد بن قلاون ؛ وهى صيغة كانت تجعل من السلطان الطفل ستاراً يلعب الأمراء من خلفه بمقدرات البلاد .

لقد أعادت دولة المماليك الجراكسة التى بدأها السلطان برقوق الهيبة للسلطان بعد أن تجرد المنصب من هيبته فترة طويلة .

وهذا هو موضوع الفصل الرابع .....

حواشي الفصل الثالث :

١ – النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، جـ ٣١ (تحقيق الدكتور الباز العريني) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢ ، ص ٧ ؛ ابن حبيب ، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ، جـ ١ (تحقيق الدكتور محمد محمد أمين) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦م ، ص ٤٨ .

٢ – أنظر الفصل الأول من هذه الدراسة .

٣ – المقريزي ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٦٧٠ .

٤ – يذكر ابن أيبك الدواداري (كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ٢٣٧) أن سنقر الأشقر كاتب علاء الدين الجويني ، صاحب الديوان ببغداد والمستولي على بلاد العراق ، فكتب الجويني بخبره إلى أبغا . ومن ناحية أخرى ، بعث إلى سنقر الأشقر " ... يُطيِّب خاطره ، ويعده ويمنيه حتى يعود جواب القان بما يعتمده ... " .

٥ – المقريزي ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٦٧٦ – ص ٦٧٧ .

٦ – في سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨١م وصل إلى السلطان رسل الفرنج يطلبون تقرير الهدنة ، والزيادة على الهدنة التي كان بيبرس قد عقدها معهم " ... ومازالوا يترددون إلى أن تقررت الهدنة بين السلطان وولده معا ، ومع مقدم بيت الإسبتار وجميع الأخوة الإسبتارية بعكا لمدة عشر سنين كوامل متتابعات ، وعشرة شهور وعشرة أيام ، وعشر ساعات ... " كما عقدت هدنة مماثلة مع بوهيموند السابع أمير طرابلس . أنظر :

النويري ، نهاية الأرب ، جـ ٣١ ، ص ٧٣ – ص ٧٧ .

٧ – المقريزي ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٦٩٠ – ٦٩٩ .

٨ – ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، جـ ١ ، ص ٧٢ .

٩ – جاءت هذه الرسالة في سنة ٦٨١هـ وقد أورد المؤرخون نصها كاملاً . أنظر :

ابن أيبك الدواداري ، كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ٢٤٩ – ص ٢٥٤ .

١٠ – نفسه ، جـ ٨ ، ص ٢٥٤ – ص ٢٦٠ . وقد كان الرد يجمع بين الرسالة المكتوبة والرسالة الشفوية

١١ – المقريزي ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٧١٤

Claude Cahen "The Mongols and the Near East " , in Setton A Hist . of the Crusades ; m Vol . II pp . 720 - 721 .

١٢ – المقريزي ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٨٠٥ .

١٣ – Ziada , The Mamluk Sultans to 1293 " , in Setton A Hist . of the Crusades m Vol . II p. 725 .

ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، جـ ١ ، ص ٩٦ .

١٤ – S . Runciman " The Cursader States , 1243 - 1291 " , in Setton A Hist . of the Crusades m Vol . II pp . 589 - 590 .

١٥ – في سنة ٦٨٧ هـ وردت كتب نائب الشام بأن الفرنج بطرابلس نقضوا الهدنة ، وأخذوا جماعة من التجار وغيرهم ... فتجهز السلطان لأخذ طرابلس – أنظر : المقريزي ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٧٤٦ .

١٦ – المقريزي ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٧٤٧ – ص ٧٤٨ ؛ العيني ، عقد الجمان ، جـ ٢ ، ص ٣٨٠ – ص ٣٨١ ؛ ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، جـ ١ ، ص ١٢٢ – ص ١٢٤ .

١٧ – المقريزي ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٧٥٣ – ص ٧٥٤

Runciman , The Crusader States . p . 594 .

١٨ - ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، جـ ١ ، ص ١٣٥ ؛ النويرى ، عقد الجمان ، جـ ٣ ، ص ١٢ - ص ٢٤.

١٩ - بعد أن حلف العسكر للسلطان الملك الأشرف خليل طلب من القاضى فتح الدين بن عبد الظاهر تقليده بولاية العهد ، فأخرجه إليه مكتوباً بدون علامة السلطان قلاون . وكان ابن عبد الظاهر قد قدمه إليه ليضع عليه علامته فرفض عدة مرات إلى أن قال " يافتح الدين أنا ما أولي خليلا على المسلمين " . فلما رأى الأشرف التقليد بغير علامة قال : " يا فتح الدين إن السلطان امتنع أن يعطينى وقد أعطانى الله . " ورمى إليه التقليد . أنظر : المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٧٥٦ .

٢٠ - قدمت رسل عكا إلى القاهرة فى شهر المحرم سنة ٦٩٠هـ يسألون العفو ، فلم يقبل منهم ما اعتذروا به . : المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٧٦٢ .

٢١ - ابن أيبك الدواداري ، كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ٣٠٨ - ص ٣١٠ ؛ ابن حبيب ، تذكره النبيه ، جـ ١ ، ص ١٣٧ ؛ ص ١٣٨ ؛ العينى ، عقد الجمان ، جـ ٣ ، ص ٥٦ - ص ٦٥ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٣١ ، ص ١٩٧ - ص ١٩٩ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٧٦٣ - ص ٧٦٥ ؛

Runciman , “ The Crusader States “ , pp . 595 - 598 .

٢٢ - ورد الإسم بالصياغة الأولى فى (المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ص ٦٣١) ، كما ورد بالصياغة الثانية فى (ابن أيبك الدواداري ، جـ ٨ ، ص ١٨٣) وهو يذكر أن شكنده ابن عم داود ملك النوبة .

٢٣ - أنظر نص المعاهدة التى حلف عليها شكنده بعد تولى العرش فى النوبة : ابن أيبك الدواداري ، كنز الدُرر ، جـ ٨ ، ص ١٨٥ - ص ١٨٦ .

٢٤ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٧٣٧ .

٢٥ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٧٤٩ - ص ٧٥٠ .

٢٦ - نفسه ، جـ ١ ، ص ٧٥١ - ص ٧٥٣ .

٢٧ - ابن أيبك الدواداري ، كنز الدُرر ، جـ ٨ ، ص ٣٤٥ - ص ٣٤٨ .

بعد مصرع الأشرف خليل اجتمع الأمراء وسلطنوا بيدرا ولقبوه الملك القاهر ولكن مماليك الأشرف وأبيه أعلنوا الحرب على المتآمرين وقبضوا على عدد منهم ، وبعد أن عذبوهم قتلوهم شر قتله ، واضطربت الأحوال وعمت الفوضى وأعمال السلب والنهب ، ثم اتفقوا على سلطنة الناصر محمد على أن يكون كتبغا نائبه ويكون الشجاعى وزيراً ، والحسام استادار أتابك - أنظر المصدر نفسه ، ص ٧٤٨ - ص ٣٥١ .

٢٨ - النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٣١ ، ص ٢٦٧ .

٢٩ - يذكر المقريزى (السلوك ، جـ ١ ، ص ٨٠٠ - ص ٨٠٢) أن أم السلطان سألت الأمراء الذين يحاصرون القلعة عن غرضهم فأجابوا بأنهم يطلبون الشجاعى " ... ولو بقى من بيت أستاذنا بنت عمياء كنا مماليكها ، لاسيما وولده الملك الناصر حاضر وفيه كفاية " فأغلقت باب القلعة من إحدى الجهات . ثم تصاعدت الأمور بحيث قطع رأس الشجاعى " ولُفّ فى بقجة " وقال الفارس الذى يحمل رأس الشجاعى حين سألوه ما معك ؟ " أجاب " خبز سخن أرسله السلطان إلى الأمراء ليعلموا أن عندنا الشىء بكثرة " فصدقوه وخلص منهم .

٣٠ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٨٠٦ .

٣١ - النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٣١ ، ص ٢٨٢ .

٣٢ - نفسه ، جـ ٣١ ، ص ٢٩٨ - ص ٢٩٩ .

٣٣ - بعد أن اشترى المنصور قلاون لاجين اتضح أن شراءه غير صحيح لأنه اشتراه من غائب ولا يصح إلا

من حاكم شرعي فاشتراه مرة ثانية من قاضي القضاة بن بنت الأعز . وكان يعرف باسم " شقير " و " لاجين الصغير " .

٣٤ - المقريزي ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٤٠ - ص ٤٤ .

٣٥ - المقريزي ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٧١ .

٣٦ - المقريزي ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٧٤٤ .

٣٧ - نفسه ، جـ ٢ ، ص ٨٤٢ .

٣٨ - نفسه ، جـ ٣ ، ص ٦١ - ص ٦٣ .

٣٩ - المقريزي ، إغاثة الأمة بكشف الغُمّة (نشره محمد مصطفى زيادة و جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٠م) ص ٣٧ - ص ٣٨ ؛ السيوطي ، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، جـ ٢ ، ص ٢٩٧ - ص ٢٩٨ ؛ ابن أيبك الدواداري ، كنز الدرر ، جـ ٩ ، ص ٣٥٨ - ص ٣٥٩ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، جـ ١٠ ، ص ٢٠٤ . أنظر أيضا :

قاسم عبده قاسم ، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي ، ص ١٤٩ - ص ١٥١ .

٤٠ - قاسم عبده قاسم ، دراسات في تاريخ مصر الإجتماعي ، ص ٤٦ - ص ٤٧ .

٤١ - المقريزي ، إغاثة الأمة بكشف الغمة ، ص ٣٣ - ص ٣٥ ؛ ابن الصيرفي ، نزهة النفوس والأبدان ، جـ ٣ ، ص ٢٤١ .

٤٢ - المقريزي ، السلوك ، جـ ٤ ، ص ٩٤١ - ص ٩٤٤ ؛ قاسم ، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي ، ص ٥٥ - ص ٥٩ .

٤٣ - نورمان كانتور ، التاريخ الوسيط : قصة حضارة - البداية والنهاية ، ، ترجمة د . قاسم عبده قاسم) ، ط ٢٠ ، دار المعارف ١٩٨٦ ، جـ ٢ ص ٤٠٨ - ص ٤٠٩ .

٤٤ - عن هذه الحملة أنظر ما سبق ، وأنظر أيضا ؟:

ابن واصل ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، جـ ٢ ، ص ٤٥ وما بعدها ؛

Joinvill , The Life of Saint Louis , (transl . by M . R . B . Shaw , Penguin 1975) , pp - 197 - 8 , 206 - 264 ; Joseph R . Strayer , “ The Crusades of Louis 1x “ , in Setton , A History of the Crusades , II , pp . 487 - 518 .

٤٥ - تولي السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن قلاون العرش سنة ٧٦٤ هـ وعمره عشر سنين ، وكان يلبغا الخاصكي قد أقنع الأمراء بخلع سلفه المنصور محمد بن حاجي بن ناصر محمد " لاختلال عقله " . أنظر : المقريزي ، السلوك ، جـ ٣ ، ص ٨٣ - ص ٨٤ .

٤٦ - أمر شمس الدين بن غراب بقفل باب الديوان مما يلي المدينة بحجة منع التجار من أخذ بضائعهم من الديوان فتضيع الحقوق التي عليها " ... فلذلك امتنعت الرماة من تلك الجهة من السور ، وبذلك رأى العدو جهة خالية ودخل البلد منها ، وقيل إن ابن غراب المذكور كان متعاملاً مع صاحب قبرص عليها وأن صاحب قبرص أتاها قبل الوقعة في زي تاجر آواه ابن غراب " . أنظر :

محمد بن قاسم بن محمد النويري السكندري ، الإلمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في واقعة الرسكندرية (مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٤١٩٣ تاريخ) ملحق بالجزء الثالث - القسم الأول من كتاب السلوك للمقريزي ، ص ٤١٣ - ص ٤٣٢ .

٤٧ - المقريزي ، السلوك ، جـ ٣ ، ص ١٠٥ - ص ١٠٨ .

الفصل الرابع

دولة المماليك الجراكسة

من هم المماليك الجراكسة ؟ ظهورهم على مسرح السياسة - السلطان الظاهر برقوق وبداية حكم الجراكسة - خصائص دولة المماليك الجراكسة - أهم الأحدث التاريخية فى هذه الدولة - السلطان قنصوة الغورى ونهاية الدولة - تأملات ختامية .

كانت أقوى الروابط التى تجمع بين المماليك هى رابطة " الأستاذية " التى تربط الأستاذ (أى السيد أو الأمير) بمماليكه ، ورابطة الخشداشية (الخجداشية) التى كانت رابطة الزمالة التى تجمع بين المماليك فى طائفة واحدة . ولاغرو فان أبناء هذه الطبقة المجلوبين عبيدا فى طفولتهم قد تربوا معاً ونشأوا فى نفس الظروف . كما أنهم ، من ناحية أخرى ، كانوا غرباء على المجتمع الذين تعين عليهم أن يحاربوا دفاعاً عنه . ولما كانت جذورهم تمتد فى تربة أخرى بعيدة انتزعوا منها ، فقد افتقروا إلى الإحساس بانتمائهم إلى المجتمع الذى عاشوا على هامشه ولم يشعروا بأية وشائج تربطهم به . وقد أدى هذا إلى عدم شعورهم بالأمن فى رحاب هذا المجتمع ، وعوضوا ذلك بالأمن الذى أحسوه فى زمالتهم ورفقتهم التى فرضت عليهم أن ينشأوا فى ظروف واحدة . وكان الأمراء يولون عنايتهم ورعايتهم الكاملة لمماليكهم فى ظل علاقة " الأستاذية " ؛ لأنهم كانوا هم القوة الذاتية للأمير - أو السلطان - وسنده فى الصراع الذى كان يمكن أن ينشب فى أى وقت بين المتصارعين على الحكم والسطوة والنفوذ . ولم يكن السلطان ، والأمراء ، يتناولون طعامهم سوى مع مماليكهم ؛ بل إن السلطان كان يغضب من المملوك الذى لايأكل عنده .

كذلك ظلت جموع المماليك ، الذين كان تجار الرقيق يجلبونهم من شتى الأرجاء باستمرار ، تغذى المشاعر الإنعزالية فى نفوس المماليك . فقد أحس المماليك أنهم أغراب عن البلاد ولم يحاولوا الاندماج فى المجتمع لفترة طويلة . بل إن منهم من لم يتعلم اللغة العربية على

الإطلاق . وثمة لهجة تركية كانت سائدة فى أوساط البلاط المملوكى ، وهى لغة القفجاق ، أو القبيلة الذهبية ، (القرن الذهبى) . وعلى الرغم من أن المماليك بدأوا ينزلون من طباق القلعة؛ أى الثكنات العسكرية ، ليسكنوا القاهرة ويتزوجون من المصريات فى عهد السلطان الظاهر برقوق ، فقد ظلوا على عزلتهم الاجتماعية .

ذلك أن تركز وظائف الحكم والإدارة العليا فى أيديهم ، وكونهم أصحاب السلطة السياسية والقوة العسكرية فى بلد غريب عنهم ، جعلهم يتصرفون بوصفهم أقلية عسكرية تنأى بنفسها عن المشاركة فى الحياة المصرية سوى من خلال المواكب السلطانية ، والأعياد الدينية والعامة .

لا عجب ، إذن ، أن نجد إنتماءات المماليك شخصية وخاصة . فنحن نقرأ فى المصادر التاريخية المعاصرة عن طوائف شتى من المماليك تنتمى كل منها إلى شخص بعينه ؛ فها هى طائفة " المماليك الصالحية " - نسبة إلى الصالح نجم الدين أيوب ، وهاهى طائفة أخرى هم " المماليك الظاهرية " نسبة إلى الظاهر بيبرس و" المنصورية " نسبة إلى المنصور قلاون ، والأشرفية نسبة إلى السلطان الأشرف خليل بن قلاون . ذلك هذه الرابطة الخاصة كانت هى الوسيلة المثلى لتحقيق الشعور بالأمن للمماليك فى ظل حياتهم التى كانت تحكمها المنافسة الدموية كطريق يعترف به الجميع للوصول إلى العرش .

وكان حصاد هذه الروح التنافسية القائمة على القوة والدم والمستندة إلى الروابط الخاصة سلسلة من المتاعب والمنازعات كانت تفرض نفسها على الحياة المصرية ، كلما جلس على العرش سلطان ضعيف أو سلطان طفل ، على نحو ماحدث فى عصر أولاد الناصر محمد وأحفاده . ومن ناحية أخرى كان كل أمير ، أو سلطان ، يريد تدعيم سلطته وقوته ، يشترى أعدادا متزايدة من المماليك . وكان من الممكن ان تصل مشتروات السلطان من المماليك ، فى عصر المماليك البحرية إلى حوال ثمانمائة مملوك . وكان مماليك السلطان يعسكرون بالقاهرة حيث تكون القوة الرئيسية فى الجيش المملوكى . وكانت أعداد هذه المماليك السلطانية تتكاثر حين ينضم إليهم مماليك أسلافه من السلاطين أو مماليك من يغضب عليهم من كبار الأمراء الذين يسجنون أو يقتلون ، ويستولى السلطان على مماليكهم (١) . ولكن العلاقة بين السلطان والمماليك الذين اشتراهم ورباهم عادة ما تكون أقوى من العلاقة بينه وبين غيرهم من المماليك. وكان السلاطين يولون عناية كبيرة لتربية مماليكهم وتدريبهم ، لأنهم كانوا بمثابة الحرس

السلطانى الخاص . كما كان السلطان يختار لهم أعلى الوظائف قدرا وأكبرها اقطاعا . حتى يضمن رضاهم وولاءهم على الدوام ...

وهذا هو ما فعله السلطان المنصور قلاون بالنسبة لمماليكه من الجراكسة . فقد اختار قلاون أن ينشىء فرقة مملوكية من الجراكسة الذين كانوا يستوطنون المناطق الواقعة إلى الشمال من بحر قزوين وشرق البحر الأسود . وفى تلك الفترة كانت أعداد كبيرة من المماليك الجراكسة متوفرة فى أسواق الرقيق بحيث كان سعرهم هو الأرخص على الرغم من شهرتهم الفائقة بالشجاعة والقوة .

وقد أسكن السلطان المنصور قلاون مماليكه الجراكسة فى أبراج القلعة مما جعل البعض يطلقون عليهم اسم " المماليك البرجية " ، وتحكى المصادر أن عددهم قد وصل إلى نحو ثلاثة آلاف مملوك فى السنوات الأخيرة من عصر قلاون الذى حرص على عزلهم عن غيرهم من طوائف المماليك كما أهتم بتدريبهم العسكرى وحباهم بعطفه وأغدق عليهم من هباته وأمواله الكثير ... (٢).

وقد سار أبناء قلاون على سياسته فى الإهتمام بطائفة المماليك الجراكسة . فقد اشترى الأشرف خليل - على الرغم من قصر مدة حكمه - حوالى ألفين من المماليك الجراكسة (٣). ولكن زيادة أعداد المماليك من هذه الطائفة فرضت أوضاعا جديدة لم يألفها المماليك من قبل ، فلأول مرة يسمح السلطان خليل بن قلاون للمماليك بالنزول من ثكناتهم العسكرية بالقلعة إلى القاهرة والفسطاط ليتجولوا فيها نهارا ، ثم يعودون للمبيت فى القلعة ليلا . وكان طبيعيا أن يؤدى هذا إلى ازدياد انغماس المماليك البرجية فى الحياة المصرية ، كما بدأوا يختلطون بغيرهم من طوائف المماليك . ومن ناحية أخرى ، بدأت طوائف الممايك الأخرى تحس مشاعر الحقد والغيرة من المكانة والنعمة التى يحظى بها الجراكسة ...

وكان طبيعيا أن تزداد مكانة المماليك الجراكسة بازدياد اعتماد السلاطين من ذرية قلاون عليهم . وقد ظهر دورهم السياسى واضحا عندما قتلوا الأمير بيدرا الذى دبر مؤامرة لقتل أستاذهم الأشرف خليل بن قلاون . وكانوا هم الذين اختارو الناصر محمد سلطانا على البلاد

فى سلطنته الأولى سنة ٦٩٣هـ /١٢٩٣م على الرغم من أنه كان مايزال طفلا صغيراً [٤]. وفى خضم الصراع الذى احتدم بين كتبغا وسنجر الشجاعى ، اللذين حكما باسم السلطان الطفل ، ظهرت أهمية البرجية الذين ساندوا سنجر الشجاعى وهزموا كتبغا وأنصاره من المماليك البحرية [٥]. وكان لانفضاض الجراكسة عن سنجر فيما بعد أكبر الأثر فى هزيمته ومصرعه على يد كتبغا الذى اتخذ عدة اجراءات لتشتيت شمل الجراكسة . فأنزلهم من ثكناتهم فى القلعة ، وشتتهم فى أحياء القاهرة فثاروا وتسببوا فى سلسلة من الاضطرابات العنيفة لأن المسألة بالنسبة لهم كانت مسألة حياة أو موت [٦] .

وساءت أحوال المماليك الجراكسة فى عهد كل من السلطان كتبغا (١٢٩٤ - ١٢٩٦م) وسلفه السلطان لاجين (١٢٩٦ - ١٢٩٨م) اللذين اغتصبا من الناصر محمد ، ثم نجح الجراكسة بزعامة الأمير سيف الدين كرجى فى قتل السلطان لاجين [٧]. وعاد السلطان الناصر محمد مرة ثانية إلى عرش السلطنة . وبعدها بدأ نفوذ المماليك والجراكسة يتصاعد ، وربما كانت شجاعة البرجية فى القتال ضد المغول فى بلاد الشام سنة ١٣٠٢م من أسباب زيادة نفوذهم السياسى ، فقد كانت لهم اليد الطولى فى تحقيق النصر على قوات المغول فى معركة شقجب بالقرب من دمشق فى سنة ٧٠٠ هـ [٨] .

وفى سلطنة الناصر محمد الثانية زاد نفوذ المماليك الجراكسة ، وتبلورت زعامتهم فى الأمير بيبرس الجاشنكير [٩] الذى جعل عددا كبيرا منهم يرتقون إلى مرتبة الامارة . ولما كان الناصر محمد فى سلطنته الثانية مايزال ضعيفا وغير قادر على التحكم فى أمرائه ، فان بيبرس الجاشنكيز وزملاءه من الجراكسة بدأوا يفكرون فى مصالحهم على حساب السلطان الناصر محمد بن قلاون . ولكن الجراكسة لم يكونوا قد وصلوا بعد إلى المرحلة التى تمكنهم من الإنفراد بالسلطة ، فقد كان المماليك البحرية وغيرهم من الأتراك مايزالون يتمتعون بقدر كبير من النفوذ فى مواجهة نفوذ الجراكسة المتصاعد وكان على رأسهم الأمير سلار [١٠]. وعبثا حاول السلطان الناصر محمد أن يتخلص من نفوذهما ، وحين فشل تنازل عن العرش وآثر أن يهرب إلى حصن الكرك [١١].

وكانت فرصة للأمراء الجراكسة حين أعتلى كبيرهم بيبرس الجاشنكير عرش السلطنة ليكون

بذلك أول سلاطين الجراكسة . ولكن المماليك الأتراك رفضوا قبول الأمر الواقع وأبدوا معارضة عنيفة لحكم الجراكسة وهرب المظفر بيبرس الجاشنكير من سلطنته التى مكث فيها عامين أو أقل ٧٠٨ هـ - ٧٠٩ هـ / ١٣٠٨ - ١٣٠٩ (١٢). واسترد السلطان محمد عرشه فى سلطنته الثالثة ، وقد علمته خبرته ومعاناته الطويلة أن الإسراف فى الاعتماد على البرجية خطر يجب تحاشيه فأخذ يلجأ إلى انتزاع بعض اقطاعاتهم ، وأغرق من يخشى خطره منهم فى نهر النيل(١٣). وإذا كان السلطان الناصر محمد قد حكم البلاد بيد من حديد فى سلطنته الثالثة ، فان أبناءه وأحفاده - كانوا فى الغالب حفنة من الأطفال بحيث صار كبار الأمراء الجراكسة يحركونهم وفق هواهم . ومرة أخرى عادت قوة الجراكسة للظهور على مسرح الأحداث السياسية.

وفى خضم الحوادث التى انتهت بمصرع السلطان الأشرف شعبان ، سنة ١٣٧٦م(١٤)، ظهر الأمير برقوق كواحد من الجراكسة الكبار . وتروى المصادر التاريخية أن هذا الأمير الذى أسس دولة المماليك الجراكسة قد جلبه تجار الرقيق إلى مصر حيث اشتراه الأمير يلبغا الخاصكى حوالى سنة ١٣٦٣م ، ثم اعتقه وترقى فى خدمته . ولكن مصرع سيده عرضه للسجن فى الكرك حتى سنة ١٣٧١م ، ولم يسمح له بالعودة سوى بعد عامين من الافراج عنه ، وقد ساهم بقدر كبير فى المؤامرة التى انتهت بمصرع السطان الأشرف شعبان . وعلى العرش جلس طفل آخر تحت اسم السلطان المنصور على ، وكان فى السادسة من عمره . وهو ما كان يعنى أن تدور حلقة أخرى من حلقات الصراع (١٥).

وأفاد برقوق كثيرا من هذا الصراع ، إذ ما تمت ترقيته من أمير صغير ، برتبة أمير عشرة، إلى قائد كبير فى الجيش المملوكى ، ثم رقى إلى رتبة عليا فى جيش المماليك وهى أمير مائة مقدم ألف . وكان عليه أن يواجه خصوما ومنافسين آخرين فى الطريق إلى العرش ، ولكنه استطاع التخلص من الجميع . واقتسم السلطة والنفوذ مع أمير آخر اسمه بركة (١٦) . حتى أن المصريين بسخريتهم اللاذعة كانوا يقولون : " برقوق وبركة نصبا على الدنيا الشبكة " وكانت الخطوة الأخيرة نحو العرش تستوجب التخلص من بركة . وهنا تجلى ذكاء برقوق ومكره السياسى ، كما ظهرت معرفته بطبائع المصريين ومواقفهم السياسية . إذ أنه حرض بركة على انتزاع بعض أراضى الأوقاف الإسلامية وتوزيعها على أتباعه ، على حين أخذ برقوق يتقرب

إلى المصريين بالافراج عن بعض الذين حبسهم بركة وقد ثار المصريون على بركة وتزعمهم الشيخ سراج الدين البلقينى وعدد من العلماء وأهل العمامة . ثم حدث الصدام المرتقب بين قوات الجراكسة بزعامة برقوق ، وقوات الأتراك بزعامة بركة ، وكانت الهزيمة من نصيب الأخير الذى كان مصيره السجن ثم القتل .

ولكن برقوق لم يستولْ على العرش بسرعة . وأقام على العرش صبيا آخر بدلا من الطفل المنصور على الذى توفى سنة ١٣٨١م . ولأن السلطان الجديد كان فى الحادية عشرة من عمره(١٧) ، فقد شاركه برقوق فى العرش و ساعده هذا على التمهيد لحكم الجراكسة ، فعين رفاقه فى المناصب الكبرى . وبدأ سياسة عامة للتقرب من الناس لكسب رضاهم ، فأخذ يلغى الضرائب والمكوس ، وسك عمله جديدة قوية وخالية من الغش والتزوير ، مما ادى إلى انتعاش اقتصادى محدود . وعلى صعيد السياسة الخارجية استطاعت قواته صد الهجوم الذى قام به التركمان على حلب سنة ١٣٨١م ، فأعطاه النصر مزيدا من التأييد من جانب الناس .

ولم يكن الاتراك ليسلمون مقاليد الحكم للجراكسة بهذه السهولة ، ومن ثم فانهم دبروا مؤامرة للإطاحة ببرقوق . ولكن المؤامرة فشلت ، وتم القبض على المتآمرين ونفيهم (١٨). وكان ذلك آخر العهد بالنفوذ التركى وبداية لصعود نجم المملوكية الجركسية .

وفى سنة ١٣٨٢م صعد اثنان من الأمراء الجراكسة ، من أعوان برقوق ، إلى القلعة حيث اقتادا السلطان الطفل ليسلماه إلى أهله . وارتقى برقوق عرش السلطنة تحت إسم السلطان الظاهر برقوق ،(١٩) وقد ظل الجراكسة فى حكم البلاد حتى سقوطها تحت السيطرة العثمانية سنة ١٥١٧م . وبصعود برقوق على عرش السلطنة بدأ تاريخ سلطنة المماليك الجراكسة . وكانت أهم خصائص هذه الدولة هى تلك الخاصية التى استمدت منها اسمها ، ذلك أن معظم سلاطينها كانوا من الجراكسة ، ولم يشذ عن هذه القاعدة سوى إثنين من السلاطين هما خشقدم وتمربغا اللذان كانا من أصل يونانى (٢٠).

هذه الدولة التى استمرت فى حكم البلاد مائة وأربعة وثلاثين عاما توالى فيها على عرش البلاد خمسة وعشرون سلطانا منهم ستة عشر سلطانا تولوا العرش فى تعاقب سريع بحيث اهتزت مكانة السلطان ، ولم يعد أكثر من " الأول بين أقرانه " ، فقد كان الأمراء هم الذين

يولون السلاطين ويعزلونهم ، أو يقتلونهم فى غالب الأحوال . لقد تجلى فى عصر الجراكسة فساد النظام السياسى الذى حكمه تماما مبدأ " الحكم لمن غلب " .

ذلك أن تطورا حدث فى نظام تربية المماليك فى عصر الجراكسة أدى إلى ضعف الأسس التى قام عليها النظام السياسى المملوكى . فقد استعاض السلاطين والأمراء عن المماليك الأطفال الذين كانوا يخضعون لنظام صارم من التربية والتدريب بالمماليك من الشباب اليافع الذين تخطوا سن البلوغ وقد عرف هؤلاء باسم " الجلبان " أو " الأجلاب " . وكانت النتيجة الطبيعية لهذا التطور أن ضعفت رابطة " الأستاذية " التى كانت تربط بين المماليك وسيدهم الذى كان له الفضل فى تربيتهم وتدريبهم منذ نعومة أظفارهم ، كما تخلخلت أواصر رابطة "الخشداشية " التى تجمع بين المماليك فى اطار زمالتهم فى طائفة بعينها من طوائف المماليك . ومن ناحية أخرى ، ضعفت سيطرة الأمراء والسلاطين على أولئك المماليك الجلبان مما أدى إلى كثير من حوادث الشغب والاضطراب وحروب الشوارع التى كانت طرقات القاهرة وأزقتها مسرحا لها .

وقد زاد معدل الحوادث العنيفة فى عصر المماليك الجراكسة . حقيقة أن عصر المماليك البحرية قد شهد مثل هذه الحوادث والحروب الداخلية بين طوائف المماليك ، ولكن ذلك كان مرهونا بتصارع الأمراء الكبار حول العرش فى غالب الأحوال . ولكن نظام تربية المماليك الصارم فى عصر المماليك البحرية كان يكفل للسلاطين والأمراء السيطرة على مماليكهم ، وساعدهم على ذلك مواردهم التى وفرتها الزراعة المزدهرة والتجارة المربحة . ولكن شراء الجلبان من ناحية ، والسماح للمماليك بالنزول من القلعة وسكنى القاهرة منذ عهد الظاهر برقوق من ناحية أخرى ، أضعف الرقابة عليهم كما قلل من فرصة السيطرة على حركتهم . وأدى ذلك إلى ازدياد منحنى التدهور السياسى والأمنى ، كما زاد نفوذ المماليك الجلبان الذين عجز السلاطين والأمراء عن ردعهم . ومن ثم تكررت حوادث الشغب التى كانوا يثيرونها ، فضلا عن حوادث نهب الأسواق وخطف البضائع والاعتداء على الناس فى الشوارع والأسواق حتى أمست تلك الحوادث العنيفة بمثابة النغمة الدالة فى حياة المصريين آنذاك .

والحوادث التى أثارها الجلبان كثيرة ومتعددة . وفى سنة ٨٧٧ هـ هاجموا أحد كبار موظفى

الدولة وأهانوه (٢١). ولما وجدوا أن الحادث مر دون عقاب تعددت حوادثهم وكثرت اعتداءاتهم على الأمراء وكبار موظفي الدولة دون أن يجدوا قوة تردعهم أو تقف فى طريقهم . بل أن واحداً من كبار سلاطين ذلك العصر ، هو السلطان " قايتباى " ، لم يستطع أن يفعل شيئاً سوى أن يحتجب بالقلعة احتجاجا على تصرفات المماليك الذين أشاعوا الذعر بين الأمراء بحيث امتنعوا عن الصعود إلى القلعة لمباشرة مهام الحكم فترة من الزمان . وفى العام التالى أراد المماليك قتل الأمير " يشبك الداوادار " ، فأمر السلطان جيشه بالاستعداد لقتال الجلبان وماجت القاهرة بالفزع والفوضى وأغلقت الأسواق (٢٢) .

وفى الشطر الأخير من ذلك العصر زاد معدل الحوادث العنيفة التى كان مصدرها المماليك الجلبان . وعلى الرغم من أن الأوامر كانت تصدر من حين لآخر بعدم تعرض المماليك للناس والباعة والتجار ، فانه يبدو أن عجز السلاطين وتدهور سلطة الدولة جعل تلك الأوامر تبدو "... كضرب رباب ، أو كطن ذباب ... " على حد تعبير المؤرخ ابن تغرى بردى (٢٣). وقد أدى هذا إلى التدهور الاقتصادى بشكل واضح ..

وعلى الرغم من تدهور أحوال الدولة السياسية ، وانهيار الاقتصاد ، فان مرتبات المماليك النقدية تزايدت نتيجة لتدهور انتاجية الأرض الزراعية التى كانت تمنح لهم كاقطاعات من ناحية وكثرة اعداد المماليك من ناحية ثانية ، وتفشى الرشوة والفساد من ناحية ثالثة ولم تعد الدولة قادرة على الوفاء بهذه المطالب مما كان يدفع المماليك إلى التمرد وإثارة الشغب . فقد كانت رواتب المماليك فى عهد السلطان المؤيد شيخ (٨١٥ - ٨٢٤ هـ) أحد عشر ألف دينار مخصصة للمماليك السلطانية وحدهم ، زادت فى عهد السلطان التالى (الأشرف برسباى ٨٢٥ - ٨٤١ هـ) الى ثمانية عشر ألف دينار ، ثم قفزت إلى ستة وأربعين ألف دينار فى عهد السلطان قايتباى (٨٧٢ - ٩٠١ هـ) (٢٤) ونتيجة لهذا جمع السلطان قايتباى مجلسا بالقلعة حضره قضاة القضاة ونوابهم وعدد من شيوخ العلماء . وأخذ السلطان يدعو على نفسه بالموت ويتبرم من السلطنة نظرا لأن الخزانة خاوية ومطالب المماليك كثيرة . وكان السبب فى زيادة مرتبات المماليك على هذا النحو هو أن بعضهم كان يأخذ مرتباً له ولأولاده دون أن يكون له أولاد مقابل رشوة يدفعها للاستادار الذى كان مسئولا عن المرتبات (٢٥).

وبدأت رواتب المماليك تتأخر ، وبدأوا هم يثورون ويهاجمون الأسواق والناس لكى يستولوا على ما يريدون ، ففى سنة ٩٠٦ هـ ثاروا على السلطان قنصوة الغورى بسبب تأخر الرواتب ، فشكى من أن الخزانة خاوية والمماليك كثيرة " ... فمن أين أسد هؤلاء المماليك ؟ ... " ثم تكررت الحكاية فى العام التالى حين تأخرت رواتب المماليك ثلاثة شهور ، فتمردوا على السلطان وهددوه ، فأخذ يستولى على أموال الناس قسرا وأرغمهم على دفع الضرائب والإيجارات لمدة عشرة شهور مقدما (٢٦). وتوالت حوادث المماليك الجلبان بكثرة حتى نهاية العصر .

ويبدو أن عجز الحكام عن منع الجلبان من الاعتداء على الأسواق والناس جعل المصريين يعتمدون على أنفسهم فى التصدى لأولئك المماليك . وقد ألحق الناس كثيرا من الأذى والضرر بالمماليك . فقد نودى بالقاهرة سنة ٩٢١ هـ / ١٥١٥م بعدم تعرض الناس لمماليك السلطان والإضرار بهم وإلا كان جزاء من يفعل ذلك قطع يده (٢٧) . وقد أدت هذه الحوادث إلى مزيد من الفشل السياسى للدولة .

على أية حال ، فان هذا الفشل السياسى انعكس على حالة الأمن فى البلاد فى عصر المماليك الجراكسة . بيد أن الواقع التاريخى يقتضى منا أن نقرر أن عصر المماليك البحرية ، قد شهد أيضا فترات من اضطراب الأمن لاسيما فى عهود السلاطين الضعاف . ولكن التدهور الأمنى اتخذ صفة دائمة وثابتة فى عصر الجراكسة .

ذلك أن حوادث سرقات الأسواق على أيدى عصابات كبيرة العدد من الفرسان والمشا أصبحت مادة ثابتة فى أخبار ذلك العصر . وكانت تلك العصابات تنهب البضائع من الأسوا وتقتل الخفراء دون أن تجد من يتعقبها (٢٨).

كذلك فان قبائل العربان بدأت تهاجم ضواحى المدن فى وضح النهار ، وينهبون الناس ، وقد يقتلون البعض ، أو يطلقون سراح بعض المسجونين دون أن يجدوا من يطاردهم أو يقف فى طريقهم . كما تعددت حوادث العثور على قتلى من المماليك دون معرفة القاتل (٢٩) .

هذا على المستوى الداخلى ، أما على المستوى الخارجى فان أهم الحوادث التى تعرضت لها

دولة سلاطين المماليك الجراكسة انحصرت فى القتال ضد تيمور لنك ، وغارات الأسطول المصرى على كل من قبرص ورودس .

بدأت سلطنة برقوق بمعارضة سياسية وعسكرية من جانب حاكم أبلستين بالشام الأمير الطنبغا السلطانى ، ولكن ثورة هذا الأمير الذى رفض الخضوع لحكم الجراكسة انتهت بالفشل بفراره إلى بلاد التتار (٣٠). وفى القاهرة حاك المماليك الأتراك مؤامرة لتولية الخليفة العباسى بالقاهرة عرش السلطنة ، وانتهت هذه المحاولة أيضا بالفشل وعزل الخليفة وتولية غيره (٣١). ثم اتحدت طوائف المماليك ضد برقوق ، وتزعمهم منطاش نائب ملطية فى الشام ، وهو زعيم المماليك الأشرفية (نسبة إلى الأشرف خليل بن قلاون) ويلبغا الناصرى نائب حلب بالشام أيضا وهو زعيم المماليك اليلبغارية (نسبة إلى يلبغا الخاصكى) . واستطاع الثوار هزيمة جيش السلطان فى دمشق وساروا فى طريقهم إلى القاهرة (٣٢).

وعبثا حاول برقوق أن يستميل الرأى العام معه بالغاء الضرائب والمكوس وإعادة الخليفة العباسى المخلوع . ولكن أمراء المماليك تسللوا للانضمام إلى جيش الثوار القادمين من الشام وفى ذلك الوقت كان الطاعون قد انتشر فى القاهرة ليزيد الأحوال سوءا ، ولم يجد برقوق مفرا من الهرب والاختفاء فى منزل أحد الخياطين بالقاهرة . ودخل جيش يلبغا القاهرة وصار بذلك سيد الموقف . وتم القبض على برقوق ونفى إلى الكرك (٣٣).

أما عرش السلطنة فقد أجلس الثوار عليه طفلا كان قد اعتلاه من قبل ، وهو الصالح أمير حاج ابن الأشرف شعبان . ولكن الصراع لم يلبث أن دب بين يلبغا ومنطاش حول السلطة . وهنا حانت الفرصة لبرقوق لكى يسترد عرشه ، فكون جيشا من الجراكسة فى الشام وزحف به على دمشق حيث استولى عليها . وبعد عدة تطورات تمكن برقوق من استرداد عرشه . ليستمر فى سلطنته الثانية تسع سنوات قضاها فى مطاردة المماليك الأتراك ومصادرة كل ممتلكاتهم وإقطاعاتهم وتوزيعها على الجراكسة .

وعندما حاولت قبائل العربان التمرد على سلطة برقوق والاستيلاء على السلطنة والخلافة ، كشف برقوق المؤامرة وسجن زعماءها .

وعلى المستوى الخارجي ، كان هناك خطر جديد قد بدأ يهدد حدود سلطنة مماليك الجراكسة، ذلك هو خطر تيمورلنك الذى كان ينتمى إلى بيت من أشراف التتار . ولد فى مدينة سمرقند التى كانت قاعدة لعملياته العسكرية التى تمكن بواسطتها من فرض نفوذه على بلاد ما وراء النهر وخراسان وطبرستان حتى استولى على مدينة تبريز فى إيران الحالية سنة ١٣٦٨ م ثم استولى على بغداد سنة ١٣٩٣ م . وبذلك بات على وشك الصدام مع دولة المماليك التى اقترب كثيرا من حدودها . وأرسل تيمور لنك رسالة تفيض بالتهديد إلى برقوق الذى بادر بقتل الرسل واستعد للقتال (٣٤).

ولكن تيمور لنك كان مشغولا بالقتال فى الهند ، فآثر أن يؤجل الصدام إلى حين . وفى الوقت نفسه ساعد برقوق على طرد الحامية التى تركها تيمورلنك فى بغداد . وأعلن حاكم بغداد تبعيته للسلطان فى مصر . ولكن تيمور لنك استعاد بغداد مرة أخرى سنة ١٣٩٩م . وجاءت تلك الخطوة فى الوقت الذى توفى فيه السلطان برقوق (٣٥).

وتولى الحكم بعده ابنه السلطان الناصر فرج الذى كان فى العاشرة من عمره . وفى أثناء حكمه لقى الجيش المملوكى هزيمتين كبيرتين ضد قوات تيمورلنك فى حلب ودمشق سنة ١٤٠٠م. وقد اقنعت الهزيمة سلطان المماليك بعقد معاهدة مع تيمورلنك الذى توفى بعد ذلك فى سمرقند سنة ١٤٠٥ م (٣٦).

أما الحادث الهام الثانى على المستوى الخارجي ، فهو ما حدث إبان حكم السلطان الأشرف برسباى (١٤٢٢ - ١٤٣٨م) ، ذلك أن طول مدة حكم هذا السلطان مكنته من القيام بمشروع عسكرى كبير هو غزو جزيرة قبرص وتحويلها إلى تابع للدولة المصرية . وقد ذكرنا سابقا كيف أن هذه الجزيرة صارت قاعدة لعمليات الصليبيين العسكرية والبحرية ضد المسلمين وكيف ملكها بطرس لوزينان هاجم الاسكندرية وخربها سنة ١٣٦٥م . وقد حاول المماليك غزو قبرص زمن بيبرس . كذلك فان السلطان الأشرف شعبان شن بعض الغارات ضد جزيرة قبرص ولكنه لم يحاول الاستيلاء عليها . وعندما تولى برسباى عرش البلاد سنة ١٤٢٢م رأى أن غزو قبرص يمكن أن يحقق له كثيرا من أهدافه السياسية الداخلية . وفى السنة الثانية من حكم هذا السلطان جاءت الأخبار بأن الفرنج استولوا على مركبين من مراكب المسلمين وفيهما حوالى مائة مسلم وبأن جانوس لوزينان ملك قبرص استولى على مركب للسلطان كانت محملة بالهدايا المرسلة إلى السلطان مراد العثمانى .

وكان رد الفعل سريعا وعنيفا من جانب مصر ، فقد شن الأسطول المصرى ثلاث حملات لغزو قبرص فى سنوات ١٤٢٤ ، ١٤٢٥ ، ١٤٢٦ م على التوالى . وقد حققت الحملتان الأولى والثانية نتائج مرضية وعادت بكثير من الأسرى والغنائم ، ولكن برسباى أصر على اخضاع الجزيرة لحكمه حتى يتخلص نهائيا من المتاعب التى يسببها بقايا الصليبيين فى هذه الجزيرة . وقد تمكنت الحملة الثالثة من تدمير ليماسول ميناء الجزيرة ، وأسروا الملك القبرصى نفسه ، ثم استولوا على نيقوسيا عاصمة الجزيرة ورفعوا الرايات المصرية على مبانيها (٣٧).

وعادت الحملة لتسير فى موكب حاشد فى شوارع القاهرة ، وخلفهم الأسرى ومعهم الملك جانوس الذى قبل الأرض تحت قدمى السلطان واستعطفه وأعلن خضوعه للحكم المصرى ودفع فدية كبيرة . وهكذا كانت هذه الحملة نجاحا سياسيا كبيرا للسلطان الأشرف برسباى على المستوى الخارجى يعوضه عن الفشل السياسى الكبير فى الداخل ، حيث كانت أحوال البلاد والعباد فى تدهو مستمر كما أوضحنا من قبل .

وفى عهد السلطان الظاهر جقمق (١٤٣٨ - ١٤٥٣ م) تم غزو جزيرة رودس التى كانت مركزا هاما للصليبيين بعد طردهم من فلسطين . فقد اتخذها فرسان الاسبتارية قاعدة لهم يشنون منها غاراتهم على نحو ما كان آل لوزينان يفعلون فى قبرص (٣٨).

وقد أرسل السلطان جقمق ، هو الآخر ، ثلاث حملات ضد رودس ، وكانت الهزيمة من نصيب الحملة الأولى التى استطاع الاسبتارية أن يلحقوا بها بعض الخسائر . وحققت الحملة الثانية بعض النتائج الايجابية حين حطمت بعض الحصون ثم عادت إلى مصر بفعل عواصف الشتاء التى أعاقت عملياتها العسكرية . أما الحملة الثالثة ، فقد فشلت فى تحقيق أهدافها . وتم عقد صلح بين الطرفين بعد أن تعهد الاسبتارية بعدم العدوان على السفن التجارية الإسلامية العاملة فى البحر المتوسط (٣٩).

وبعد عهد جقمق ، لم يظهر سلطان هام سوى قايتباى الذى كان حريصا على تخليد اسمه بالمنشآت الكثيرة على الرغم من ازدياد التدهور فى أحوال البلاد بسبب كثرة الضرائب والأوبئة والمجاعات .

وبعد قايتباى تولى عدد من السلاطين عرش البلاد فى تعاقب سريع يعكس مدى التدهور والاضطراب . وقد انتهت حياة معظم السلاطين الذين تولوا العرش بعد قايتباى بالقتل أو الخنق أو السجن ، وبات كرسى السلطنة خطرا يتهرب الجميع من الجلوس عليه وليس أدل على

ذلك مما تحكيه المصادر التاريخية من أن قنصوة الغورى (أقوى أمراء زمانه) رفض العرش حين عرضه الأمراء عليه سنة ١٥٠١ م ، بل كان يبكى . فقد ذكر ابن أياس أن الأمراء " ... سحبوه وأجلسوه وهو يمتنع من ذلك ويبكى ، وحين ألحوا عليه اشترط عليهم ألا يقتلوه ، وأن يصرفوه بالمعروف إذا أرادوا عزله (٤٠).

وعلى الرغم من قوة شخصية قنصوة الغورى وصلابته ، وطول مدة حكمه ، فان ذلك كله لم يمنع دولة سلاطين المماليك من أن تمضى إلى مصيرها المحتوم . فقد وصل التدهور الداخلى إلى مداه ولم يكن ممكنا أن تصمد الدولة المنهارة من الداخل فى وجه الأخطار القادمة من الخارج .

فقد كان الخطر البرتغالى يطرق البحر الأحمر بعد أن عرف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧ م بمساعدة الملاح المسلم أحمد بن ماجد ، ثم وجدوا لأنفسهم قاعدة للتوسع فى كلكتا بالهند سنة ١٥٠٠ . وكان هذا خطرا جسيما يهدد الدور العالمى للتجار المسلمين ولدولة سلاطين المماليك التى كانت تفيد كثيرا من تجارة المرور عبر مصر . وعندما استنجد أمراء المسلمين فى الهند بسلاطين المماليك يطلبون إمدادهم بالقوات اللازمة لصد البرتغاليين ، حاول الغورى مساعدتهم وأرسل الأسطول المصرى الذى انضم إلى قوات مسلمى الهند، ولكن الهزيمة كانت من نصيب القوات الإسلامية فى معركة ديو البحرية . وبدأ التغلغل لأوربى يصل إلى مداه ، وهاجم البرتغاليون عدن عند مدخل البحر الأحمر سنة ١٥١٣م وكانت تلك ضربة قاصمة للهيبة المصرية فى عالم البحر الأحمر .

وفى الشمال كان هناك خطر آخر يتمثل فى العثمانيين . وقد بدأ العثمانيون فى الظهور على مسرح الأحداث فى المنطقة منذ النصف الأول من القرن الرابع عشر ، وإن كانوا قد وفدوا إلى المنطقة بسبب غزوات التتار ، بقيادة تيمورلنك ، التى أخرجتهم من خراسان إلى منطقة آسيا الوسطى . وحين نشأت الدولة العثمانية واتخذت لنفسها مدينة " بروسة " فى آسيا الصغرى عاصمة لم يكن ثمة مبرر للصدام . ولكن الدولة العثمانية سرعان ما اتسعت لكى تبتلع آسيا الصغرى وتستولى على مدينة القسطنطينية سنة ١٤٥٣م لكى تضع بذلك الفصل الختامى فى تاريخ الإمبراطورية البيزنطية وبعد ذلك اقتربت حدود الدولة العثمانية من حدود الدولة المملوكية مما أوجد نقطة احتكاك بين الطرفين .

ومنذ البداية ، كان للعلاقات بين الدولتين اتجاهان أساسيان فقد كانت الدولتان تتحالفان ضد الخطر البرتغالى الذى كان يهدد السيادة المملوكية على طريق البحر الأحمر وضد غارات

تيمورلنك على حدود الدولتين ، وضد غارات فلول الصليبيين ومشروعات أوربا لإحياء الحركة الصليبية . ومن ناحية أخرى ، بدأ التنافس بين الدولتين بسبب حدودهما المشتركة .

وتصاعدت التوترات بين الدولتين حتى انتهت بمعركة بين الجيش المملوكى بقيادة قنصوة الغورى ، والعثمانى بقيادة سليم خان سلطان بنى عثمان بمرج دابق فى أغسطس سنة ١٥١٦م. واتضحت حالة الدولة المملوكية المنهارة فى صفوف جيش قنصوة الغورى الذى كان الخلاف فيه شديدا بين طوائف المماليك . ولعبت الخيانة دورها إلى جانب التفكك حتى خر الغورى نفسه صريعا تحت سنابك الخيل العثمانية .

وتوغل العثمانيون جنوبا واستولوا على مدن الشام كلها ، حتى دخل السلطان سليم دمشق وصلى بها الجمعة ، وكان طومانباى يتولى فى ذلك الحين وظيفة نائب الغيبة فى مصر وأرسل إليه سليم يطلب منه الدخول فى طاعته فرفض وقرر المقاومة أمام جيش السلطان سليم العثمانى الذى أخذ يتجه جنوبا لغزو مصر . وبذل طومانباى خلال سلطنته القصيرة التى استمرت ثلاثة شهور جهوداً مضنية للدفاع عن مصر ، لكن الدولة المملوكية كانت قد سقطت بالفعل ، ولم تجد محاولات طومانباى شيئا فى إحياء جسد الدولة الذى كان قد مات وحانت ساعته الأخيرة .

كان السلطان طومانباى يحاول أن يلم شعث القوات المملوكية التى ركنت إلى الدعة وهربت من القتال دفاعا عن البلاد ، مكتفية بحروب الشوارع والهجوم على الأسواق وغير ذلك من مظاهر التفسخ والانهيار التى وصمت الطبقة الحاكمة فى مصر آنذاك . وعلى الرغم من تواتر الأنباء يوما بعد يوم عن اقتراب قوات العثمانيين من القاهرة ظل المماليك سادرين فى لهوهم وعبثهم . وحين حاول طومانباى أن يستعد لملاقاة الغزاة صدمته الحقائق القاسية ، من خزانة خاوية ، وموارد مستهلكة ، وجيش متشرذم . وكانت النتيجة أن ينهار المماليك أمام العثمانيين .

وحين اهتز جسد طومانباى فى مشنقته على باب زويلة كان ذلك فصل الختام بالنسبة للدولة المملوكية التى تحملت عبء التصدى للمغول والصليبين ، ثم تخلت عن دورها لقوة إسلامية صاعدة جديدة هى الدولة العثمانية التى كان عليها أن تصون العالم العربى من أطماع الاستعمار الغربى على مدى فترة طويلة حتى أواخر القرن التاسع عشر .

حواشى الفصل الرابع

١ - العمرى ، التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٤٦ ومابعدها .

٢ - المقريزى ، السلوك ، جـ ، ص ٧٥٥ - ص ٧٥٦ .

٣ - المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٤١ .

٤ - ابن أيبك الدواداری ، كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ٣٥٢ - ص ٣٥٣ ؛ ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، جـ ١ ، ص ١٦٩ . وكان عمر الناصر محمد بن قلاون عندما تولى العرش للمرة الأولى تسع سنين .

٥ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٧٩٨ - ص ٨٠٠ .

٦ - نفسه ، جـ ١ ، ص ٨٠٤ - ص ٨٠٦ .

٧ - ابن أيبك الدواداری ، كنز الدرر ، جـ ٨ ، ص ٣٧٠ - ص ٣٨٠ . وكان ذلك سنة ٦٩٨ هـ .

٨ - المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٩٣١ - ص ٩٣٧ .

٩ - كانت سلطنة الناصر محمد بن قلاون الثانية إبتداء من جمادى الأولى سنة ٦٩٨ هـ . وقد عين الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير استادارا (أي المسئول عن البيوت السلطانية) . أنظر :

ابن أيبك الدواداری ، الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر ، ص ٦ - ص ٧ .

١٠ - يذكر ابن حبيب (تذكرة النبيه ، جـ ١ ، ص ٢٨١ - ص ٢٨٢) فى حوادث سنة ٧٠٧ هـ (١٣٠٦م) مانصه " ... وفيها ظهر الوحشة بين السلطان أيده الله وبين الأمير سيف الدين سلار المنصورى ، والأمير ركن الدين بيبرس المنصورى ... وتنكر لهما وسبهما ... " .

١١ - ابن أيبك الدواداری ، الدر الفاخر ، ص ١٥٥ - ص ١٥٦ .

١٢ - نفسه ، ص ١٥٦ - ص ١٧٦ .

١٣ - المقريزى ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٧٨ - ص ٨٤ .

١٤ - نفسه ، جـ ٣ ، ص ٤٧٦ - ص ٤٧٧ .

١٥ - نفسه ، جـ ٣ ، ص ٢٨٤ - ص ٢٨٥ .

١٦ - نفسه ، جـ ٣ ، ص ٣٠٨ - ص ٣١٦ .

١٧ - نفسه ، جـ ٣ ، ص ٤٣٩ .

١٨ - نفسه ، جـ ٣ ، ص ٤٧٣ - ص ٤٧٤ .

١٩ - نفسه ، جـ ٣ ، ص ٤٧٦ .

٢٠ - ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ ١٦ ، ص ٢٥٣ . وقد اعتلى الملك الظاهر خشقدم عرش السلطنة سنة ٨٦٥ هـ ، وهو الأول من الأروام ، بعد أن تسلطن من الجراكسة وأولادهم ثلاثة عشر سلطانا . وقد حكم ست سنين وستة أشهر وأثنين وعشرين يوماً ومات سنة ٨٧٢ هـ . أما تمربغا فقد تولى الحكم سنة ٨٧٢ هـ ليستمر من جمادى الأولى إلى شهر رجب فقط عندما خلفه قايتباى .

٢١ - ابن إياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ ٣ ، ص ٨٢ .

٢٢ - نفسه ، جـ ٣ ، ص ٩٤ .

٢٣ - ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٦ ، ص ٩٨ .

٢٤ - ابن الصيرفى ، إنباء الهصر بزبناء العصر ، ص ٣٢ - ص ٣٧ .

٢٥ - المصدر نفسه ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ٣ ، ص ٢٩ ، جـ ٤ ، ص ١٦ .

٢٦ - ابن أياس ، جـ ٤ ، ص ١٦ ومابعدها .

٢٧ - المصدر نفسه ، جـ ٥ ، ص ٤٦٥ .

٢٨ - قاسم عبده قاسم ، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، ص ٥٩ - ص ٦٠ .

٢٩ - نفسه ، ص ١٦٠ .

٣٠ - المقريزى ، السلوك ، جـ ٣ ، ص ٤٨١ - ص ٤٨٢ .

٣١ - نفسه ، جـ ٣ ، ص ٤٩٣ - ٤٩٥ .

٣٢ - نفسه ، جـ ٣ ، ص ٦٠٣ - ص ٦١٦ .

٣٣ - نفسه ، جـ ٣ ، ص ٦٧٠ - ص ٧٠٤.

٣٤ - نفسه ، جـ ٣ ، ص ٧٩١ .

٣٥ - نفسه ، جـ ٣ ، ص ٩٣٦ - ص ٩٣٧.

٣٦ - نفسه ، جـ ٣ ، ص ١٠٤٤ - ص ١٠٤٦ .

٣٧ - ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ١٤ ، ص ٢٧٥ - ص ٢٨١ .

٣٨ - نفسه ، جـ ١٥ ، ص ٣٥١ ، ص ٣٦١ - ص ٣٦٣ .

٣٩ - نفسه .

٤٠ - ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ٤ ، ص ١٦ - ص ١٧ .

فهرس الكتاب

صفحة

رقم الإيداع : ٥٢٠٢ / ٩٥

I.S.B.N. 977 - 5487 - 30 - 7

طبع بمطابع الهداية ـ البراجيل ـ الجيزة